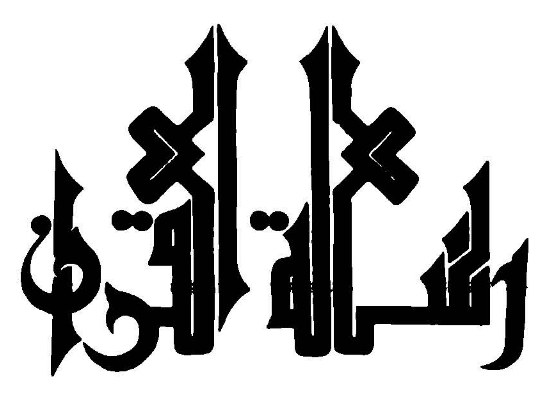
رسالة القرآن

نشرة فصلية تعنى بالشؤون القرآنية

● العدد الخامس عشر ● رجب، شعبان، رمضان ١٤١٤هـ





نشرة فصلية تعنى بالشؤون القرآنية

تصدرها دارالقرآن الكريم

المراسلات:

الجمهورية الاسلامية الايرانية

قم ـ دارالقران الكريم

ص.ب ۳۷۱۸۵/۱۵۱

● النشرة متخصصة بالدراسات والشؤون القرآنية

● ترحب رسالة القرآن بكل نتاج ينسجم واهتماماتها القرآنية.

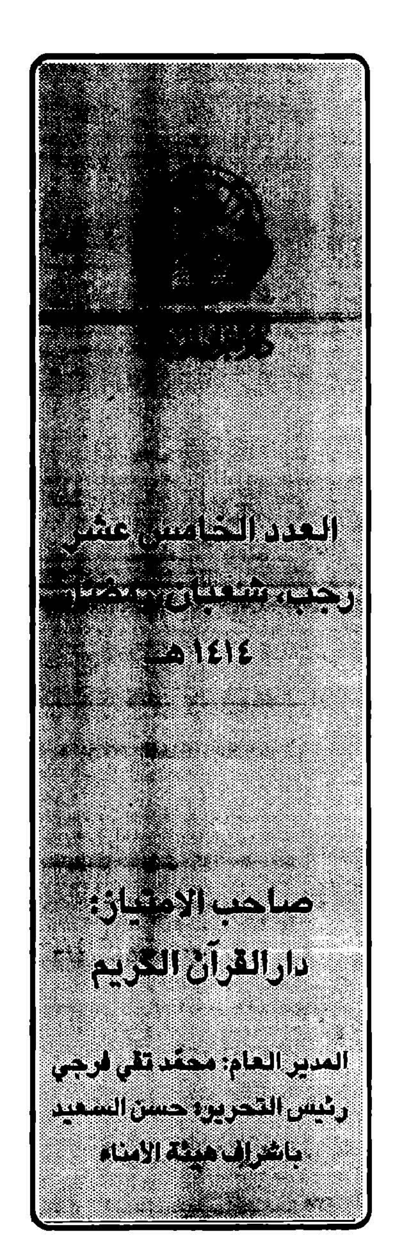
● ترتيب المقالات يخضع لاعتبارات فنية.

● ما يرد في المقالات من افكار يتحمل الكاتب مسؤوليتها.

● النشرة غير ملتزمة باعادة المواد التي تتلقاها للنشر.

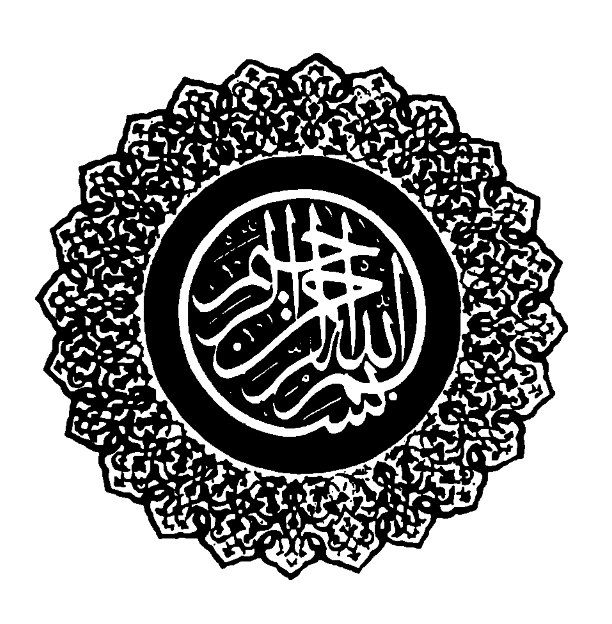
الثمن: ۱۰۰ تومانا أو ما يعادلها

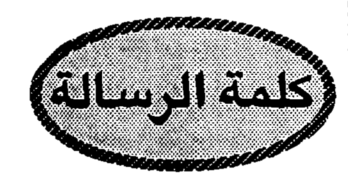
ليتوكرافي: حميد ـ قم المطبعة: باقرى





المحتويات


بسم الله الرحمن الرحيم





لم يمنح أيّ مخلوق موهبة أعلى مرتبة وأجـلّ من العقل، لينقذ ذلك المخلوق، ويخرجه من سجن الظلمات والغرائز الحيوانية، فالبس الإنسان وهو أحد المخلوقات لباس العزّ والفخر الإلهي، فسجدت له الملائكة طوعاً بامر اللّـه، ولولا ذلك العقل لما وجد على الأرض مخلوق أكثر خسّة ودناءةً منه **﴿ إنّ شرّ الدواب عند اللّه الصمّ البكم الذين لايعقلون﴾**(الانفال: ٢٢)، **﴿ويجعل الرجس على الذين لايعقلون﴾**(يونس:١٠٠)، **﴿أم تحسب أن أكثرهم يسمعون أو يعقلون إنْ هم إلاّ كالأنعام بل هم أضلّ سبيلاً﴾**(الفرقان:٤٤).

ويكتشف الإنسان من خلال عقله وفكره فتتشكل شخصيته، فيكون عقله وفهمه وحافظته وعلمه ومنطقه هي الطرق التي يسلكها للوصول إلى الكمال والصلاح والافق الواسع. لقد وصف اللّه سبحانه أهل العقل في كتابه أحسن وصف اذ قال: **﴿فبشّر عباد الذين يستمعون القول فيتّبعون أحسنه أولئك الذين هداهم اللّه وأولئك هم أولو الالباب﴾**(الزمر: ١٧ـ١٨).

إن العقل هو السير نحو العلى، والملاك الذي يعرف بواسطته الخير والشرّ، والحقّ والباطل، ومعيار الجمال والقبح والطهر والدنس وهو مقياس كل القيم الخيّرة، فحق لذلك أن يلبس العقل ثوب الحكمة فيوحّد خالقه. لقد حرص القرآن على التأكيد بان الوصول الى الطريق السوي لايتم الا عبر الايمان والاعتقاد الحق الذي يعتبر سراج ذلك الطريق: **﴿ إنّ في خلق السموات والارض واختلاف الليل والنهار والفلك التي تجري في البحر بما ينفع الناس وماانزل الله من السماء من ماء فاحيا به الارض بعد موتها وبث فيها من كل دابة وتصريف الرياح والسحاب المسخّر بين**

السماء والارض لايات لقوم يعقلون﴾ (البقرة:١٦٤).

وقد بين الله سبحانه في كتابه الكريم ظواهر الطبيعة العجيبة، ودقة صنعها وصورها اجمل تصوير ، وارجعها الى حكمة الخلق، وامر المخلوق بالخضوع لكي لايكون للناس على الله حجة **﴿ومن يرغب عن ملة ابراهيم الا من سفه نفسه﴾**(البقرة:١٣٠). اما الامام الصادق(ع) فبين ذلك بصورة اخرى حيث قال ردا على سؤال: ماهو العقل؟ : العقل هو ما يعبد به الله سبحانه فتنال به الجنة، لقد بين القرآن الكريم ذلك الكتاب السماوي الاخير للبشرية مجمل الاحكام الالهية والتعاليم المستخلصة من باقي الاديان السماوية ورمز التكامل والنجاة والسعادة عند الانسان، **﴿قل إنما اعظكم بواحدة ان تقوموا لله مثنى وفرادى ثم تتفكروا﴾** (سبأ:٤٦)، ومن جهة اخرى يبين مصير الذين لايؤمنون بما يرون من عجائب الصنع والمعجزات: **﴿كلما القي فيها فوج سألهم خزنتها الم يأتكم نذير * قالوا بلى قد جاءنا نذير فكذبنا وقلنا مانزل الله من شيء ان انتم الا في ضلال كبير *وقالوا لو كنا نسمع او نعقل ماكن في اصحاب السعير﴾** (الملك:٨-١٠).

وعلى هذا فان لله حجتين تكمّل بعضها بعضاً: الحجة الواضحة والحجة المخفية. فالاولى تعني الانبياء والاولياء الذين يدعون الى انقاذ البشرية من الخرافات والجهل والرجوع الى الفطرة الصحيحة والاعتماد على العقل، واما الحجة المخفية، فتتمثل بالعقل البشري والذي يهدي الانسان بدوره عبر العالم المحسوس الى العالم المعقول.

ان اول آفات العقل هو الجهل. فالعقل هو المحك الوحيد للعلوم الانسانية المختلفة والذي يوصل الانسان الى القيم الصحيحة العليا وينقذه من الضلال والتيه، **﴿وتلك الامثال نضربها للناس وما يعقلها الا العالمون﴾**(العنكبوت:٤٣)، **﴿قل هل يستوي الذين يعلمون والذين لايعلمون ﴾** (الزمر:٩)، **﴿ومايستوي الاعمى والبصير ولا الظلمات ولا النور ...ومايستوي الاحياء ولا الاموات﴾** (فاطر:١٩-٢٢).

وقد وُصف مقام الخشية والتقوى كأرفع مايكون من مقامات العبودية: **﴿انما يخشى الله من عباده العلماء﴾**(فاطر:٢٨)، ولكن يجب التنويه الى ان العلم يمتلك مراحل ومنازل معينة ومحددة: **﴿ولايحيطون بشيء من علمه الا بما شاء﴾** (البقرة:٢٥٥).

ومهما بلغ العلماء من العلم ومراتبه العليا فهم لم يبتعدوا عن شاطئ بحر العلم اطلاقاً: **﴿وما اوتيتم من العلم الا قليلا﴾**(الاسراء:٨٥). ولايستطيع البشر مهما بلغ من مراحل العلم ان يكتشف اسرار هذا الكون والطبيعه وقد يجزع من ظاهرة او حالة معينة اساء تقديرها، **﴿ وعسى ان تكرهوا شيئاً وهو خير لكم وعسى ان تحبوا شيئاً وهو شرٌ لكم﴾**(البقرة:٢١٦).

والعقل هو الذي يجعل من الانسان عالماً بعد ان كان لاشيء ثم بعد ذلك يقوده الى الهلاك

والمـوت، بعـد ان كـان طفـلاً صغيـرا لايعقل: ﴿والله اخرجكـم من بطون امهـاتكم لاتعلمـون شيئاً﴾(النحل:٧٨). ثم يتعرض الى حالات تجره الى الشيخوخة والمرض: ﴿ومنكم من يردُّ الى ارذل العمر لكي لايعلم من بعد علمٍ شيئاً ان الله عليم قدير﴾(النحل:٧٠)

ومن هذا المنطلق يدعو الله عباده الى التزود من مائدة العلم: ﴿وقل ربي زدني علماً﴾(طه:١١٤). ومما يؤسف له ان العقل خُلِق بطريقة بحيث اذااصابه اي قصور ، قاد صاحبه الى نتائج غير مرضية بل ولايمكن اصلاحه: ﴿وان تطع اكثر من في الارض يضلوك عـن سبيل الله ان يتبعون الا الظن وان هم الايخـرصون﴾(الانعام:١١٦) ﴿ومـايتبـع اكثـرهم الا ظنـاً ان الظن لايغنـي من الحـق شيئاً﴾(يونس:٣٦)

وقـد اعتبرت الحكمـة والعقل والتفكير كـأفضل هـدايا اللّـه الى مخلوقـاته خصـوصاً البشـر منهم. ﴿يؤتي الحكمة من يشاء من عباده ومن يؤت الحكمة فقد اوتي خيراً كثيراً﴾(البقرة:٢٨٩).

والآفة الأُخرى التي تهدِّد العقل النيِّر هي الغـرور ، اذ يتمسَّك بعض أُدعياء العلم على قلَّة علمهم بروحيَّـة ضعيفة تزلـزل عندهم القيم الحقَّـة ، وتقودهـم الـى إظهار الفخر واضمحـلال روح النخوة والشهامة عندهم. ﴿ان الذين يجادلون في آيات الله بغير سلطان أُتاهم ان في صدورهم الا كبر ماهم ببالغيه﴾(غافر:٥٦). ولذا فانه ماقام احد واعلن محاربته للوحي الا وكان جاهلاً سفيهاً ونتيجته الانحدار والخزي: ﴿فلما جـاءتهم رسلهم بالبينـات فرحوا بما عنـدهم من العلم وحـاق بهم ما كانوابه يستهزئون﴾(غافر:٨٣). ان الغرور والتكبر وليدا قصر النظر والسطحية وحب الدنيا الفانية والغفلـة عـن الحق واللـذة الكـاذبـة: ﴿يعلمـون ظـاهـراً من الحيـاة وهم عـن الآخـرة هـم غافلون﴾(الروم:٧).

ان القرآن الكريم حافل بالتجارب والاحداث، فهو يصف طرق التفكير على ثلاثة مستويات: فرد يعبد الدنيـا، متمكن متكبر ومغرور بعلمه المـادي. العلماء الحقيقيون الذين يستفيدون مـن الظواهر الطبيعية في نمط تفكيرهم. والقسم الثالث الافراد البسطاء والذين يحكمون بحسب مايرونه امامهم.

نبدأ اولاً ببيان الشخصية السلبية ومـوقعها الاجتماعي الفذ: ﴿ان قارون كان من قـوم موسى فبغى عليهم وءاتينه من الكنوز ماإن مفاتحه لتنوءُ بالعصبة اولي القوة﴾(القصص:٧٦)

لقد خلقت هذه الثروة من قارون شخصاً قوياً اجتماعياً واقتصادياً واغتر وظلم وجنى ولم يرحم حتى اقرب الناس اليه. وكان قومه من العالمين والعرفاء ينصحونه بالرجوع الى عقله والتفكير باليوم الآخر وان يصلح نفسـه بالثروة التي وهبها اياه ربـه ويعمل خيراً: ﴿اذ قال له قـومه لاتفرح إن الله لايحب الفـرحين*وابتغ فيمـا ءاتيك الله الدار الآخـرة ولاتنس نصيبك من الـدنيا واحسـن كما احسن الله اليك ولاتبـغ الفساد في الارض إن الله لايحـب المفسدين*قـال انما اوتيتـه على علم

عندي...﴾ (القصص:٧٦-٧٨).

ثم يتساءل القرآن هنا: ﴿اولم يعلم ان الله قد اهلك من قبله من القرون من هو اشد منه قوة واكثر جمعاً ولايسئل عن ذنوبهم المجرمون ﴾(القصص:٧٨). وتخبرنا الآية ان قارون كان يعلم ذلك الا انه كان شغوفاً بالدنيا: ﴿فخرج على قومه في زينته قال الذين يريدون الحيوة الدنيا ياليت لنا مثل ماأوتي قارون إنه لذو حظ عظيم﴾(القصص:٧٩). فيبادر العلماء والعارفون باخبار الجهلاء عن حقيقة هذا العالم: ﴿وقال الذين اوتوا العلم ويلكم ثواب الله خير لمن ءامن وعمل صالحاً ولايُلقيها الا الصابرون ﴾(القصص: ٨٠). واخيراً استحق قارون باعماله غضب الله سبحانه، وظهرت صحة قول ناصحيه من قومه.

إن هذه القصة تبين لنا المراتب الثلاث التي تكلمنا عنها، وتوضح لنا ان الاعتماد على مال الدنيا الفاني يجر الانسان شيئاً فشيئاً الى ان ينسى ذكر الله والآخرة، فالعلم هو المفتاح الوحيد الذي يفتح باب الافق، ويوصل الانسان الى شاطئ الطمأنينة لينهل منه قدر استطاعته. إن أحبار اليهود وكهنة النصارى كانوا يعلمون خصوصيات وصفات النبيّ(ص) كما يعرفون ابناءهم وقومهم، ولكنهم ابوا ان يرتفعوا الى المنزلة التي ارادها الله لهم: ﴿الذين آتيناهم الكتاب يعرفونه كما يعرفون ابناءهم وإن فريقاً منهم ليكتمون الحقّ وهم يعلمون﴾(البقرة:١٤٦)

ويجب القول ان العلم الذي لايقود صاحبه الى الهدف المقصود لايعتبر علماً بل حجاباً، والعلماء من هذا النوع هم في الحقيقة جهلاء: ﴿افرأيت من اتخذ الهه هواه واضله الله على علم﴾(الجاثية:٢٣)، ولاشك ان الباحثين يعلمون ان هذا الموضوع يتطلب جهداً ومجالاً كبيرين، وإنما كان هدفنا في هذا البحث ان نلم ببعض جوانب ما يُدعى بالعقل والحكمة. وفي الختام نعرض بعض الآيات التي تبين ان العلم واستخدام العقل هما طريق السعادة والبقاء الابدي: ﴿واتقوا الله واعلموا ان الله مع المتقين﴾(البقرة:١٩٤) ﴿واتقوا الله واعلموا انكم اليه تحشرون﴾(البقرة:٢٠٣)، ﴿واطيعوا الله واطيعوا الرسول واحذروا فإن توليتم فاعلموا انما على رسولنا البلاغ المبين﴾(المائدة: ٩٢).

﴿يا ايها الذين آمنوا لا تخونوا الله والرسول وتخونوا اماناتكم وانتم تعلمون * واعلموا انما اموالكم واولادكم فتنة وان الله عنده اجر عظيم﴾(الانفال: ٢٧-٢٨).

نأمل ان يزيل الله سبحانه من قلوبنا حبَّ الدنيا وان يحفظنا من الجهل والغرور والضلال. ونرفع ايدينا الى البارئ عز وجل ونبتهل ان يجمعنا مع نبيِّه الكريم(ص)، وان يزيدنا علماً على علم، وان يمنحنا من نور حكمته وبصيرته ومعرفته، آمين.

التحرير

قصة آية
المودّة الخاطئة

السيّد مالك الموسوي

«انّ القرآن يجري علىٰ اوّلنا كما جرىٰ في آخرنا ويسري في الباقين كما سرىٰ في الماضين»



﴿يا ايّها الذين آمنوا لا تتّخذوا عدوّي وعدوّكم اولياءَ تُلقون اِليهم بالمودّة...﴾[الممتحنة: ١]

«اللهمَّ خذ العيون والاخبار عن قريش حتىٰ نَبْغَتَها في بلادها»[1].

هكذا كان يدعو الرسولُ القائد(ص) ليكون الهجوم علىٰ المشركين في مكّة مباغتاً، بعد انْ نقضوا معاهدة الصلح بعدوانهم الغادر الذي راح ضحيته عشرون رجلاً من خزاعة حليفة المسلمين.

لقد تصورت قريش، بعد إذ لم يحقق المسلمون نصراً واضحاً في غزوة مؤته مَعَ الروم، أنَّ القيادة الاسلامية لم تعد قادرةً علىٰ الانتصار لحلفائها، والالتزام بعهودها، مما يدعوها الى ان تأخذ موقف الصمت والسكوت مهما كانت الاعتداءات صارخة، والانتهاكات كبيرة!

وَفوْرَ الاعتداء الغاشم علىٰ حليفة المسلمين قَصَد وفدٌ من رجالات خزاعة الىٰ المدينة مستنجداً بالرسول الكريم(ص)..

فلّما دخلوا عليه انطلقَ شاعرهم يرتجزُ قائلاً[2]:

يا ربِّ انّي ناشدٌ محمداً
حلف ابينا وابيه الأتلدا[3]
اِنَّ قريشاً اَخلفوكَ الموعدا
ونَقَضوا ميثاقَكَ المؤكّدا
هم بيّتونا بالوتير هجّدا
وقتّلونا ركّعاً وسجّداً

ولم يكن الرسولُ القائد(ص) بحاجةٍ الى من يشحذ همّته، ويقوّي عزيمته بأرجوزةٍ شعرية بليغةٍ مستنجدة.. فَهُو الأبيّ الذي ما عرفَ الضيمَ يوماً من الأيام، ولا سكت عن حقٍّ يُضام.. فقال قولتَهُ المباركة:

«لا نُصِرْتُ ان لم أنصرْ خزاعةَ في ما انتصرتُ منهُ لنفسي»[٤].

فقام من ساعته، ونَدبَ المسلمين في المدينة وخارجها لأن يكونوا على أُهبةِ الاستعداد، من غير أنْ يعرفوا وجهتهُ ويعلموا مقصده.

وتوالت الوفودُ على الرسول القائد من كُلِّ حدبٍ وصوب، حتى اجتمع في المدينة خلال العشرة الاولى من شهر رمضان نحو عشرة آلاف مقاتل!

ولو لم تعرف قريش إباء الرسول ونجدته وصرامته لعاشت مطمئنةً علىٰ فعلتها.. إلاّ انها أخذت تعيدُ حساباتها، وراحت تعيش الندم والقلق جرّاء ما اقترفتهُ ايديهم الآثمة الغادرة بحليفة المسلمين.. ولم تمضِ بعدُ علىٰ توقيع المعاهدة سنتان.. وقد ادركت انَّ تلك الجريمة النكراء لن تمرَّ بسلام، لما يوليه الاسلام من قدسيةٍ للعهود والمواثيق، ورعايةٍ وحفظٍ للذمام.

وجاءَ رجالات قريش الى أبي سفيان يطلبونَ منهُ انْ يصلح ما أفسده قبل فوات الأوان، فحدَّثهم عن رؤيا زوجته «هند»، فقد «رأت كأنَّ دماً أَقبَلَ من الحجون بسيلٍ حتى وقفَ بالخندق مليّا، ثُمَّ كأنَّ ذلك الدم لم يكن»[٥] فتشاءَم القوم من هذهِ الرؤيا المشؤومة، وتوقعوا شرّاً مقبلاً يحلُّ بديارهم..

وشدَّ ابو سفيان الرحال قاصداً الرسول القائد(ص)، ليكلّمه في الامر قبل أنْ تستنجد به خزاعة، لعله يجدد العهد فيما بينهم وبينه، ويزيد في أمدِ الهدنة!. وكانَ الرسول(ص) قد أمرَ الوفد الخزاعي انْ يرجعوا ويتفرقوا في الاودية، ففعلوا ذلك.. ولم يَرَ أبو سفيان إلاّ بعضاً منه.. فأوجس منهم خيفة.. وظنَّ أنهم سبقوه الى المدينة..

وما ان التقى بالنبي(ص) حتىٰ طلب منهُ ما جاءَ من أجله، فقال لهُ: الهذا جئتَ يا ابا سفيان؟!

قال: نعم. قال(ص) فهل حدثَ عندكم ما يوجب ذلك؟!

قال: معاذَ الله!! فنحنُ على موقفنا وصلحنا يوم الحديبيه، لا نغيِّر ولا نُبدِّل[٦]!!

قام ابو سفيان في مجلس الرسول الاكرم(ص) يجرُّ أذيال الخيبة والخسران.. ولم تنفع كل جهود الوساطة التي طلبها من الصحابة.. لاقناع القيادة الاسلامية بتجديد

العهد، وزيادة الأمد، فعادَ الى مكّة بخفي حنين.. وراحت قريش ترقبُ بقلقٍ ورعبٍ بالغين، ما يُخبّئ لها المستقبل من مصير غامض.. فالايام القادمة حُبلى بالاحداث والمفاجآت والوقائع..

ولقد حَرَص الرسولُ القائد(ص) كُلَّ الحرص على إخفاء أمره في غزوة مكّة.. فلم يُخبر إلاّ القليل من الصحابة.. وقام باجراءات عديدة كانَ يبغي من خلالها تحقيق عنصر المباغتة كما ذكرنا فمنع الجميع من الخروج من المدينة خوفاً من تسرب أنباء الاستعدادات العسكرّية، وأَمَر بعض الويته بالتوجه الى جهاتٍ أُخرىٰ وهميّة.

يقول المؤرخون: إنّهُ لم يكن احدٌ من الناس يظنُّ انَّ الرسول(ص) يريدُ قريشاً، حيث كانت تحركاته توحي أنّه يريدُ غيرها من الاعراب الذينَ لا يزالون على شركهم كبني سُلَيْم وهوازن وثقيف وغيرها.. فقد أَرسل الصحابي ابا قتادة في جماعةٍ من الصحابة الى مكانٍ يُدعىٰ «البطن» ليوهم المتربّصين أنّهُ متجهٌ الى تلك الجبهات(٧)..

ورغم كُلّ تلك التحفظات الشديدة، ومساعي السرّيةِ والكتمان، فقد كادت انباءُ الحملة انْ تصل الى اعداء الاسلام. فكيف حَصَل ذلك؟! وَمنْ الذي حاول تسريب الأَخبار وكشف الاسرار؟!

* * *

كانت قريش أخشىٰ ما تخشاه انْ تؤخذ على حين غرّة، فتُغزى في عقر دارها، فلا تستطيع المقاومة.. ولهذا راحت تسعىٰ جاهدةً لمعرفةِ أنباء المدينة، واخذت تبحثُ عن الوسيلة التي تجعلها تطّلع على الأَسرار.. فلم تجد غير استغلال عواطف بعض المهاجرينَ الذينَ تركوا عوائلهم وأموالهم في مكّة.. علّهم يستجيبون تحتَ ضغوطات الاهل والولد والمال.. واخيراً عثرت علىٰ الرجل المناسب الذي يحقق لها ما ترغبُ وتريد، من دون ان تكلّفَ نفسها ببعث أحد جواسيسها المتمرسين، خوفاً من افتضاحِ أمره، وكشفِ سرّه.

* * *

كانَ حاطب بن أبي بلتعة من الصحابة الذينَ هاجروا في سبيل الله، وشهدوا بدراً.. فذهبت قريش الى عيالهِ يسألونهم انْ يكتبوا إليه ليخبرهم عن نوايا الرسول(ص) في غزوة مكّة.. فماذا يا ترى يكونُ موقفُ ذلك الصحابي المهاجر عندما قرأ نصَّ الكتاب؟ هل يرسلُ اليهم بالجواب ام يُمعن في تمزيق الكتاب؟

لقد عاشَ حاطبٌ احرجَ لحظات حياته.. فها هو حائرٌ بينَ خيارين.. خيارُ الرفض

الـرسـالي أو القبـولُ العاطفـي الخيـاني..

واخيـراً انتصرت عـوامل الضعف البشـري علىٰ عناصر القوّة الايمـانية في شخصيته، فتناسى دورهُ الريادي ومهمته، فكتبَ اليهم مُوجـزاً «من حاطـب بن أبي بلتعـة الى أهلِ مكّة، اعلمـوا أَنَّ رسولَ الله يـريدكـم، فخذوا حِذركم»!!!

ودفَـعَ الكتـاب الـى امـرأة تسمـىٰ «صفيّة»، وقيل «كنـود» من مُزينة، فاخـذتهُ ووضـعته فـي رأسها، ولفّت عليـه شعرهـا، وانطلقت علـى بعيرهـا تغذُّ السيـر باتجـاه مكّة.. فـاجتازت العيون المبثـوثة، ومـراكز الاستطلاع المنتشرة فـي الطريق، من دونِ حرجٍ وضيق..

واطمأنَّ حاطب على نجاح مؤامرته التي تصورهـا سهلةً هيِّنة.. فهي مجـرد «سطرٍ» واحـد لا غير، يتضمنُ «معلـومةً» واحـدة لا اكثـر: «إنّ رسـول الله يُـريـدكـم، فخـذوا حِذركم»!!

وإذا كانـت عيونُ الرجـال نائمـة، فإنَّ عيـن الله لا تنـام.. وإذا بـالـوحـي الأميـن جبرائيل (ع) ينزلُ من السماء على الرسول الكـريم(ص) لينبئـه بنبئهـا، ويطلعـه على سرّها.. فارسلَ مـن ساعته اثنين من أشجع أصحابه.. علي بن ابي طالب (ع) والزبير بن العوام، وأمرهما انْ يجدّا السير في طلب تلك المرأة التي تحمل ذلك السر الخطير، قبل أنْ تفوتهمـا وبسرعـة البرق انطلقَ الفـارسان بـاتجـاه مكّة.. فلمحـا من بعيـد ظعينتهـا.. فادركاها بمكـانٍ يسمّىٰ «ذي الحليفة» علىٰ بُعد أميالٍ من المدينة!

وكم كـانـت مفـاجاتُهـا كبيـرةً، فقـد تحطّمت آمـالها السعيـدة.. إلاّ أنّها مـا زالت تـوهُـم نفسهـا بأنَّ هـذين الفـارسيـن لا يقصـدانها.. أو أنّهـا تستطيع بما تملـك من مكرٍ ودهاء اَنْ تُرجعهما من حيثُ أتيا بخفي حنين.. فكثيراً ما أوهنت دموع النساء عزائم الابطال من الرجال!

وبينما هـي غارقةٌ فـي آمالهـا وآلامها، تقّدم نحوها الزبير، وسألها عن الكتاب الذي تحمله!.. فأنكـرت انْ تكون قد حملـت معها شيئاً، وأصـرت على موقفهـا، وراحت تبكي بكاءً مـرّاً.. فلا عهد لهـا بكتاب ولا رسـالة.. وإنّها امرأةٌ ضعيفة مسكينة لا يجوز للرجال الذين يملكـون الغيرة والشهامة اعتـراضهـا وايذاءها. فما كانَ من الزبير إلاّ ان رجَعَ الى اميـر المؤمنيـن(ع) قائلاً لـه: «ليس معهـا شيء، ارجع بنـا الى رسول الله لكـي نخبرهُ ببراءتها»[8]!!

وفي رواية أُخرى: ففتشوها فلم يجدوا شيئاً، فقال الزبير: ما نرى عندها شيئاً[9]؟

وفي رواية ثالثة: (استنزلاها والتمسا

الكتاب في رحلها فلم يجدا شيئاً معها»[١٠].

فقال علي (ع): «والله ما كذبنا رسول الله(ص) ولا كذبَ رسولُ الله(ص) على جبرائيل ولا كذبَ جبرائيل على الله جلَّ ثناؤه»[١١].

وامتشقَ علي (ع) حسامه، وخاطبها بقوة وصرامة:

«والله لتُظهرِنَّ لي الكتاب أو لأردنَّ رأسَكِ الى رسولِ الله»[١٢].

وفي رواية أخرى: «لتخرجِنَّ الكتاب أو لتلقينَّ الثيابَ».

ولم تجد بُدّاً من أنْ تكفكفَ دموعَ التماسيح المنهمرة، قائلة بلهجةٍ منكسرة:

تنحيا عني حتى اخرجه! فاخرجتهُ من عقيصتها.

وفي رواية: من قرنها، ودفعته الى علي(ع).. ورَجَعَ الفارسان ليسلّما الرسول القائد(ص) كتاب الصحابي والمهاجر البدري حاطب!!

* * *

جمع الرسول الكريم(ص) المسلمين حتّى امتلأ بهم المسجد، فوقف بينَ الجموع المحتشدةِ من الصحابة، وقال:

أيّها الناس لقد كُنتُ سألتُ الله انْ يُخفي اخبارنا عن قريشٍ، وأنَّ رجلاً منكم كتبَ اليهم كتاباً يخبرهم بخبرنا، فليقم صاحبُ الكتاب قبل انْ يفضحه الوحي. فلم يقم أحد!!

ولمّا اعادَ النبي(ص) مقالته، قام حاطب وهو يرتعد كالسعفةِ في مهب الريح العاصف، وقال: انا صاحبُهُ يا رسول الله[١٣]! ومضى يعتذر الى الرسول قائلاً: والله يا رسول الله ما نافقتُ وما غيّرتُ ولا بدَّلْتُ، وانّي أشهدُ أن لا إله إلاّ الله، وأنّكَ رسولُ الله حقّاً، ولكنَّ أهلي وعيالي كتبوا إليَّ بحسنِ صنيع قريش اليهم، فأحببتُ انْ أجازي قريشاً بحسن معاشرتهم[١٤]!!

وفي رواية أُخرى: يا رسول الله.. والله اني مسلمٌ مؤمنٌ بالله ورسوله ما غيّرتُ وما بدّلت، ولكنّي كنتُ امرأً ليس لي في القوم أَصلٌ ولا عشيرة، واصبحَ لي بينَ اظهرهم أهلٌ وولد فصانعتهم[١٥]!!

وفي رواية ثالثة: لا تعجل عليَّ يا رسولَ الله إنّي كُنتُ امرأً ملصقاً من قريش ولم أكن من أنفسها، وكانَ من مَعَكَ من المهاجرين لهم قرابات يحمون بها أهليهم واموالهم بمكّة، فاحببتُ إذْ فاتني ذلك من النسب فيهم، أنْ اصطنعَ اليهم يداً يحمون بها قرابتي، وما فعلتُ ذلك كفراً ولا ارتداداً عن ديني[١٦]!!

وفي رواية رابعة: يا رسول الله.. ما كفرت منذُ أَسلمْتُ، ولا غششتُكَ منذُ

نصتُحك، ولا أَحببْتُهم منذُ فارقْتُهم، ولكنّي كُنتُ امرأً ملصقاً في قُريش، عزيزاً فيهم (غريباً). ولم أكن من أنفسها، وكل من معكم من المهاجرين لهم قرابات بمكّة يحمون أَهليهم وأموالهم غيري فخشيت علىٰ أهلي، فأردتُ أنْ اتّخذَ عندهم يداً. وقد علمت أَنَّ الله تعالىٰ يُنزل عليهم بأسه. وانَّ كتابي لا يُغني عنهم شيئاً»[١٧]!!!

فأنزل الله سبحانه على رسوله مطلع سورة المنحنة: **﴿يا أيّها الذينَ آمنوا لا تتخذوا عدوّي وعدوّكم أولياء تُلقونَ اليهم بالمودّة وقد كفروا بما جاءَكم مِنَ الحق؟ يُخرجونَ الرسول وايّاكم أنْ تُؤمنوا بالله ربكم ان كُنتم خرجتم جهاداً في سبيلي وابتغاء مرضاتي تُسرّونَ إليهم بالمودّة. وانا أعلمُ بما اخفيتُم وما أعلنتم. ومن يفعْلهُ منكم فَقَد ضلَّ سواءَ السبيل﴾**[١٨].

* * *

الدروس والعبر:

إنَّ مدىٰ النصوص القرآنية ودلالاتها أبعد من الحوادث المباشرة التي نزلت على اثرها، أو ما يسمّى باسباب النزول، ذلك لأنَّ العبرة بعموم اللفظ لا بخصوص السبب. ولهذا فإنَّ في الآية بل الآيات المباركة وقصتها اكثر من درس، واكبر من عبرة:

الدرس الأول: بينَ العواطف والمواقف:

امام حالات الضعف البشري، وعواطف الاهل والولد والمال... قد يستسلمُ بعضُ المؤمنين، ليُصبحوا أَداةً بيد أعداء الاسلام، وجنوداً أوفياء من جنودهم، وعيوناً متربِّصةً من عيونهم.. مما يؤدي بهم الى البوح باعزّ الأسرار الأمنية والعسكريّة التي يحلمُ الاعداء في الوصول اليها والاطّلاع عليها!!

فهذا حاطب.. صحابيّ مهاجرٌ بدري!! يسقطُ امام ضغط العواطف الخاطئة ويهوي.. وإذا به يقع في شباك الجاسوسيّة علىٰ الاسلام، بدلاً من أنْ يكون له، فيعتبرَ رسالة العدو فرصةً ذهبيّة ليقوم بدوره التاريخي في التمويه باعطاءِ أنباءٍ خاطئة تجعل العدو يستبعد الغزو.. بدلاً من ذلك، نراه يعطي للاعداء سرّاً كبيراً وخطيراً، هُوَ أمانة الله ورسوله والمسلمين أجمعين!!

استَمِعْ إليه وهو يبرر جريمته «والله.. ما نافقتُ وما غيّرتُ ولا بدَّلتُ.. ولكن أهلي وعيالي كتبوا إليَّ بُحسن صنيع قريش إليهم، فاحببتُ أُجازي قريشاً بحسن معاشرتهم»!!

أو «فاحببتُ.. انْ اصطنعَ إليهم يداً يحمونَ بها قرابتي»!!

انّهُ عذرٌ اقبحُ من ذنب!.. وهكذا تكون

المجازاة بحسن المعاشرة على حساب الرسالة، ويكونُ اصطناع اليد، لحماية الأهل والولد، لصالح أعداء الاسلام والقرآن!!

إنَّ عواطف المال والأهل والعشيرة كثيراً ما تسقط بضغوطها الكبيرة، الرجال الاشداء، عندما يستجيبون لهتافاتها، ويضعفونَ امام اغراءاتها، فتفقدهم رساليتهم، وتحرفهم عن استقامة مسيرتهم، فتتحوَّلُ الصلابةُ الى وهنٍ وادِّهان، والثبات الى ضعفٍ واستكانةٍ واستسلام! وهذه هي امنيةُ الأعداء في ساحة المواجهة والصراع: **﴿ودّوا لو تُدهنُ فيُدهنون﴾**[19].. فهم مستعدونَ للادّهان واللين إذا ادهَن المؤمنون، فيخفّفونَ من شدّة عدائهم، فيما إذا نجحوا في فتنتهم، لتُصبحَ العداوة الشديدة، صداقةً حميمة وخُلّة: **﴿وان كادوا ليفتنونكَ عن الذي اوحينا اليكَ لتفتريَ علينا غيرَهُ واذاً لا تخذوك خليلاً﴾**[20]!!

انَّ سورة الممتحنة تقررُ لهؤلاء الذينَ يتراخَوْنَ امام عواطف المال والاهل والولد، لتأتي مواقفهم على حساب الموقف الاسلامي السليم، تقررُ حقائق عديدة:

الحقيقة الأولى: إنَّ اعداءكم هم اعداءُ الله قبل كُلِّ شيء..

وانَّ عداوتكم لهم نابعة من عداوتهم لله... فكيفَ يوالي المؤمنُ عدواً من اعداءِ الله: **﴿يا أيّها الذينَ آمنوا لا تتخذوا عدوِّي وعدوَّكم أولياءَ تُلْقُون إليهم بالمَوَدَّةِ﴾**[21].!! إنّه النداءُ الحبيب الذي يستنهض المؤمنين ليُبصِّرهم بالموقف الرسالي الرافض لكل حالات الاستسلام والاسترخاء امام الأعداء..

وهذا ما اكدته الآية الاخيرة من سورة الممتحنة **﴿يا ايّها الذين آمنوا لا تَتَوَلَّوا قوماً غضِبَ اللهُ عليهم..﴾**[22].

الحقيقة الثانية: انَّ هؤلاءِ الاعداء قد ارتكبوا جرائم بحق الرسالة أولاً، والرسول ثانياً، والمؤمنين ثالثاً.. فقد كفروا بالرسالة واستفزوا القيادة، واخرجوكم من أرضكم.. وليس لكم ذنبٌ إلاّ الايمان بالله ربِّكم.. ولهذا فإنّ صراعكم معهم ليس صراعاً شخصياً من أجلِ مالٍ ودار أو ارضٍ وعقار، بل إنّه صراعٌ رساليّ وعقائديّ: **﴿وقد كفروا بما جاءكم من الحق يُخرِجونَ الرسولَ وإيّاكم أنْ تؤمنوا بربِّكم﴾**[23].

الحقيقة الثالثة: انَّ عليكم ايّها المهاجرون في سبيل الله انْ لا تنسَوا الهدف الكبير الذي من أجله هاجرتم، وفي سبيله تركتم اموالكم واهليكم.. فانكم لستم بهاربين.. بل مهاجرين، تبغون إدامة الجهاد واستمرار الصراع بانتقالكم الى أرضٍ تتمكنونَ فيها من الحركة واعداد القوة

والمنعة، لتنطلقوا منها لتحرير ارضكم المغتصبة، لتخرجوا من أخرجكم، وتستفزّوا من استفزّكم فلا مجال للمودّة الخاطئة، والعواطف المنحرفة: **﴿ان كُنتم خرجتم جهاداً في سبيلي وابتغاء مرضاتي﴾**[٢٤].

الحقيقة الرابعة: انكم مهما قدّمتم من تنازلات للأعداء، ومهما أظهرتم لهم من ودٍّ ومحبةٍ وولاء.. فانهم لا يرضونَ منكم بأقلّ من تخلّيكم عن رسالتكم، وابتعادكم عن دينكم.. ولو تمكنوا منكم لما توانوا في الامعان بالقضاءِ عليكم بأي وسيلة متاحة، وطريقةٍ ممكنة: **﴿إنْ يثقفوكم يكونوا لكم أعداءَ ويبْسِطوا إليكم أيديهم وألسِنَتَهم بالسُّوء، وودّوا لو تكفرون﴾**[٢٥]!

وهذه حقيقة يجب ان يعيها كُلُّ الذين يتصورونَ بأن تنازلهم في قضيةٍ أو اكثر سيجعل الأعداء يستجيبونَ لمطاليبهم، ويعترفون بحقوقهم.. بل انَّ الامر علىٰ العكس في ذلك تماماً.. فلا يزدادونَ الاّ طمعاً بالمزيد من المساومات والتنازلات **﴿وودّوا لو تكفرون﴾**. وهذه حقيقة تقررها العديد من الآيات إحداها: **﴿ولن ترضى عنكَ اليهودُ ولا النصارى حتىٰ تَتَّبِعَ ملَّتهم﴾**[٢٦]!

الحقيقة الخامسة: انَّ المواقف النابعة من عواطف الرحم والقرابة، والتي تكون علىٰ حساب الرسالة، ولصالحِ اعدائها، انّما هي مواقف خاطئة، لا تجلب للانسان إلاّ الندم والخسارة والحرمان، في الدنيا والآخرة.. لانَّ تلك الاسباب القائمة على أساسٍ غير رسالي سرعان ما تتقطع وتزول: **﴿لن تنفعَكم أرحامُكم ولا أولادُكم يومَ القيامة يفصِلُ بينكم واللهُ بما تعملونَ بصير﴾**[٢٧].

الحقيقة السادسة: انَّ موقف البراءة من أعداءِ الله ليس بِدْعاً في مسيرة الرسالات، بل هو موقفٌ أصيل لكلِّ الاجيال الايمانيّة الرساليّة في صراعها مَعَ اعدائها.. فهذا ابراهيم الخليل(ع) والمؤمنونَ من حوله قد وقفوا موقف البراءة من قومهم، ولم يسمحوا لعواطف النسب والقرابة انْ تكون علىٰ حساب الرسالة.. فلقد اعلنوها براءةً ابدية لا تنتهي إلاّ بايمان القوم: **﴿انّا بُرَءاءُ منكم ومما تعبدونَ من دونِ الله كفرنا بكم وبدا بيننا وبينكم العداوةُ والبغضاءُ أبداً حتىٰ تؤمنوا بالله وحده﴾**[٢٨]!

وحتىٰ لا يكون موقف ابراهيم(ع) من ابيه بقوله **﴿لا ستغفرنَّ لك﴾**[٢٩]، فرصةً لبعضٍ في تسويغ موقفهم الموالي لاعداء الدين، ليجدوا فيه «ثغرةً تنفذُ منها عواطفهم الحبيسة ومشاعرهم الموصولة بذوي قرباهم من المشركين»[٣٠]، فقد جاءَ القرآن

في سورةٍ أُخرى ليبيِّن حقيقة الموقف الابراهيمي الرسالي: ﴿وما كان استغفارُ إبراهيمَ لابيهِ إلاّ عن موعدةٍ وعدها إيّاه فلما تبيَّنَ لهُ انّهُ عدوٌ لله تبرّأَ منه إنَّ إبراهيمَ لأوّاهٌ حليم﴾[٣١].

الحقيقة السابعة: إِنَّ النهي عن عواطف الرحم والقُربى لم ينطلق من كراهية الاسلام لتلك العواطف والمشاعر والعلائق.. بل على العكس من ذلك تماماً، فانَّ الاسلام يرفعُ شعار الاخوة والرحم والقرابة، وكثيراً ما وصّىٰ بها، وشجبَ الذينَ يقطعونها: ﴿وأولو الارحام بعضُهم أولىٰ ببعضٍ في كتابِ الله﴾[٣٢]. وانما جاءَ النهي حتىٰ لا تكون تلك العلائق فوقَ علائق الايمان وفي عَرَضِها.. ولهذا فقد تمنىٰ القرآن لاولئكَ المهاجرين عن أوطانهم، اَنْ تنتهي ما بينهم وبينَ اهليهم في مكّة من الخصومات، لتعود تلكم العلائق والصلات بأقوى ما تكون.. بانتهاء اولئك عن العداوة، وعودتهم الى الاسلام، ليعيش الجميع تحتَ رايته اخوةً متحابين متآلفين، ليجتمع سبب الرحم والقُربى بسبب العقيدة والدين: ﴿عَسَى الله اَنْ يجعل بينكم وبينَ الذينَ عاديتُم منهم مودّة والله قديرٌ والله غفورٌ رحيم﴾[٣٣].

الدرس الثاني: كتمان الأسرار جهاد

نقفُ في الآيات المباركة وقصتها امام خطورة إفشاءِ الاسرار والبوح بها، فانها الخيانة العظمىٰ التي ما بعدها خيانة.. انها خيانة مضاعفة.. خيانة الله والرسول والمسلمين.. ولهذا فقد تدخلت السماء في الحادث، ونزل جبريل(ع) بأمرٍ من الله الخبير البصير ليُخبر الرسول القائد عن ذلك السر الذي كاد انْ يتسرب إلى الأعداء، ليفضح خطّة المسلمين التي حققت انعطافة في التاريخ، ولا ندري ماذا ستكون التغيرات في المسيرة الاسلاميّة لو وَصَلَ كتاب حاطب الى قريش، واستعدت للهجوم، ولم يستطع المسلمون أَنْ يحققوا تلك المباغتة التي فاجأت الجميع.. والتي قال فيها العباس بن عبد المطلب وهُوَ يرى فيالق المسلمين في منطقة مرِّ الظهران: «يا سوءَ صباح قريش، والله لئن بغتها محمد في بلادها ودخَلَ مكّة عنوة إنَّهُ لهلاكُ قريش آخر الدهر»[٣٤]!

«لقد عُمِّيت الاخبار عن قريش فلا يأتيهم خبر عن رسول الله(ص)، ولا يدرونَ ما رسولُ الله فاعل»[٣٥]. وخرجَ في تلك الليالي أبو سفيان بن حرب وَمَعهُ اثنان «يتجسسونَ الاخبار وينتظرونَ هل يجدونَ

خبراً أو يسمعون به»[٣٦]. ووقع الثلاثة في قبضه العيون التي ارسلتها القيادةُ الاسلامية، «فأخذتهم خيلُ المسلمين»[٣٧].وهناك خاطبَ العباس ابا سفيان بقوله: ويحك هذا رسولُ الله في عشرة آلاف مُقاتل وهو مصبحكم. فقال في حيرةٍ وذهول: بأبي وأمّي هل من حيلة؟! فانطلق به الى الرسول القائد(ص) واستسلم على يديه مُكرهاً وهو يرى بارقة السيوف فوق رأسه، والوية الإسلام عن يمينه وشماله، ومن أمامه وخلفه. فالتفت النبي(ص) الى العباس قائلاً: إذهب به فاحبسه عندَ خطم الجبل[٣٨] بمضيق الوادي حتىٰ تمرَ عليه جنود الله.

ومرّت عليه كتائبُ المسلمين وراياتهم يتلو بعُضها بعضاً، وكلّما مرت كتيبة بحذائِهِ كبَّرتْ ثلاثاً، فيسأل عنها والعباس يجيبه.. حتىٰ مرَّ رسولُ الله(ص) في كتيبته الخضراء مَعَ المهاجرين والانصار، وهم منغمسون في الحديد لا يُرى منهم إلاّ الحدَق. فراح ابو سفيان ينظرُ برعبٍ وهلع بالغين فخاطب العباس قائلاً: «ما رأيتُ مثل هذهِ الكتيبة قط.. ولا اخبرنيه مخبر.. لقد أصبح ملكُ ابن أخيكَ عظيماً!! فقال العباس: ويحك،انّهُ ليس بمُلك، وانّما هي النبوة»[٣٩].

وَرَجَع ابو سفيان الى مكّة مرعوباً، فنادىٰ في الناس:

«يا معشر قريش هذا محمد قد جاءكم بما لا قِبَلَ لكم به»[٤٠].

نعم، لستُ ادري ماذا سيكون مجرى الاحداث التأريخية لو استلمت قريش رسالة حاطب، واستعدت لمحاربة المسلمين؟!

لقد جاءت التوصيات الاسلاميّة بحفظ الاسرار من اجل انجاز المهمات والمشاريع الشخصيّة، فكيف الحال باسرار الحالة الاسلامية الامنيّة والعسكرية.

فقد جاء عن الصادق(ع): افشاءُ السرِّ سقوط[٤١].

وعنه(ع) : سرُّكَ من دمِك، فلا يجرينَّ في غير أو داجك[٤٢].

وعن علي(ع): من كتَم سرَّه، كانت الخيرة في يده[٤٣].

وعنه(ع): الظفر بالحزم، والحزمُ بإحالة الرأيِ، والرأيُ بتحصين الأسرار[٤٤].

اما الاحاديث الواردة في حفظ اسرار الحركة الإسلامية الأمنية والعسكرية فهي كثيرة.

فعن الصادق(ع): كتمانُ سرِّنا جهادٌ في سبيل الله[*].

وعن الامام زين العابدين(ع): وددتُ والله أنّي افتديت خصلتين في الشّيعة لنا ببعض لحم ساعدي، النزق وقلّة

الكتمان(٤٥).

وفي تفسير «القتل» في قوله تعالىٰ: **﴿ذلك بانهم كانوا يكفرون بآيات الله ويقتُلونَ النبيّينَ بغير الحقِّ﴾**[البقرة: ٦١] يُروىٰ عن الامام الصادق(ع) انّهُ قال: «والله ما قتلوهم بأيديهم، ولا ضربوهم بأسيافهم، ولكنهم سمعوا أحاديثهم فاذاعوها فأُخذوا عليها فقتلوا»(٤٦)!

لقد تصوّر حاطب انَّ رسالته ذات السطر الواحد، لا اهمية لها في تغيير مجرى الأحداث، فهي مجرد كلمات معدودة، كتبها على عجل.. حيثُ نراهُ يعتذرُ لرسول الله(ص) فيما يُنْقل عنه بقوله «وقد علمتُ انَّ الله تعالىٰ ينزلُ عليهم بأْسَه، وأنَّ كتابي لا يُغني عنهم شيئا»(٤٧)!!

هكذا تُسوِّل النفسُ الامّارة، تهوينَ الامور الكبيرة والخطيرة، فتراها صغيرةً وحقيرة، فيسهل عليها ارتكابها، من دون انْ تعبأ بأخطارها **﴿بل سَوَّلتْ لكم انفسُكم امراً فصبرٌ جميلٌ واللهُ المُستعانُ على ما تَصِفون﴾**(٤٨)!

الدرس الثالث: التسديد الرباني للمسيرة:

في الآية المباركة وقصتها نعيشُ التسديد الرباني للمسيرة الاسلاميّة الجهاديّة، ولا سيّما في اللحظات العصيبة، عندما تعجزُ الطاقة البشرية في ساحة الصراع والمواجهة، بعد انْ تبذل كُلَّ ما بوسعها، فلا تدخر طاقة، ولا تبخل بعطاء: **﴿والذينَ جاهدوا فينا لنهدينَّهم سُبُلَنا وانَّ الله لمع المحسنين﴾**(٤٩).

وهذا ما يجب ان يعيشه المؤمنونَ المجاهدون وهم يخوضونَ صراعهم المرير مَعَ قوى الكفر والإلحاد، حتى لا يعيشوا الوحشة في طريق الجهاد والعطاء والمعاناة، مهما كثرت مضايقه، وتعددت منعطفاته، وقلَّ سالكه: «لاتستوحشوا في طريق الهدى لقلّةِ أهله فانَّ الناس قد اجتمعوا على مائدةٍ شِبَعُها قصيرٌ وجوعها طويل»(٥٠) كما يقول علي (ع).

فلا يتصورَنَّ احدٌ انّ المعيّة الالهيّة مختصةٌ بعصر الرسالة الأوّل، حيث كانت السماء ترقبُ الأرض من خلال الوحي فينزلُ جبرائيل بأمرِ الجليل ليسدد المسيرة، ويُطلع الرسول(ص) على مكامن الخطر، ذلك لانَّ التسديد الرباني، والمعية الالهية لايختصان بزمانٍ دونِ زمان، ما دامت المسيرة واحدة، والأهداف واحدة، وإن تغيّرت أشكال التسديد، وطرائق المعيّة والترشيد.

﴿يا أيّها الذينَ آمنوا ان تنصروا الله

ينصركم ويثبِّت اقدامكم﴾[51].

﴿كم من فئةٍ قليلـةٍ غلبت فئةً كثيرةً باذنِ اللهِ واللهُ معَ الصابرين﴾[52].

فـالنصرُ والتسـديـد والمعيّة الالهيـة مشـروطـة بـالصبـر والعطـاء والتضحيـة والفداء، وليست مشـروطة بزمـانٍ أو مكان ولا بنبـي أو رسـول.. وكـذلـك الحـالُ مَـعَ الضلال والخذلان، فلا يختصانِ بفلانٍ دونَ فلان، مـا دامَ قد انحرف عن طـريق الجهاد والاخلاص والايمان.

ولهــذا فنحـنُ نقفُ مَـعَ البـاحثيـن والمفسريـن الذين شكّكـوا بصحة الـرواية التي جاءت بخصوص الصحـابي حاطب بن ابي بلتعـة، حيث يـروى عن الـرسـول في أسبـاب النـزول انَّ «عمـر» التمِـس مـن النبي(ص) انْ يضـرب عنقه لأنـهُ «خان الله ورسوله والمؤمنين»، فقـال لهُ الرسول «إنّهُ شَهِدَ بدراً وما يُـدريكَ لعلّ الله اطّلع على اهل بـدر فقـال: اعملـوا مـا شئتـم فقـد غفـرت لكم»[53]!!!

وفـي روايـة أُخـرى. «انهم أهـل بـدر فاجتنب اهل بدر» قالها ثلاثاً!!

وفي رواية ثالثة «اعملـوا ما شئتم فقد وجبت لكم الجنّة»[54]!!

ولا يسع المقام بمناقشة[55] امثال هذهِ الـروايات، ويكفـي انْ نقـول إنها تعـارض الكثير من النصـوص القرآنية، «ومـا خالفَ كتابَ الله فهو زخرف» «ومـا خالفَ كتاب الله فاضربوا بـه عرضَ الحائط».. ومن العجيب انَّ هذهِ الـرواية تعارضـهـا تمام المعـارضة نفـس الآيـة التي ذكـرت سببـاً لنـزولهـا «الممتحنة: 1» وخصوصاً قوله تعالىٰ: ﴿ومن يفعلـه منكم فقـد ضـلَّ سـواءَ السبيل﴾ والآيات التي بعدها ﴿لن تنفعَكم ارحامُكم ولا اولادُكـم يـوم القيـامـة يفصـل بينكم..﴾[الممتحنة: 3]، وقوله ﴿ومن يتولّهم فاولئكَ هم الظالمون﴾[الممتحنة: 9].

ومن العجيـب أيضـاً انْ تنسب طـرق امثـال هذه الأحـاديث الى الامـام علي(ع)، وتُروىٰ على لسانه!!

ومن الاتفـاقات التاريخيّـة انَّ الزبيـر الذي بعثهُ الرسـول القائد(ص) مَعَ علي(ع) لطلبِ تلك المـرأة كما ذكرنا في القصّـة، هو نَفْسُه الذي خرج علـى علي(ع) ليحاربه في معركة الجمل، ولولا رجـوعه في آخر لحظة لُسفكَ دمُهُ بسيف أميـر المؤمنين(ع)، حيث يحدثنا التـاريخ فيقول[56]: خـرج علي(ع) بنفسه حاسراً علـى بغلةِ رسول الله لا سلاح مَعَه، فنادى: يا زبيـر اخرج إليّ، فخرجَ إليه الزبير شاكياً في سلاحه، فقيل ذلك لعائشة فقالـت: واثكلك يا أسمـاء فقيل لهـا: انَّ علياً حاسـر، فاطمأنت. واعتنق كُلُّ واحـدٍ منهما

صاحبه! فقال علي: ويحكَ يا زبير ما الذي أخرجكَ.

قال: دم عثمان. قال علي: قتل اللهُ أولانا بدمِ عثمان، أتذكر يوم لقيت رسول الله(ص) في بني بياضة وهو راكبٌ حمارهُ فَضَحِكَ اليَّ رسولُ الله وضحكتُ إليه وأنتَ مَعَه، فقلتَ أنتَ يا رسول الله ما يَدع علي زهوه. فقال لك: ليس به زهوٌ أتحبّه يا زبير؟ فقلت: إنِّي والله لأحبّه. فقال لك: إنّكَ والله ستُقاتله وأنتَ ظالم له.

فقال الزبير: أَستغفر الله، والله لو ذكرتُها ما خرجتُ.

فقال له: يا زبير ارجع. فقال الزبير:

كيفَ أرجع الآن وقد التقت حلقتا البطان؟!
هذا والله العار الذي لا يقبل!

فقال علي: يا زبير ارجع بالعار قبل أنْ تجمع العار والنار فرجَعَ الزبير وهو يقول:

اخذتُ عاراً على نارٍ مؤججة
ما إنْ يقوم لها خلق من الطينِ
نادى عليٌ بأمرٍ لستُ أجهله
عار لعمرِك في الدُّنيا وفي الدِّينِ

وما ان انسحبَ الزبير من ساحة المعركة حتى لقيه عمرو بن جرموز فقتله!!

الهوامش:

(١) ابن الاثير؛ الكامل في التأريخ: ١ : ٦١١ تحقيق علي شيري.

(٢) الحسني؛ سيرة المصطفى: ٥٧٤. الارجاز بكامله في الكامل في التأريخ، وفي سيرة ابن هشام باختلافٍ يسير.

(٣) كان بينَ عبد المطلب وخزاعة حلف قديم.

(*)الوتير ماءٌ لخزاعة باسفل مكّة.

(٤) الحسني؛ سيرة المصطفى: ٥٧٤. نقلاً عن الواقدي.

(٥) المصدر نفسه : ٥٧٥.

(٦) المصدر نفسه: ٥٧٨.

(٧) راجع المصدر نفسه: ٥٧٨.

(٨) المصدر نفسه: ٥٧٨.

(٩) القمّي؛ تفسير القمي: ٢: ٣٦١.

(١٠) الحسني؛ سيرة المصطفى: ٥٧٨.

(١١) القمّي؛ تفسير القمي: ٢: ٣٦١.

(١٢) المصدر نفسه.

(١٣) الحسني؛ سيرة المصطفى: ٥٧٩.

(١٤) القمّي؛ تفسير القمي: ٢: ٣٦٢.

(١٥) الحسني؛ سيرة المصطفى: ٥٧٩.

(١٦) الطباطبائي؛ الميزان: ١٩: ٢٣٥ ـ ٢٣٦ نقلاً عن تفسير الدر المنثور.

(١٧) الزمخشري؛ الكشاف: ٤: ٥١٢.

(١٨) الممتحنة: ١.

(١٩) القلم: ٩.

(٢٠) الاسراء: ٧٣.

(٢١) الممتحنة: ١.

(٢٢) الممتحنة: ١.

(٢٣) الممتحنة: ١.

(٢٤) الممتحنة: ١.

(٢٥) الممتحنة: ٢.

(٢٦) البقرة: ١٢٠.

(٢٧) الممتحنة: ٢.

(٢٨) الممتحنة: ٤.

(٢٩) الممتحنة: ٤.

(٣٠) سيد قطب؛ في ظلال القرآن: ٦:٣٥٤٢.

(٣١) التوبة: ١١٤.

(٣٢) الأحزاب: ٦.

(٣٣) الممتحنة: ٧.

(٣٤) الحسني؛ سيرة المصطفى: ٥٨١.

(٣٥) ابن كثير: السيرة النبويّة: ٢: ٥٤٦ تحقيق مصطفى عبد الواحد. نقلاً عن ابن اسحاق.

(٣٦) المصدر نفسه.

(٣٧) المصدر نفسه.

(٣٨) في سيرة ابن هشام، وآخرين خطم الجبل، وفي البخاري حطم الخيل. وهو موضع ضيِّق تتزاحمُ الخيلُ فيه.

(٣٩) الحسني؛ سيرة المصطفى: ٥٨٤.

(٤٠) ابن الأثير؛ الكامل في التأريخ: ١:٦١٤.

(٤١) ري شهري؛ ميزان الحكمة: ٤: ٤٢٦. نقلاً عن بحار الأنوار: ٧٨:٢٢٩.

(٤٢) المصدر نفسه: ٤٢٧. نقلاً عن البحار: ٧٥ : ٧١.

(٤٣) المصدر نفسه: ٤٢٦ نقلاً عن نهج البلاغة: حكم ١٦٢.

(٤٤) المصدر نفسه: نقلاً عن شرح نهج البلاغة لابن ابي الحديد: ١٨:١٧٧.

(*) المصدر نفسه: ٨:٣٣٣ نقلاً عن البحار: ٧٥: ٧٠.

(٤٥) المصدر نفسه: ٨: ٣٣٢ نقلاً عن الكافي: ٢ : ٢٢١ وغيره.

(٤٦) المصدر نفسه: ٣٣٤ نقلاً عن البحار: ٧٥ : ٧٦.

(٤٧) الزمخشري؛ الكشاف: ٤:٥١٢.

(٤٨) يوسف: ١٨.

(٤٩) العنكبوت: ٦٩.

(٥٠) نهج البلاغة:؛الخطبة: ٢٠١.

(٥١) محمد: ٧.

(٥٢) البقرة: ٢٤٩.

(٥٣) الطباطبائي؛ الميزان: ١٩: ٢٣٦ نقلاً عن تفسير الدر المنثور.

(٥٤) سيد قطب؛ في ظلال القرآن: ٦: ٣٥٢٨ نقلاً عن البخاري في المغازي عن علي(ع). ورواه مسلم في صحيحه.

(٥٥) وقد ناقش العلامة الطباطبائي في ميزانه الرواية باربع نقاط اساسيّة. راجع الميزان؛ ١٩: ٢٣٦ ـ ٢٣٨. راجع كذلك سيرة المصطفى للحسني: ٥٧٩ الهامش.

(٥٦) راجع المسعودي؛ مروج الذهب: ٤:٤٠٠.

التفسير: نشأته وتطوره (٨)
قيمة تفسير الصحابي

الشيخ محمد هادي معرفة

مما يجدر التنبّه له أنّ الدور الأوّل على عهد الرسالة، كان دور تربية وتعليم، ولاسيما بعد الهجرة الى المدينة، كان النبي ـ صلّى الله عليه وآله وسلّم ـ قدر ركّز جلّ حياته على تربية اصحابه الأجلّاء وتعليمهم الآداب والمعارف، والسنن والأحكام. ﴿وكذلك جعلناكم امّة وسطاً لتكونوا شهداء على الناس﴾(١) فقد جاء ـ صلّى الله عليه وآله وسلّم ـ ﴿ليتلو عليهم آياته ويزكيهم ويعلمهم الكتاب والحكمة وإن كانوا من قبل لفي ضلال مبين﴾.(٢)

ولاشك أنه ـ ص ـ فعل ما كان من شأنه أن يفعل، وربّى من أصحابه ثلّة من علماء ورثوا علمه وحملوا حكمته إلى الملأ من الناس.

واذا كان القرآن تبياناً لكل شيء وهدى ورحمة وبشرى للمسلمين(٣). وقد بلّغه النبي ـ ص ـ الى الناس، فقد بيّن معالمه وارشدهم إلى مباني حكمه ومعاني آياته، اذ كان عليه البيان كما كان عليه البلاغ: ﴿وانزلنا إليك الذكر لتبيّن للناس ما أنزل إليهم ولعلّهم يتفكّرون﴾.(٤)

وهل كان دور النبّي ـ ص ـ في أمته، وفي أصحابه الخلّص بالخصوص، سوى دور معلّم ومرشد حكيم؟ فلقد كان ـ ص ـ حريصاً على تربيتهم وتعليمهم في جميع ابعاد الشريعة وبيان مفاهيم الإسلام.

هذا من جهة، ومن جهة أخرى، فان من صحابته الأخيار ــ ممن رضي الله عنهم ورضوا عنه ـ من كان على وفرة من الذكاء، طالباً مجدّاً في طلب العلم والحكمة والرشاد، مولعاً بالسؤال والازدياد من معارف الإسلام، وكانوا كثرة من ذوي النباهة والفظنة والاستعداد... ﴿رجال صدقوا ما

عاهدوا الله عليه﴾ [٥] و استقاموا على الطريقة فسقاهم ربّهم ماءً غدقاً[٦].

وقد عرفت كلام ابن مسعود: «كان الرجل منّا اذا تعلّم عشر آيات، لم يجاوزهنّ حتى يعلم معانيهنّ والعمل بهنّ...» [٧] وهو أقدم نصّ تاريخي يدلّنا على مبلغ اهتمام الصحابة بمعرفة معاني القرآن واجتهادهم في العمل بأحكامه.

وهذا الإمام أمير المؤمنين ـ عليه السلام ـ يقول ـ بشأن ما كان يصدر منه من عجائب أحكام وغرائب أخبار ـ: «وإنما هو تعلّمٌ من ذي علم... علم علّمه الله نبيّه فعلّمنيه، ودعا لي بأن يعيه صدري، وتضطمّ به جوانحي». [٨]

وهذا ابن عبّاس ـ تلميذه الموفّق ـ كان من احرص الناس على تعلّم العلم ومعرفة الاحكام والحلال والحرام من شريعة الإسلام. وكان قد تدارك ـ لشدّة حرصه في طلب العلم ـ ما فاته أيّام حياة النبيّ ـ صلّى الله عليه وآله وسلّم ـ لصغره [٩] بمراجعة العلماء من صحابته الكبار بعد وفاته ـ صلّى الله عليه وآله وسلّم ـ وقد كان النبيّ قد دعا له: «اللّهم علّمه التأويل وفقّهه في الدين واجعله من أهل الإيمان». [١٠]

روى الحاكم في المستدرك بشأن حرصه على طلب العلم: أنّه بعد وفاة ا لرسول ـ صلّى الله عليه وآله وسلّم ـ قال لرجل من الأنصار: هلمّ، فلنطلب العلم، فإنّ أصحاب رسول الله ـ صلّى الله عليه وآله وسلّم ـ أحياء.

فقال: عجباً لك يا ابن عبّاس، ترى الناس يحتاجون إليك، وفي الناس من أصحاب رسول الله من فيهم!... فاقبل ابن عبّاس يطلب العلم، قال: ان كان الحديث ليبلغني عن الرجل من أصحاب رسول الله ـ ص ـ قد سمعه منه، فآتيه فأجلس ببابه، فتسفي الريح على وجهي، فيخرج اليّ فيقول: يا ابن عمّ رسول الله ما جاء بك، ما حاجتك؟ فأقول: حديث بلغني عنك ترويه عن رسول الله، فيقول: ألا أرسلت إليّ! فأقول: انا أحقّ أن آتيك... [١١].

ومن ثمّ كان يسمّى البحر لكثرة علمه. وعن مجاهد: هو جدّ الأمة. وعن ابن الحنفية: ربّانيُ هذه الأمة [١٢]... إلى غيرها من تعابير تنمّ عن مدى رفعته في درجات العلم....

وقد كان يجلس للتفسير فيقع موضع إعجاب... قال أبو وائل: حججت أنا وصاحب لي، وابنُ عبّاس على الحجّ، فجعل يقرأ سورة النور ويفسّرها... فقال صاحبي: يا سبحان الله، ماذا يخرج من رأس هذا الرجل، لو سمعت هذا الترك لأسلمت... وفي رواية عن شقيق: ما رأيت

ولا سمعت كلام رجل مثله، لو سمعته فارس والروم لأسلمت . . . وقال عبدالله بن مسعود: نعم ترجمان القرآن ابن عبّاس.[١٣]

واسلفنا حديث مسروق بن الأجدع: وجدت أصحاب محمد ـ صلّى الله عليه وآله وسلّم ـ كالإخاذ، فالإخاذة تكفي الراكب، والإخاذة تكفي الراكبين، والإخاذة تكفي الفِئام من الناس . . . وفي لفظ آخر: (لو نزل به أهل الأرض لأصدرهم . . .).[١٤]

كنايته عن أنّهم كانوا على درجات من العلم . . . كانوا يصدرون الناس عن رويّ كان مستقاه ومادّته الأولى، هو النبيّ الأكرم ـ صلّى الله عليه وآله وسلّم ـ هو ربّاهم وأدّبهم فأحسن تأديبهم، وأن كانوا هم على تفاوت في استعداد الأخذ والتلقّي . . . ﴿أنزل من السماء ماءً فسالت أودية بقدرها﴾.[١٥]

وبعد . . . فاذا كانت تلك حالة العلماء من أصحاب رسول الله ـ صلّى الله عليه وآله وسلّم ـ لا يصدرون الناس إلاّ من مصدر الوحي الأمين، ولا ينطقون إلاّ عن لسانه الناطق بالحقّ المبين، فكيف ياترى مبلغ اعتبار ما يصدر عن ثلّة هم حملة علم الرسول، والحفظة على شريعته الأمناء . . .!

نعم كان الشرط في الحجّية والاعتبار ـ أوّلاً ـ صحّة الإسناد إليهم و ـ ثانياً ـ كونهم الطراز الأعلى. واذ قد ثبت الشرطان، فلا محيص عن جواز الأخذ وصحّة الاعتماد.

وهذا لاشك فيه بعد الذي نوّهنا . . . إنّما الكلام في اعتبار ذلك حديثاً مسنداً ومرفوعاً إلى النبيّ ـ صلّى الله عليه وآله وسلّم ـ بالنظر إلى كونه الأصل في تربيتهم وتعليمهم، أو أنّه استنباط منهم، لمكان علمهم وسعة اطّلاعهم؟ فربّما اخطأوا في الاجتهاد، وإن كانت إصابتهم في الرأي أرجح في النظر الصحيح.؟

الأمر الذي فصّل القوم فيه، بين ما اذا كان للرأي والنظر مدخلٌ فيه، فهذا موقوف على الصحابي، لايصح اسناده الى النبيّ ـ صلّى الله عليه وآله وسلّم ـ . . . وما اذا لم يكن كذلك، مما لاسبيل الى العلم به إلاّ عن طريق الوحي، فهو حديث مرفوع إلى النبيّ ـ صلّى الله عليه وآله وسلّم ـ لامحالة . . . وذلك لموضع عدالة الصحابي ووثاقته في الدين. فلا يخبر عما لاطريق للحسّ إليه، إلاّ اذا كان قد أخبره ذو علم عليم صادق أمين . . . .

وإليك بعض ما ذكره القوم بهذا الشأن:

هل المأثور من الصحابي حديث مسند؟

قال الحاكم النيسابوري: ليعلم طالب هذا العلم أنّ تفسير الصحابي الذي شهد

الـوحي والتـنـزيـل، من الشيخيـن، حـديث مسنـد. أي اذا انتهت سلسلـة الـروايـة إلى صحـابي جليل، فـانّ ذلك يكفي في إسنـاد الحديث إلى رسول الله ـ صلّى الله عليه وآله وسلّم ـ وإن كان الصحابي لم يسنده إليه.

ذكـــر ذلـك فـــي مـــوضـعيـــن مـن مستدركه[16]، وهو عام سـواء أكان ذلم مما لاطريق إلى معرفتـه سوى الوحي أم لم يكن كذلك، وكان ممـا يمكن أن يراه الصحابي او يشاهد بنفسه! ومن ثم كان هذه الكلام على عمومـه وإطلاقه محل إشكال، ولـذلك رجع عنه فـي كتابـه الذي وضعـه لمعرفـة علوم الحديث.

قال هنـاك: إنّ من الحـديث ما يكـون موقـوفاً علـى الصحابي، غيـر مرفـوع إلى النبي ـــ صلّـى الله عليـه وآلـه ـ كمـا اذا قـــال الصحابي: رأيت رسـول الله ـ صلّى الله عليه وآله ـ يفعل كـذا أو يامر بكـذا . . . أو انّ أصحابـه كـانـوا يصنعون كـذا، مثـــل مـا روي عن المغيرة بن شعبة، قال: كان أصحاب رسـول الله ــ صلّى الله عليه وآلـه وسلّـم ـ يقرعون بـابه بـالأظافيـر . . . قـال الحـاكم: هـذا حـديث يتوهمـه من ليس مـن أهل الصنعة مسنـداً، لذكر رسول الله ـ صلّى الله عليه وآله وسلّم ـ وليس بمسند، فانّه مـوقوف على صحابي، حكى عـن أقـرانه مـن الصحابـة فعـلاً . . .

وهكذا اذا قال الصحابي: أنّه ـ صلّى الله عليه وآله ـ كان يقول كذا، وكان يفعـل كذا، وكان يأمر بكذا وكذا . . . .

قال: ومن الموقـوف ما رويناه عن ابي هريـرة، في قول الله ـــ عزّ وجـلّ ـ ﴿لوّاحةٌ للبشر﴾.[17]

قال: تلقاهم جهنّم يوم القيامة فتلفحهم لفحة، فـلا تترك لحماً علـى عظم إلاّ وضعت على العراقيب.

قال: واشبـاه هذا من الموقوفـات، تعدّ في تفسير الصحابة.[18]

قـال: فـامّـــا مـا نقـول فـي تفسيـر الصحابي، مسنـد، فانّما نقوله فـي غير هذا النوع، كمـا في حـديث جابـر، قال: كـانت اليهود تقول: مـن أتى أمرأته من دبـرها في قبلها جاء الـولد أحول، فأنـزل الله عزّوجلّ: ﴿نساؤكم حـرث لكم . . .﴾.[19] قال: هـذا الحديث وأشباهه مسندة عن آخرها، وليست بموقوفة، فانّ الصحـابي الذي شـهد الوحي والتنزيل، فأخبر عن آية من القرآن أنّها نزلت في كذا وكذا، فانّه حديث مسند.[20]

وهكـذا قيّـــد ابن الصـــلاح والنـووي وغيرهما ذاك الاطلاق بما لايرجع إلى معرفة أسباب النـزول المشاهـدة ونحو ذلـك مما يمكن معرفته للصحابة بالمشاهدة والعيان، نعم اذا كان مما لامجال للراي فيه، مما يعود

إلى ماوراء الحسّ من قبيل أمر الآخرة ونحو ذلك، فانّ مثل دلك حديث مسند، مرفوع إلى النبيّ ـ صلّى الله عليه وآله ـ نظراً لموضع عدالة الصحابة وتنزيهه عن القول على الله بغير علم ولا مستند إلى ركن وثيق.

قال النووي ـ في التقريب ـ: وامّا قول من قال: تفسير الصحابي مرفوع، فذاك في تفسير يتعلّق بسبب نزول آية أو نحوها، وغير موقوف.

قال السيوطي ـ في شرحه ـ: كقول جابر: كانت اليهود تقول: من أتى امرأته من دبرها في قبلها، جاء الولد أحول، فانزل الله تعالى: ﴿نساؤكم حرث لكم ... الآية﴾. رواه مسلم، أونحوه مما لايمكن أن يؤخذ إلاّ عن النبيّ ـ صلّى الله عليه وآله وسلّم ـ ولا مدخل للرأي فيه.

قال: وكذا يقال في التابعي، إلاّ أنّ المرفوع من جهته مرسل.

قال: ما خصّص به المصنف كابن الصلاح ومن تبعهما قول الحاكم، قد صرّح به الحاكم في «علوم الحديث» ... ثم ذكر حديث أبي هريرة في قوله تعالى: ﴿لوّاحة للبشر﴾ ... فالحاكم أطلق في المستدرك وخصّص في علوم الحديث، فاعتمد الناس تخصيصه ... وأظن أنّ ما حمله في المستدرك على التعميم الحرص على جمع الصحيح، حتّى أورد ماليس من شروط المرفوع، وإلاّ ففيه من الضرب الأوّل الجمّ الغفير ... على أنّي أقول: ليس ما ذكره عن أبي هريرة من الموقوف، لما تقدّم من أنّ ما يتعلّق بذكر الآخرة وما لامدخل للرأي فيه من قبيل المرفوع.[٢١]

وعلى أيّة حال، فإنّ التفسير المأثور عن صحابي جليل ـ إذا صحّ الطريق إليه ـ فإنّ له اعتباره الخاصّ، فإمّا أن يكون قد أخذه من رسول الله ـ صلّى الله عليه وآله وسلّم ـ وهو الاكثر فيما لايرجع إلى مشاهدات حاضرة أو فهم الأوضاع اللغوية الأولى أو ما يرجع إلى آداب ورسوم جاهلية بائدة، كان الصحابة يعرفونها ... وأشباه ذلك ... فان كان لايرجع إلى شيء من ذلك، فإنّ من المعلوم بالضرورة أنّه مستند إلى علم تعلّمه من ذي علم، هذا ما يقتضيه مقام إيمانه الذي يحجزه عن القول الجزاف.

وإلاّ فهو موقوف عليه ومستند إلى فهمه الخاصّ، ولا ريب أنّه اقرب فهماً إلى معاني القرآن، من الذي ابتعد عن لمس أعتاب الوحي والرسالة، وحتى عن إمكان معرفة لغة الأوائل وعادات كانت جارية حينذاك ....

وهكذا صرّح العلاّمة الناقد السيد رضيّ الدين بن طاووس (المتوفى سنة ٦٦٤)

بشأن العلماء من صحابة الرسول ـ صلّى الله عليه وآله وسلّم ـ قال: «إنّهم أقرب علماً بنزول القرآن». [٣٢]

قال الامام بدر الدين الزركشي: لطالب التفسير مآخذ كثيرة، امّهاتها اربعة:

الأول: النقل عن رسول الله ـ صلّى الله عليه وآله وسلّم ـ وهذا هو الطراز الأوّل، لكن يجب الحذر من الضعيف فيه والموضوع فإنّه كثير.

الثاني: الأخذ بقول الصحابي، فإنّ تفسيره عندهم بمنزلة المرفوع إلى النبيّ ـ صلّى الله عليه وآله وسلّم ـ كما قاله الحاكم في تفسيره. وقال ابو الخطّاب من الحنابلة: يحتمل أن لايرجع إليه اذا قلنا: أنّ قوله ليس بحجّة! والصواب الأوّل، لانّه من باب الرواية لا الرأي.

وقد أخرج ابن جرير عن مسروق بن الأجدع قال: قال عبد الله بن مسعود: والذي لا إلّه إلّا هو، ما نزلت آية في كتاب الله إلّا وأنا أعلم فيمن نزلت وأين نزلت، ولو أعلم مكان أحد أعلم بكتاب الله منّي تناله المطايا لاتيته. وقال أيضاً: كان الرجل منّا اذا تعلّم عشر آيات لم يتجاوزهنّ حتّى يعلم معانيهنّ، والعمل بهنّ.

قال: وصدور المفسّرين من الصحابة، عليٌّ ثم ابن عبّاس ـ وهو تجرّد لهذا الشأن، والمحفوظ عنه أكثر من المحفوظ عن عليّ، إلّا أن ابن عبّاس كان أخذ عن عليّ ـ عليه السلام ـ ويتلوه عبد الله بن عمرو بن العاص. وكل ما ورد عن غيرهم من الصحابة فحسن مقدّم.... [٣٣]

وأخيراً قال: واعلم أنّ القرآن قسمان، أحدهما ورد تفسيره بالنقل عمّن يعتبر تفسيره، وقسم لم يرد. والاوّل ثلاثة أنواع: إمّا يرد التفسير عن النبيّ ـ صلّى الله عليه وآله وسلّم ـ أو عن الصحابة أو عن رؤوس التابعين. فالأوّل يبحث فيه عن صحّة السند. والثاني ينظر في تفسير الصحابي، فإن فسّره من حيث اللغة، فهم أهل اللِّسان، فلاشك في اعتمادهم، وإن فسّره بما شاهده من الأسباب والقرائن فلا شك فيه... وحينئذٍ إن تعارضت أقوال جماعة من الصحابة، فان أمكن الجمع فذاك؛ وإن تعذّر قدّم ابن عبّاس.... [٣٤]

وسيأتي نقل كلامه في الرجوع إلى التابعي....

* * *

هذا ما يقتضيه ظاهر البحث في هذا المجال... وأمّا الذي جرى عليه مذهب علمائنا الأعلام، فهو: أن التفسير المأثور من الصحابي ـ مهما كان على جلالة من القدر والمنزلة ـ فإنّه موقوف عليه، لايصحّ

إسناده إلى النبيّ ـ صلّى الله عليه وآله وسلّم ـ مالم يُسنده هو بالـذات. وهذا منهم مطلق، سواءٌ أكان للـرأي فيه مـدخل أم لا، لأنّه إنّمـا نطق عن علمه، حتّى ولو كـان مصدره التعليم من النبيّ، مالم يصرّح بـه. اذ من الجائز أنّه من استنبـاطـه الخاصّ، استخـرجـه من مبـانٍ وأُصول تلقّاها من حضرة الرسول ـ صلّى الله عليه وآله وسلّم ـ أمّا التنصيص على هذا الفرع المستنبط بـالذات فلم يكن من النبـيّ، وإنّما هو من اجتهـاد الصحابي الجليل، ومـرتبط مع مبلغ فطنته وسعة دائرة علمه، والمجتهد قد يخطئ، وليس الصواب حليفه دائماً، مالم يكن معصوماً. . . .

ومن ثـمّ فانّ الـذي يصـدر عن أئمتنـا المعصومين ـ عليهم السلام ـ نسنده إليهم، وإن كنّـا على علـم ويقين أنّـه تعلّم مـن ذي علم عليم. ذلك أنّـه حجّة لـدينا، لأنّه صـادر من منبع معصوم.

ميزان تفسير الصحابي:

يمتاز تفسير الصحابـي بأمور خمسة لـم تتـوفّـر جميعـاً فـي سـائر التفـاسيـر المتأخّرة:

١ـ بساطته، بمالم يتجاوز بضع كلمات في حلّ معضل أو رفع إبهـام، في بيانٍ وافٍ شافٍ ومـع كمال الايجـاز والايفاء. فـاذ قد سئل أحـدهـم عن معنـى ﴿غير متجانفٍ لإثمٍ﴾، أجـاب على الفـور: ﴿غير متعـرّضٍ لمعصيـةٍ﴾، من غيـر أن يتعرّض لاشتقـاق الكلمة، أو يحتاج إلى بيان شاهد ودليل، وما شاكل ذلك، مما اعتاده المفسّرون.

واذا سئل عن سبـب نزول آيـة، أو عن فحواهـا العامّ، أجـاب بشكل قاطع مـن غير تردد، وعلى بساطة من غيـر تعقيد، كان قد ألفه المتأخّرون!

٢ـ سـلامته عن جدل الاختلافـات، بعد وحدة المبنى والاتّجاه والاستناد، ذلك العهد. اذ لم يكـن بين الصحـابـة في العهـد الأوّل اختلاف في مبـاني الاختيار، ولا تبـاين في الاتجاه، ولاتضارب في الاستناد، وإنّما هي وحدة فـي النظر والاتجاه والهـدف، جمعت طرائف الصحابةعلى خطّ مستوٍ مستقيم.

فلم تكـن ثمّة داعيـةٌ لنشوء الاختـلاف والتضارب في الآراء . . . ولاسيما والرسول ـ ص ـ أدّبهم على التزام سبيل الرشاد.

على أنّ التفسيـر ذلـك العهـد لم يكـن ليتعـدّى ـــ في شكلـه وهنـدامه ـــ حـدود الحديث وشكله، بل كان جـزءً منه وفرعاً من فروعه، كما دأب عليه جامعو الأحاديث.

٣ـ صيانته عن التفسير بالرأي، بمعنى الاستبـداد بالـرأي غيـر المستند إلـى ركن وثيق، ذلك تعصّب أعمى أو تلبيس في الأمر،

كان يتحاشاه الأجلّاء من الصحابة الأخيار.
وسنشرح من معنى التفسير بالرأي الممنوع شرعاً، والمذموم عقلاً، بما يرفع الابهام عن المراد إن شاء الله.

٤ـ خلوصه عن اساطير بائدة، ومنها الأقاصيص الاسرائيلية، لم تكن لتجد مجالاً للتسرّب في الأوساط الاسلامية العريقة ذلك العهد المناوئ لدسائس بني إسرائيل. الأمر الذي انقلب ظهراً لبطن بعد حين، وجعلت الدسائس السياسية تلعب دورها في ترويج اساطير بني إسرائيل . . . .

٥ـ قاطعيته عن احتمال الشكّ وتحمّل الظنون. بعد وضوح المستند وصراحته، ووفرة وسائل الايضاح ودلائل التفسير المعروضة ذلك العهد، لسذاجتها وسلامتها عن التعقيد الذي طرأ عليها في عهد متأخّر.

خاصة وأن الدلائل العلمية والفلسفية التي استند إليها المتأخرون في تفسير معاني القرآن، لم تكن معهودة حينذاك، أو لم تكن مشروعة ولا صالحة للاستناد في العهد الأول. وإنّما كان استنادهم إلى العرف واللغة، والعلم باسباب النزول، إلى جنب النصوص الشرعية الصادرة في مختلف شؤون الدين والقرآن، هذا لاغير.

الهوامش:

(١) البقرة: ١٤٣.
(٢) الجمعة: ٢.
(٣) النحل: ٩١.
(٤) النحل: ٤٤.
(٥) الأحزاب: ٢٣.
(٦) اشارة الى الآية الكريمة «وأن لو استقاموا على الطريقة لأسقيناهم ماءً غدقاً» الجن: ١٦.
(٧) تفسير الطبري ١: ٢٧ و٣٠.
(٨) نهج البلاغة ١٢٨: ١٨٦.
(٩) ولد قبل الهجرة بثلاث سنين.
(١٠) اخرجه الحاكم وصححه. المستدرك ٣: ٥٣٦.
(١١) المستدرك ٣: ٥٣٨.
(١٢) المستدرك ٣: ٥٣٥.
(١٣) المستدرك ٣: ٥٣٧.
(١٤) التفسير والمفسّرون ١: ٣٦.
(١٥) الرعد: ١٧.
(١٦) المستدرك ٢: ٢٥٨و٢٦٣ايضاً.
(١٧) المدّثر: ٢٩.
(١٨) بناءً على أنّ هذا التفسير من أبي هريرة كان من عنده، ولعلّها استظهار من لفظ الآية!
ولكن سيأتي عن السيوطي انّه مما لاسبيل إلى معرفته سوى الوحي، فهو من المسند المرفوع إلى النبّي صلّى الله عليه وآله.
(١٩) البقرة: ٢٢٣.
(٢٠) معرفة علم الحديث ١٩ـ٢٠.
(٢١) تدريب الراوي ١: ١٩٣ (ط ٢ـ١٣٩٩هـ).
(٢٢) في كتابه القيّم (سعد السعود) الذي عالج فيه نقد اكثر من سبعين كتاباً في تفسير القرآن، كانت في متناوله ذلك العهد. (ط النجف، ١٧٤) .
(٢٣) البرهان ٢: ١٥٦ـ١٥٧.
(٢٤) المصدر نفسه: ١٧٢.

في رحاب التفسير (٢)
عصر التابعين: المفسرون والملامح

د. سيد محمد باقر حجتي
تعريب: عبد الرحيم مبارك

لقد عمد جماعة من التابعين إلى تفسير القرآن الكريم وأفادوا في علمهم هذا من صحبتهم وسماعهم من صحابة الرسول(ص) الذين عاشوا وعاصروا الأحداث الاسلاميّة التي ارتبط بها النصّ القرآني، ويُلاحظ انّهم أضافوا تدريجاً إلى الافكار التي أخذوها عن الصحابة مطالب أخرى استناداً إلى رأيهم واجتهادهم في فهم النصوص القرآنية فوق ما كان مشاهداً في عصر الصحابة، وربّما كان السبب في هذه الاضافات الملحوظة يعود إلى خصوصيّات مفسّري هذه المرحلة أنفسهم، حيث نجم من ذلك ظهور الطبقات والمدارس التفسيريّة التي تميّزت بمشايخها واستاتذة التفسير فيها واكتسبت اسماءها حسب البلاد والمدن الاسلامية المهمّة التي ترعرعت فيها، كمفسّري مكّة ومفسّري المدينة ومفسّري العراق (البصرة والكوفة).

مفسّرو مكة في عصر التابعين:

شكّل أصحاب ابن عباس وتلامذته أغلب مفسّري مكّة المعروفين في هذه المرحلة، لذا كانوا يحذون حذوه وينهجون نهجه في التفسير ويثبّتون آراءه بشأن آيات القرآن، وكان من بينهم عدّة برزوا وحازوا شهرة في التفسير فاقت الباقين، وهم: سعيد بن جبير، مجاهد بن جبر المكّي، عكرمة (مولى ابن عباس)، عطاء بن أبي رباح، طاووس بن كيسان اليماني وغيرهم.

١ـ سعيد بن جبير (م شعبان ٩٥هـ):

أخذ ابن جبير تفسير القرآن عن عبدالله بن عباس، لذا فرواياته التفسيرية مستندة

إلى ابن عباس[١]، وقد أورد المفسرون اسم ابن جبير باحترام خاص بشكل يميّزه عن باقي مفسّري عصر التابعين.

يقول سفيان الثوري: خذوا التفسير عن أربعة: عن سعيد بن جبير ومجاهد وعكرمة والضحّاك[٢]. حيث يتصدّر ابن جبير ـ في هذا البيان ـ قائمة المفسّرين.

ويقول قتادة: أعلم التابعين أربعة: كان عطاء بن أبي رباح أعلمهم بالمناسك، وكان سعيد بن جبير أعلمهم بالتفسير، وكان عكرمة أعلمهم بالسّير، وكان الحسن أعلمهم بالحلال والحرام[٣].

فعلى الرغم من ان هؤلاء الأربعة من مفسّري عصر التابعين المعروفين الاّ انّه، طبقاً لهذا البيان، فانّ سعيد بن جبير اعتبر الشخصية المتميّزة في تفسير القرآن، وحتى إنّه بشهادة المؤرّخين عُدّ جامعاً لمعارف وعلوم عصره «كان جماعة من التابعين يمتلكون مقام الأعلمية في العلوم: سعيد بن المسيّب في مسائل الطلاق، وعطاء في مسائل الحجّ، وطاووس في مسائل الحلال والحرام، وابو الحجاج مجاهد بن جبر في التفسير، وكان أجمعهم للمعارف وأكثرهم إحاطة بتمام هذه المسائل سعيد بن جبير»[٤].

ومع انّ سعيد بن جبير كان من مفسّري الشيعة ـ حيث كان علىٰ نزاع مع الحجّاج وله معه مناظرات مشهودة، وقد قتله الحجّاج لتشيّعه ووفائه لمبدئه[٥] ـ مع هذا فان محققي الفريقيْن من أصحاب الجرح والتعديل قد امتدحوه، وكانت وثاقته مورد اتّفاق أصحاب الصحاح الستة لأهل السنة والكتب الأربعة الشيعية، وقد وثّقه ابن عباس كأوثق حجّة وسند ديني[٦]، وكان يشير علىٰ الذين يفدون عليه للاستفتاء بمراجعة ابن جبير ويقول لهم: أليس فيكم ابن امّ الدهماء[٧]؟!

وكان سعيد بن جبير عالماً بالقراءات المعتبرة للصحابة، وكان يقرأ القرآن بها. يقول اسماعيل بن عبد الملك: كان سعيد بن جبير يؤمّنا في شهر رمضان فيقرأ ليلةً بقراءة عبدالله بن مسعود، وليلة بقراءة زيد بن ثابت، وليلة بقراءة غيره، وهكذا دائماً[٨].

ونلاحظ ان ابن جبير مع امتلاكه لامكانية التفسير والاستعداد لممارسته باعتراف الجميع إلاّ انه كان يتحرّز من التفسير بالرأي ويتجنبه بشدّة، وقد غضب حين طلب منه شخص ان يفسّر القرآن برأيه وقال له: لئن يسقط شقّي أحبّ اليّ من ذلك[٩].

وذكروا أنّه قال: لئن تقع جوانبي خير لك من هذا[١٠].

وكانت التقوىٰ والعفّة والزهد هي منشأ هذا التحرّز والاجتناب، حيث شهدنا ذلك مقروناً بثبات الايمان وقوّة اليقين في خاتمة حياته ومن ثَمَّ شهادته علىٰ نحو فجيع سجّلها التاريخ بأحرف من نور[11].

ولقد احتل اسم ابن جبير الحقل الأوسع والمكان الاسمىٰ في تفاسير القرآن وكان تفسيره منهلاً فيّاضاً للواردين.

٢ـ مجاهد بن جبر المكّي المكنّىٰ بـ (أبي الحجّاج) (٢١ـ١٠٤هـ).

يعدّ من أوثق أصحاب ابن عباس وتلامذته[12]، وروايات التفسير الواردة عنه مروية عن أمير المؤمنين عليّ(ع) وابن عباس.

عدّه سلمة بن كهيل في عداد مفسّري الشيعة[13]، واعتمد جمع من محققي أهل السنة كالشافعي والبخاري علىٰ تفسيره، وذكر آخرون أنّ تفسيره أصحُّ الوجوه في شرح وبيان الآيات[14].

قال مجاهد: عرضت القرآن علىٰ ابن عباس ثلاثين مرّة. وكان ابن أبي مليكة يقول: رايت مجاهداً يسأل ابن عباس عن تفسير القرآن ومعه ألواحه، فيقول له ابن عباس: اكتب، قال: حتّىٰ ساله عن التفسير كلّه[15].

وامتلك مجاهد حريّة وجرأة في تفسير القرآن افتقدها باقي مفسّري هذه المرحلة، وكان يعتقد بالتشبيه والتمثيل فيما يتعلّق ببعض الآيات القرآنية، وكان يفسّر أحياناً بما لا ينسجم مع المعاني الظاهرية للألفاظ والتعبيرات القرآنية.

ولقد كان منحىٰ مجاهد واسلوبه الخاص في التفسير، والطفرات التي كانت تبدو في تفسيره لبعض الآيات هو الاساس والمنشأ لاسلوب التفسير المعتزلي، كما كان ذريعة لتشبّث المتصوّفة والعرفانييّن بمنهجهم في التفسير.

نقل الطبري عن مجاهد في تفسير آية **﴿ولقد علمتم الذين اعتدوا في السبت فقلنا لهم كونوا قردةً خاسئين﴾**[16] أنّه قال: مُسخت قلوبُهم ولم يُمسخوا قردة، وانّما هو مثل ضربه الله لهم كمثل الحمار يحمل أسفاراً[17]؛ لكن ابن جرير الطبري لم يرتضِ هذا التفسير[18] وكما فسرُ مجاهد آية **﴿وجوه يومئذ ناضرة إلىٰ ربّها ناظرة﴾**[19]، بأنها تنتظر الثواب من ربّها، لا يراه من خلقه شيء[20] وهذا التفسير عن مجاهد كان فيما بعد مُتّكأ قوياً للمعتزلة فيما ذهبوا اليه في مسألة رؤية الله تعالى[21].

لذا فقد أعرض جمع من مفسّري السنّة وخاصّة جملة من الأشعرييّن صفحاً عن

الأخذ بهذا التفسير، اضافةً الىٰ اتّهامهم لمجاهد بأنّه يرجع إلى أهل الكتاب في تفسير القرآن.

ومن الواجب ان نذكر هنا ان من المستبعد ان يرجع مجاهد في التفسير الى أهل الكتاب لأنّه كان كأستاذه ابن عباس يتحرّز من عمل كهذا ان المنحىٰ التمثيلي والعقلي لمجاهد في التفسير لا ينسحب علىٰ جميع آيات القرآن ولا تصدق عموميته عليها، بل انّه أظهر هذا الاسلوب بشأن بعض الآيات، وكان بنظره مبنياً علىٰ الحديث والأثر لكنه اقترن باستنباطه الشخصي المسبّب من جراته الزائدة في التفسير والتي كانت نتيجة إلمامه الواسع بهذا الحقل.

لذا فقد ذكروا انّ مجاهد يمتلك مقام الامامة في التفسير غير مُدافَع، وليس في اعطائه لنفسه مثل هذه الحريّة في ابداء الرأي ممّا يغضّ من قيمته أو يقلّل من مكانته[٢٢].

٣ـ عكرمة، مولىٰ ابن عباس (م ١٠٤ـ ١٠٥هـ):

كان من بربر المغرب، وكانت له الرواية عن مولاه ابن عباس وعن أمير المؤمنين علي(ع). يقول الشعبي: ما بقي أحدٌ أعلم بكتاب الله من عكرمة. وقال سماك بن حرب: سمعتُ عكرمة يقول: لقد فسّرتُ ما بين اللّوحين، وقال: كلّ شيء أحدّثكم في القرآن فهو عن ابن عباس. وقال حبيب بن ثابت: اجتمع عندي خمسة (من المفسّرين): طاووس ومجاهد وسعيد بن جبير وعكرمة وعطاء، فأقبل مجاهد وسعيد بن جبير يلقيان علىٰ عكرمة التفسير، فلم يسألاه عن آية الاّ فسّرها لهما[٢٣].

يتضّح من خلال الروايات التي ذكرناها الشخصية العلمية لعكرمة في تفسير القرآن، وقد توصّلنا من خلال روايات اخرىٰ الى انّ عكرمة كان يمتلك ذوقاً تفسيرياً فيّاضاً الى الحدّ الذي كان استاذه ابن عباس يفيد احياناً من قريحته وذوقه التفسيري. وكان عكرمة يوضح ويشرح الآيات القرآنية التي كان تفسيرها يبهم علىٰ ابن عباس ويقول: قرأ ابن عباس آية ﴿لم تعظون قوماً الله مهلكهم أو معذّبهم عذاباً شديداً﴾[٢٤] فقال ابن عباس: لم أدرِ أنجا هؤلاء القوم أم هلكوا؟ قال: فما زلتُ أبيّن له حتىٰ عرف (ابن عباس) أنّهم نجوا فكساني حلّة تشجيعاً[٢٥].

وقد ذكروا أنّ ابن عباس كان يجعل في رجليه القيد ويعلّمه التفسير[٢٦]، وكتب العلاّمة الحلي والمحدّث القمّي انّ عكرمة لم يكُ من مفسّري الامامية[٢٧] بل كان يعدّ من

الخوارج[٢٨] وذكروا أنّه قيل للامام الباقر(ع): إنّ عكرمة مولىٰ ابن عباس قد حضرته الوفاة فقال: إنْ أدركتُه علَّمته كلاماً لم تطعمه به النار[٢٩].

٤ ـ عطاء بن أبي رباح المكّي (م٢٧ رمضان١١٤):

كان من فقهاء ومفسّري مكّة المعروفين، وقد أدرك ــ كما نقل عنه ـ سبعين صحابياً[٣٠].

قال عنه قتادة إنّه أعلم الناس بالمناسك، وذكروا أنّ ابن عباس كان يقول لأهل مكّة إذا جلسوا إليه: تجتمعون اليّ يا أهل مكّة وعندكم عطاء[٣١]؟!

يقول الذهبي: إنّ شواهد تاريخية كثيرة تدلّ علىٰ مقام عطاء العالي في التفسير والحديث، نستنتج منها انّه كان رجلاً صادقاً وثقة، ومع انّه بلحاظ كثرة الروايات التفسيريةُ لا يقارن بمجاهد وسعيد بن جبير لكن هذه الحقيقة لا تقلّل من أنّ اهميةَ مقامه في التفسير بالرأي قد أضاف اهمية خاصة علىٰ نشاطه التفسيري وقيل إنّه سُئل عن مسالة فقال: لا أدري فقيل له: الا تقول فيها برأيك؟ قال: انـي أستحي من الله أن يُدان في الارض برأيي[٣٢].

إن روايات عطاء ومجاهد في التفسير والتي تستمدّ الالهام من مدرسة ابن عباس التفسيرية تعدّ أساساً لأقدم مصنّفات التفسير[٣٣].

ويجدر القول إنّ عطاء كان مورد احترام بني اميّة وتقديرهم حيث أمروا أن لا يفتي أحد الناس غير عطاء فإن تعسّر ذلك فعبدالله بن أبي نجيح[٣٤].

٥ ــ طاووس بن كيسان اليماني (م١٠٤ أو ١٠٨في مكّة).

ينقل طاووس في تفسيره روايات عن العبادلة الأربعة[٣٥] وباقي مفسرّي عصر الصحابة ويدّعي انّه جالس خمسين نفراًمن الصحابة، وكان يكثر التردّد علىٰ ابن عباس[٣٦] حيث أخذ معظم معارفه التفسيريّة عنه.

ويعتقد بعض العلماء ان طاووس ايراني الأصل، وقد عدّه الشيخ الطوسي وصاحب الروضات من أصحاب الامام السجّاد(ع)[٣٧] كما انّ ابن قتيبة قد صرّح بتشيّعه[٣٨] الاّ ان جمعاً من محقّقي الشيعة عدّه من المتصوّفة ومن مفسّري أهل السنّة[٣٩]، ولم يؤيّد المحدّث النوري مسالة تشيّعه[٤٠].

وقد أورد حاجي خليفة طاووساً في عداد مفسّري عصر التابعين الذين كان لأكثرهم كتاب في التفسير، واحتمل اغا

بزرگ الطهراني استناداً الىٰ ما ذكره ابن الجزري انّه قد دوّن كتاباً في التفسير[٤١].

وكان طاروس من أتقياء وزهّاد زمانه المعروفين، وكانت أمانته ووثاقته مورد قبول الكثير من المفسرين الذين كانوا يذكرونه باحترام خاص، وهو الذي قال عنه ابن عباس: إنّي لأظنّ طاووساً من أهل الجنّة[٤٢].

وكان طاروس يعجب لأهل العراق أنّهم يعدّون الحجّاج بن يوسف مع كل مظالمه وذنوبه مؤمناً مسلماً[٤٣].

مفسرو المدينة في عصر التابعين:

لقد أقام الكثير من الصحابة في المدينة بينما تركها بعضهم الىٰ سائر البلاد الاسلامية، وكان للصحابة الباقين مجالس في المدينة لتعليم القرآن والتفسير أفاد منها الكثير من التابعين، وقد تشكّلت لذلك مدرسة في التفسير سار عليها أهل المدينة.

ولأن أبيّ بن كعب بقي في المدينة، حيث لمع اسمه في مجال التفسير قياساً الىٰ الآخرين، فقد جرىٰ مفسرو عصر التابعين في المدينة علىٰ نهجه وطريقته في التفسير، وكان من أشهر مفسري عصر التابعين في المدينة: أبو العالية رفيع بن مهران وأبو أسامة زيد بن أسلم ومحمد بن كعب القرظي.

١ ـ أبو العالية رفيع بن مهران (م ٩٠ أو ٩٣هـ):

كان يروي عن أمير المؤمنين عليّ(ع) وعبدالله بن مسعود وعبدالله بن عباس وأبيّ بن كعب.

وكان قارئاً ومفسّراً للقرآن، وكان يحظىٰ باحترام واجلال ابن عباس الذي كان يجلسه علىٰ فراشه وسريره ويُجلس قريشاً أوطأ منه، وقد تعلّم أبو العالية القراءة عن أُبَيّ بن كعب[٤٤].

ولقد وجدت نسخة كبيرة في التفسير روىٰ فيها أبو جعفر الرازي عن ربيع بن أنس عن أبي العالية حيث روىٰ الأخير عن أبيّ بن كعب، وقد نقل ابن أبي حاتم ومحمد بن جرير الطبري الكثير في تفسيريهما عن هذه النسخة، كما أورد الحاكم في المستدرك وأحمد بن حنبل في مسنده روايات عن هذه النسخة[٤٥].

٢ ـ زيد بن أسلم (م١٣٦هـ):

من التابعين الذين اشتهروا في عصرهم بغزارة العلم، وكان بعض معاصريه يقول انّهم أفادوا منه أكثر من سواه إذ كان لزيد في المدينة حلقة ومجلس للفتوىٰ.

وقيل انّ زيداً كان من أصحاب الامام السجّاد(ع)، لذا فقد نُقلت عنه روايات كثيرة في الكافي والتهذيب، لكن الاخباريين يعدّونه في عداد مفسري السنّة[٤٦]، وقد أخذ عنه التفسير ولده عبد الرحمن بن زيد ومالك بن أنس[٤٧] المعروف بـ (امام أهل المدينة)[٤٨] وقد عرف عن زيد انّه كان يفسّر القرآن برأيه ولا يتحرّج، ربّما لانه كان يرىٰ بعض الصحابة يفعل ذلك أحياناً.

٣ـ محمد بن كعب القرظي الكوفي المدني (م ١١٧أو ١١٨هـ):

روىٰ عن كبار المفسرين كعليّ بن أبي طالب(ع) وابن مسعود وابن عباس، وروىٰ عن أبيّ بن كعب بواسطة.

وقد اشتهر بعدالته ووثاقته وبكثرة الحديث وتأويل القرآن، قال عنه ابن عون: ما رأيتُ أحداً أعلم بتأويل القرآن من القرظي[٤٩] وقال ابن حيّان: كان القرظي من أفاضل أهل المدينة علماً وفقهاً، وكان يقصّ في المسجد فسقط عليه وعلىٰ أصحابه سقف فمات هو وجماعة معه تحت الهدم في سنة ثماني عشره ومئة من الهجرة[٥٠].

مفسرو عصر التابعين في العراق (البصرة والكوفة):

تابع مفسّرو أهلِ العراق ابنَ مسعود في التفسير، إذ اشتهر ابن مسعود هناك أكثر من غيره لأن عمّار بن ياسر حين نصبه عمر والياً للكوفة أخذ معه عبدالله بن مسعود معلّماً للقرآن والتفسير وقد سبَّب وجود المسائل الخلافية بين مفسّري أهل العراق لأن يصبحوا من أهل الرأي والنظر، وكان شائعاً انّ ابن مسعود قد وضع الأساس لهذه الطريقة والنهج في الاستدلال ثم توارثها عنه علماء العراق، ومن الطبيعي ان تؤثر هذه الطريقة في مدرسة التفسير فيكثر تفسير القرآن بالرأي والاجتهاد لأن استنباط مسائل الخلاف الشرعيّة نتيجة من نتائج إعمال الرأي في فهم نصوص القرآن والسنّة.

مفسّرو الكوفة المعروفون في عصر التابعين:

١ـ مرّة الهمداني الكوفي (م ٧٦هـ)

واسمه أبو اسماعيل مرّة بن شراحيل، المعروف بـ(مرّة الطيب)، وقد روىٰ عن أبي بكر وعمر وعلي(ع) وابن مسعود، وكان لمرّة في نظر أهل السنة مقام شامخ في الزهد والتقوىٰ[٥١]، ومع انّ أهل الكوفة وفقهاءها كانوا من شيعة أمير المؤمنين عليّ(ع) ومحبيه فقد كان مرّة، شأنه شأن مسروق وشريح، يكنّ العداوة والبغض

لعليّ(ع)[٥٢]، وقد كتب بعضهم انّ الشعبي أيضاً كان أحد الأربعة الذين يبغضون عليّاً(ع)[٥٣].

٢ــ علقمة بن قيس بن عبدالله النخعي الكوفي(م ٦١هـ):

يعدّ من أشهر رواة ابن مسعود، وهو بنظر أهل السنة من الرواة الموثّقين الموصوفين بالورع والتقوىٰ.

قال عبدالله بن مسعود: ما أقرأ شيئاً ولا أعلمه الّا علقمة يقرؤه ويعلمه[٥٤].

ولم يكن موثّقاً في الأحاديث من قبل أهل السنة فحسب بل انّه كان معروفاً بالزهد والتقوىٰ والوثاقة بين رجال حديث الشيعة، وقد عُدّ في رجال الكشّي من كبار التابعين والرؤساء وزهّاد العصر[٥٥].

٣ــ مسروق بن أجدع الكوفي (م٦٣هـ):

روىٰ عن الخلفاء الراشدين وعن ابن مسعود وأبيّ بن كعب وغيرهم، وقد عُدّ من أصحاب ابن مسعود وأتباعه المعروفين، وقد نقل عنه قوله. أخذتُ الكثير من معارف التفسير عن ابن مسعود، (وكان عبدالله يقرأ علينا سورة ثم يحدّثنا عنها ويفسّرها عامّة النهار)، وكان مسروق من الموثّقين في نظر أهل السنّة[٥٦]، لكنه في كتب رجال الشيعة من الكوفيّين الذين عادوا عليّاً(ع)[٥٧].

٤ـ عامر الشعبي: أبو عمرو عامر بن شراحيل الشعبي الكوفي (م١٠٤ أو ١٠٩هـ):

روىٰ عن عليّ(ع) وابن مسعود وعمر لكنه لم يسمع منهم[٥٨]. ونقل اضافة لذلك عن أبي هريرة وعائشة وابن عباس وأبي موسىٰ الأشعري[٥٩]. قالوا انّه أدرك خمسمئة من الصحابة، وذكروا انّ الشعبي كان في زمانه كابن عباس في زمانه من حيث الاحاطة والاطلاع علىٰ التفسير[٦٠].

وقد اعترف العلماء والمحقّقون بعظمة مقامه في التفسير الحديث والشعر والفقه، وكذا بقوّة حافظته وسائر مزاياه الأخرىٰ لكنّه كان عند علماء الشيعة شخصية مذمومة ومطعوناً فيها[٦١].

وقد كتب الطبري يقول: انّ الشعبي يدّعي ادّعاءً عظيماً بقوله: (ما من آية الاّ سألتُ عنها ولكنّها الرواية عن الله)[٦٢].

ان اغلب المحققين المسلمين يعترفون بشخصيتّه العظيمة في تفسير القرآن ومعارف عصره، لكنهم مع ذلك لا يثبتون له ـ كباقي المفسرين ــ جرأة في التفسير بل يقولون انّه كان يستنكف بشدّة من التفسير بالرأي، وكان في اجابته للمسائل التفسيرية غالباً ما يتوقّف ويتردّد، لكنّه مع ذلك كان عالماً ناقداً مدقّقاً في التفسير، وكان لا

يعجبه تفسير السدّي ويطعن عليه وعلىٰ أبي صالح لأنه كان يراهما مقصّرين في النظر[٦٣]، قيل ان الشعبي كان يمرّ علىٰ أبي صالح باذان فيأخذ أذنه فيعركها ويقول: (تفسّر القرآن وأنت لا تقرأ القرآن؟!)[٦٤].

٥ ـ الأسود بن يزيد النخعي(م ٧٤ أو ٧٥ في الكوفة):

من رواة ابن مسعود وأبي بكر وعمر وعليّ(ع) وحذيفة وبلال وغيرهم، وكان له مقام وموقع جيد في فهم كتاب الله، وقد عدّ من الفقهاء والزهّاد.

٦ ـ جابر بن يزيد الجعفي التابعين (م١٢٧ أو ١٢٨ أو ١٣٢هـ):

كان من أصحاب عليّ بن الحسين(ع) والباقر(ع)[٦٥]، وقد دوّن الكثير من الكتب في التفسير والأحكام وآثار أهل البيت وغير ذلك[٦٦].

يقول سفيان الثوري عنه: جابر صدوق في الحديث الاّ انّه شيعي رافضي[٦٧]، وكانت شخصيته في نظر رجال الحديث الشيعة والسنة مورد القبول والاطمئنان[٦٨].

كتب (بولدزيهر) يقول:

انّ أساس التفسير الشيعي كان كتاب تفسير القرآن الذي دوّنه في القرن الثاني الهجري جابر بن يزيد، لكنّ هذا الكتاب غير موجود وليس من الممكن معرفته الاّ عن طريق النقول المتفرّقة، ولكن عوضاً عن هذا الكتاب فانّ في ايدينا كتباً أكمل في التفسير الشيعي من القرن الثالث والرابع[٦٩].

٦ ـ اسماعيل بن عبد الرحمن الكوفي المعروف بـ(السدّي الكبير) (م ١٢٧هـ)

كان من أصحاب الأئمة السجّاد، الباقر والصادق(ع)[٧٠]، وكان ينقل الحديث عن أبي صالح أحياناً، وعن أبي مالك أحياناً أخرىٰ، حيث يروي هذان الاثنان عن ابن عباس.

وقد كتب ابن عطيّة يقول: أمّا السدّي فهو الذي يطعن فيه وفي ابي صالح عامر الشعبي، لأنه كان يعتقد انّهما كانا يتسامحان في النظر في الحديث[٧١].

وعدّ علماء الشيعة وبعض من علماء السنة السدّي من الشيعة[٧٢] حيث ورد في ميزان الاعتدال انّه شيعي صدوق مقبول[٧٣]، ويبدي السيوطي وجة نظره ونظر الآخرين حول السدي فيقول: وروىٰ عن السدّي الأئمة، مثل الثوري وشعبة، لكن التفسير الذي جمعه رواه أسباط بن نصر، وأسباط لم يتفقوا عليه، غير انّ أمثل التفاسير تفسيرُ السدّي[٧٤].

مفسّرو البصرة المعروفون في عصر التابعين:

١ـ أبو سعيد الحسن البصري (م ١١٠هـ):

كان رجلاً عالماً فصيحاً وزاهداً تقيّاً له بيان مؤثّر جذّاب، وقد شهد المفسّرون المسلمون بمهارته في التفسير قال أنس بن مالك: سلوا الحسن البصري (عن المسائل الدينية) فانّه حفظ ونسينا[٧٥].

وقد قيل إنّهم ذكروا الحسن البصري عند الامام الباقر(ع) فقال: ذلك الذي يشبه كلامه كلام الأنبياء[٧٦] لكن الحسن البصري كان يقول بالقدر، ولهذا السبب ولاسباب اخرىٰ نذكرها فيما بعد لم يكن الحسن البصري يلقىٰ القبول عند الشيعة.

قال حماد بن سلمة إنّ حميداً كان يقول: قرأت القرآن علىٰ الحسن ففسّره علىٰ الإثبات [يعني إثبات القدر] وكان يقول: من كذّب بالقدر فقد كفر[٧٧].

لذا فقد ذكر المحدّث القمي انّ الحسن البصري أحد الزهّاد الثمانية وكان يحدّث الناس بما يلائم رغبتهم، ويتظاهر بالزهد والتقوىٰ طلباً للرياسة والجاه، وهو إمام القدرية ورئيس مذهبهم، وقد عدّه السيّد المرتضىٰ أيضاً من المتقدّمين الذي كانوا يتظاهرون بالعدالة والتقوىٰ والزهد[٧٨].

وقد ألقىٰ الدكتور عبد الرحمن بدوي المصري محاضرات في كلية الالهيات حول مسائل التصوُّف الاسلامي كانت إحداها خاصة بالحسن البصري، قال فيها إنّ ابن النديم ذكر في كتابه تفسيراً منسوباً له[٧٩] لذا يجب اعتباره التفسير المدوّن الثاني بعد تفسير ابن عباس[٨٠].

واضاف الدكتور المذكور أنّ الحسن البصري كان أوّل من روجّ للحجّة والاستدلال بمعناها المتعارف ولاءم ووافق بين الزهد والاستدلال، وقد انتقد معاوية في مسائل عدّة من جملتها قتله حجر بن عدي وتعيينه يزيد وليّاً للعهد وغيرها.

وكان الحسن يفسّر القرآن من منظار العزلة والرغبة عن الدنيا ويوجّه حتىٰ الآيات التي تتحدّث عن التمتّع بالدنيا وزينتها الى جوانب الزهد والإعراض عن الدنيا؛ إذ كان يعتقد انّ الآيات القرآنية لها القدرة علىٰ تحملّ الوجوه والتأويلات المختلفة[٨١].

٢ـ قتادة بن دعامة السدوسي (م١١٧هـ):

كان ينقل أحاديث في التفسير عن أنس وأبي الطفيل وابن سيرين وعطاء بن أبي رباح، وكان يمتلك حافظة قويّة واطّلاعاً واسعاً علىٰ الشعر العربي وأيّام العرب وأنسابها، وتبحُّراً في اللغة العربية

ومفرداتها، وقد اكتسب لهذه الجهات شهرة فائقة حيث يقول عنه سعيد بن المسيّب: ما أتاني عراقيّ أحسن من قتادة[٨٢].

ويبدو لنا أنّ قتادة كان من محبّي عليّ(ع)، فقد روي أنّه سمع من خالد بن عبدالله القسري كلاماً في ذمّ عليّ (ع) فخرج من مجلسه وهو يقول: زنديق وربِّ الكعبة، زنديق وربّ الكعبة[٨٣].

إنّ الاشكال الذي أوردوه علىٰ قتادة هو أنّه كان يقول بالقدر، لكننا يجب الاّ ننسىٰ انّه كان أوحد زمانه في التفسير وفي الكثير من المعارف وقد كان أمثال أبي عمرو بن العلاء يذكرونه باحترام كبير.

قال معمر: سألتُ أبا عمرو بن العلاء عن قوله تعالىٰ ﴿وما كنّا له مقرنين﴾[٨٤]، فلم يجبني فقلت: سمعتُ قتادة يقول: مطيقين، فسكت فقلتُ له: ما تقول يا أبا عمرو؟ فقال: حسبُك قتادة، ولولا كلامه في القدر ــ وقد قال رسول الله(ص): إذا ذكر القدر فامسكوا ـ ما عدلتُ به احداً من أهل دهره[٨٥].

قيل إنّ قتادة ـ في قضيّة ابن نوح الذي مات كافراً، أكان ابنه من لبه أم كان ابن زوجته؟ ــ قد اختار القول الاول الذي اتفّق عليه أهل الكتاب لكنّ الحسن البصري خالفه في ذلك وتساءل مستنكراً «مَن يرجع في دينه الى أهل الكتاب؟!»[٨٦].

ويجب القول ان قتادة كان ملجأ ومرجعاً للمحققين والباحثين العلميين في عصره، حيث كانوا يرسلون اليه الرسائل الكثيرة من اطراف البلاد الاسلامية ونواحيها المختلفة فيجيبهم عليها، وقد بعث فيه هذا الاهتمام الزائد من جانب أهل العلم مضافاً الى شهرته التي طبقت آفاق عصره في العلوم والمباحث غروراً الى حدّ أنّه أجرىٰ علىٰ لسانه ادّعاء (سلوني قبل أن تفقدوني) وجرّه ذلك الىٰ الانكسار والافتضاح[٨٧].

٣ــ أبو صالح باذان (أو باذام) البصري، المتوفىٰ بعد القرن الاول الهجري:

كان تلميذاً لابن عباس، وروىٰ عنه محمد بن السائب الكلبي، وكان من ثقات الشيعة. ذكر الشيخ المفيد في كتاب (الكافئة في إبطال توبة الخاطئة) بعد حديث سنده هكذا: (أبان بن عثمان عن الأجلح، عن أبي صالح، عن ابن ... الخ). فهذا الحديث صحيح الاسناد، واضح الطريق، جليل الرواة؛ فلولم يكن أبو صالح من الشيعة الثقات الأجلّة لما عبرّ الشيخ المفيد عنه وعن سائر الرواة الذين وردوا في هذا طريق بمثل هذا التعبير[٨٨] وكان سبب قول الشعبي له

(تُفسِّر القرآن وأنت لا تقرأ القرآن) أنّه كان أعجميّاً لا يُجيد تلاوة القرآن كما يفعل العرب؛ وكان أبو صالح يقول لعكرمة: مولاي (أمير المؤمنين عليّ (ع)) أعلم من مولاك (ابن عباس)[٨٩].

وقد أورد البخاري في صحيحه التفسير الموجود في مصر برواية أبي صالح لكن الشعبي كما ذكرنا سابقاً كان يتّهمه بعدم الدقّة في نقل الحديث[٩٠].

وأبو صالح هذا يقع في طريق رواية السدّي الكبير، وكذلك في جميع طرق رواية كتاب (تنوير المقياس من تفسير ابن عباس)، ونقل جميع التفاسير الموجودة في هذا الكتاب تنتهي الى أبي صالح حيث يروي بدوره عن ابن عباس[٩١].

ونلاحظ في هذه الدورة وما يتلوها بقليل مجموعة من المفسرين كان لهم مكانهم على طول تاريخ التفسير، وكانت آراؤهم في شرح وبيان الآيات محل الإفادة والاعتماد.

أ ـ عطاء بن أبي سلمة الخراساني: كان أصلاً من أهل البصرة وكان مقيماً بخراسان، واتُّهم عطاء بسوء الذاكرة لذا فقد اختلف المحقّقون المسلمون في توثيقه[٩٢].

ب ـ محمد بن السائب الكلبي (م ١٤٦هـ): كان من الشيعة المختصين بالامام أبي جعفر الباقر وأبي عبدالله الصادق (ع)[٩٣]، ولم يكن لأحد تفسير أطول منه ولا أوفى[٩٤].

وابن الكلبي من علماء الكوفة المبرّزين في التفسير وفي أيّام العرب وأنسابهم، ولم يخلّف الاّ كتاباً في تفسير القرآن[٩٥]، وكان ابنه أبو المنذر هشام بن محمد الكلبي كأبيه عالماً نسّابة، عالماً بأخبار العرب وأيامها ومثالبها ووقائعها، وقد خلف أبو المنذر نحو مئة كتاب، وكان يمتلك حافظة قوية، حيث حكي انّه حفظ القرآن في ثلاثة أيّام[٩٦].

حـ ـ علي بن أبي طلحة الهاشمي: تلميذ ابن عباس بالواسطة، وهو راوي صحيفة مصر، وقد جرى توثيقه بالرغم من أنّه يروي عن ابن عباس بواسطة[٩٧].

د ـ قيس بن مسلم الكوفي: ينقل الحديث عن عطاء بن السائب عن سعيد بن جبير عن ابن عباس، وكانت رواياته في التفسير مقبولة عندهم بشرط توثيق الشيخين (مسلم والبخاري)[٩٨].

هـ ـ سليمان بن مهران الأعمش (م ١٤٨هـ): قال بعض المحقّقين إنّه كان شيعياً، لكن المحقق الحلّي أنكر كونه كذلك.

و ـــ مقاتل بن سليمان الأزدي الخراساني (م ١٥٠هـ):

كان من أصحاب الامام الباقر(ع)، لكن بعضاً عدّه من محدّثي أهل السنّة[٩٩]، وقد روىٰ عنه ابن بابويه في كتاب (من لا يحضره الفقيه)، والكليني في كتاب (الكافي)[١٠٠]. وعدّه ابن النديم زيديّاً ونسب إليه كتباً كثيرة[١٠١]، وقال الشافعي في حقّه: الناس عيالٌ عليه في التفسير[١٠٢] وعلىٰ أيّ حال فقد امتدح العلماء المسلمون تفسير مقاتل[١٠٣].

ز ـ الضحّاك بن مزاحم الهلالي (م ١٠٢ أو ١٠٥هـ): يروي عن ابن عباس، وهو مخدوش بنظر بعض علماء أهل السنّة، لكن وثّقه كثير من رجال الحديث.

وكتب السيوطي: إنّ رواياته إن ضمّت بشر بن عمارة عن أبي رَوْق فضعيفة، وان ضمّت جويبراً فاشدّ ضعفاً[١٠٤].

ح ـ عطيّة بن سعيد العوفي الجدلي الكوفي (م١١١هـ):

يروي عن ابن عباس، وقد أورد ابن ابي حاتم وابن جرير روايات كثيرة في كتبهما عن طريق العوفي، وضعّفه بعضهم كالسيوطي[١٠٥]، ويظهر من ملحقات الصّراح أنّ تفسير العوفي كان في خمسة أجزاء، وكان يقول: عرضت القرآن علىٰ ابن عباس ثلاث مرات علىٰ وجه التفسير، وامّا علىٰ وجه القراءة فقرأت ثلاثين مرّة[١٠٦].

وحكي انّ الحجّاج ضرب العوفي مئة جلدة ليشتم عليّاً لكنّه امتنع ولم يفعل[١٠٧].

ويجب ان نذكر انّ مفسري عصر الصحابة والتابعين يتجاوزون المقدار الذي أثبتناه بمراتب، كذلك فانّ المفسّرين الذين تتردّد اسماؤهم في التفاسير المتأخّرة وتنعكس آراؤهم التفسيرية في كتب التفسير يزيدون علىٰ هذا المقدار، وقد أوردنا هنا نماذج من مشاهير المفسّرين.

ملامح التفسير في عصر التابعين:

أ ـــ تسرّب الاسرائيليات والنصرانيّات الىٰ تفسير القرآن:

ذكر ابن خلدون انّ (أقوال أهل الكتاب وآراءهم التي عرفت بـ(الاسرائيليّات) من اليهود، و(النصرانيات) من النصارىٰ قد تسرّبت الى تفسير القرآن ومثّلت مطالب غثّة وسمينة مردودة ومقبولة في تفسير القرآن[١٠٨]، انّ علّة هذا الأمر تكمن في سلسلة عوامل اجتماعية وثقافية ودينية كانت تدفع المفسّرين ليحشروا هذه المطالب الغريبة في التفسير، ويشخّص ابن خلدون أحد هذه العوامل في غلبة البداوة

والأميّة علىٰ الأمّة العربية حينذاك، ويرىٰ أنّ ميل العرب في ذلك الوقت الى معرفة مبدأ الخليقة وسببها، ومن ثَمَّ أسرار الوجود، وكذا رغبتهم في معرفة حقيقة الحوادث والوقائع التي وقعت قبل الاسلام لاستخلاص العبرة والموعظة منها، كل ذلك دفعهم لمراجعة أهل الكتاب والاستفسار منهم؛ لأنّهم تصوّروا انّ لاهل الكتاب إحاطة وإلماماً أكثر بهذه المطالب والمواضيع، وربّما كان السبب في رجوع المفسّرين لأهل الكتاب وقبولهم رواياتهم وآراءهم أنّ هذه المطالب ليس لها ارتباط وعلاقة بأحكام الاسلام ومسائله العقائدية الخاصّة ليحتاطوا ويتعمقّوا أكثر عند قبولها، وليميّزوا الأخبار صحيحها عن سقيمه[(١٠٩)].

لذا فقد تسامح مفسّرو هذا العصر في قبولهم روايات وآراء أهل الكتاب وأقحموها، بلا قصد، في تفسير القرآن. وكانت الروايات التي ينقلها أهل التوراة وخاصةً اولئك الذي اتخّذوا من سرد الحوادث والقصص التاريخية حرفةً لهم - مربوطة ببداية الخليقة، حيث كانت هذه القصص مذكورة في التوراة وخاصة في سفر التكوين باسهاب وتفصيل أكثر منها في القرآن، وقد أورد الجاحظ في كتابه(البيان والتبيين) أسماء عدد من هؤلاء القاصّين وقال عن أحدهم المسمّىٰ بـ(أبي موسىٰ الاسواري): كان أحد أعاجيب الدنيا في سعة اطّلاعه وقوّة حافظته، وكان يقارن بين قصص التوراة والقرآن لانّه كان حافظاً للتوراة وللقرآن معاً[(١١٠)].

ويجدر هنا أن نشير إلىٰ أنّ ابن النديم ذكر أنّ التوراة قد تُرجمت في القرن الثالث الهجري من قبل أحمد بن سلام الى اللغة العربية[(١١١)] وخلاصة القول إنّ اليهود كانوا مؤثرين في إدخال مسائلهم الدينية في التفسير والحديث أكثر من باقي الأمم والأقوام بسبب تماسّهم المباشر مع العرب، ولكون بعضهم كان يمتلك شهرة حسنة ومقاماً دينياً مهماً، حيث أخذ العرب عنهم مقولاتهم وتقبّلوها باعتماد وثقة خاصّة.

وحين يريد المحقّق أن يلقي الاضواء علىٰ اسباب ورود الاسرائيليات، وأحياناً النصرانيات في تفسير القرآن في عصر التابعين، وحتىٰ في عصر الصحابة ايضاً، فانّه سيصل — لا محالة - الى حقيقة أنّ مفسّري هذه المرحلة قد اخذوا — بوعي أو بدون وعي — المسائل والمطالب في مجال القصص والروايات الدينية من اليهود وغيرهم، لأنّ افكار المسلمين ونفوسهم كانت توّاقة لدرك الحقائق، وخاصة في عصر التابعين ومن ثمّ فقد حاولوا إرضاء

حبّ الاستطلاع لديهم بأيّة وسيلة.

ومن الواضح أنّنا نجد في كتب التفسير الكثير من روايات كعب الأحبار أو [كعب الحبر] وهب بن منبه، عبدالله بن سلام، عبد الملك بن عبد العزيز وآخرين، وهؤلاء كانوا من يهود اليمن الذين أسلموا، ولأنّهم صاروا في عداد صحابة النبيّ(ص) وتحمل بعضهم المشاقّ والمصاعب بسبب اسلامهم، فقد اكتسبوا مقاماً وموثقاً خاصاً عند المسلمين، وحين كان هؤلاء المسلمون الجدد يُسألون عن مواضيع عدا الأحكام الشرعية، أي عن القصص القرآنية والملاحم، فانهم كانوا يجيبون طبق المرتكزات والرواسب الذهنية التي اصطبغت بثقافة اليهود ومعارفهم الدينية، وكانوا يبيّنون القصص والملاحم القرآنية بما يتناغم ومطالعاتهم ومفاهيمهم عن الدين اليهودي، والذي كان غالباً ممتزجاً بالخرافات والأساطير، من ثَمّ فقد راحت هذه المعارف التفسيرية الخاطئة شيئاً فشيئاً في أوساط المسلمين، حيث تقبّلوها حقيقةً دينيةً دون تمحيص وتدقيق في جذورها وعمَّن أُخذت، ومن ثَمّ فقد أدرجوها بلا وعي ضمن تفاسيرهم.

وعلاوة علىٰ هذا كلّه، فقد كان منافقو صدر الاسلام الذين كان اليهود يشكّلون غالبيتهم يتعمّدون في نشر الروايات المختلفة والمحرّفة لزعزعة ايمان الناس وعقائدهم وإضعاف عظمة الاسلام وشموخه.

ولهذا السبب فقد برزت في القرن الثالث الهجري مسألة نقد الأخبار والأحاديث بصورة علمية، وقد كان محمد بن سلّام الجمحي (م٢٣٢هـ) في بداية كتاب (طبقات الشعراء) صاحب الريادة في هذا الأمر ثم تبعه المحقّقون المسلمون بتنظيم المسائل المتعلّقة بذلك، ونظّموا قواعد وضوابط لمعرفة الأحاديث ومصادرها.

ب ــ الاتّساع النسبي لأسلوب التفسير بالرأي:

علىٰ الرغم من أنّ التفسير في عصر التابعين لم يخرج عن حدود التفسير الأثري والنقلي بشكل كامل، حيث بقي القرآن يفسّر، غالباً بهذه الطريقة، لكن التفسير لم يستطع ان يحافظ علىٰ سمته الروائية والنقلية بالشكل الذي كان يتميّز به في عصر الصحابة وشاهدنا أن التفسير قد اتّبع في البلاد المختلفة مدارس خاصّة، ففي مكّة اتبع مدرسة ابن عباس، وفي المدينة تبع في الاكثر منهج أبيّ بن كعب، وفي العراق نحىٰ منحىٰ عبدالله بن مسعود.

وكان بين مفسري هذا العصر ــ كما رأينا ـ مفسرون كسعيد بن جبير، طاووس

اليماني وعامر الشعبي يتحرَّزون من التفسير بالرأي في حين كان مجاهد وعطاء بن أبي رباح وزيد ابن أسلم وقتادة، بل أكثر مفسري أهل الكوفة، لا يتأبّون أن يفسّروا بالرأي.

ج ـ التمهيد لظهور التفاسير المذهبيّة:

كتب الذهبي يقول: لقد تعمّقت الاختلافات المذهبيّة في عصر التابعين، وظهرت تفاسير جرىٰ خلالها تأييد ودعم آراء خاصة في المسائل المذهبيّة.

وكما رأينا فان قتادة كان يخوض في مسألة القضاء والقدر، وقد اتّهم بأنّه كان قدرياً، وقد ترك ميله الشديد وانحيازه للقدر بصماته الواضحة علىٰ أسلوبه التفسيري وأثّر علىٰ الآخرين أيضاً، لذا فان جمعاً من المفسرين المسلمين لم يقبلوا تفسيره بسبب كون مذهبه قدرياً.

كذلك فانّ الحسن البصري كان يوجّه الآيات القرآنية علىٰ أساس الزهد وعقيدته في القدر، وحتىٰ انّه كان يكفّر منكر القدر. وتجدر الاشارة هنا الىٰ الاختلاف الاول الذي نشأ بين المسلمين لتعرف جذور الاختلافات الاخرىٰ التي أثّرت في تفسير القرآن، لقد كان المسلمون في عصر نبيّ الاسلام متّحدين في عقيدتهم متكاتفين في عملهم، وكما يقول (طاش كبرىٰ زاده) حول مسلمي عصر النبي(ص):

«أدركوا زمان الوحي وشرف صحبة صاحبه، وأزال نور الصحبة عنهم ظُلَم الشكوك والأوهام»[١١٢].

وكتب المقريزي أيضاً: لم يكن أحد من صحابة رسول الله(ص) يستدلّ في إثبات التوحيد والنبوّة بغير كتاب الله، ولم تكن لديهم معرفة بأيٍّ من الطرق الكلامية والفلسفية، ولم يكونوا ليستعينوا بهذه الطرق في هذا المجال[١١٣].

إنّ الخلاف الأول بين المسلمين برز للعيان بعد وفاة النبيّ(ص)، وكان له جذوره قبل وفاته(ص)، وبقول أبي الحسن الاشعري (م٣٢٤هـ) فهذا الاختلاف كان الخلاف حول الامامة والخلافة، فقد كتب يقول: (وأول ما حدث من الاختلاف بين المسلمين بعد نبيّهم (ص) اختلافهم في الامامة)[١١٤].

هذا الخلاف كان المنشأ الأقوىٰ والأكثر تأثيراً للمنازعات والمجادلات بين الفرق الاسلامية، وكان الأرضية والاساس لباقي الاختلافات الفرعية، حيث امتدّت جذوره احياناً الى العقائد أو فروع الاحكام، ووجد طريقه تدريجياً الى تفسير القرآن حيث ظهر بشكل بارز ومتميّز في عصر

التابعين.

لقد امتدّ عصر الصحابة ـ كحدّ أعلىٰ ـ الى حدود السنة السبعين أو الثمانين للهجرة، وظهر في أواخر هذا العصر وبعده اختلاف القدريّة الذين يقول المعتزلة بشأنهم: انّ القدريّة هم الذين يعتقدون انّ جميع الخيرات والشرور من الله وبتقديره ومشيئته، ونقلوا رواية عن النبي(ص) في ذمّهم حيث قال(ص): القدريّة مجوس أمّتي[115].

والقدريّة هم الذين يبحثون عن القدر والاستطاعة، مثل معبد الجهني (م سنة٨٠هـ) الذي صلبه عبد الملك، ويقول بعضٌ انّ الحجّاج قتله بعد تعذيب شديد، ويمكن أن نسمّي غيلان الدمشقي وجعد بن درهم حيث كان الأخير مؤدّب مروان بن محمد ـ كمؤيّدي فكرة القدريّة، وجعد هذا قتله هشام.

ان هذا المذهب وسائر المذاهب الاخرىٰ مع انها كانت تمتلك حُضوراً وسابقة في زمن الصحابة وكان جماعة من الصحابة كابن عباس (م ٦٨هـ) وجابر (م ٥٠هـ) وأنس (م٨٥ أو٩٣هـ) وأمثالهم ينتقدون القدريّة ويوصون بعدم التسليم عليهم أو عيادتهم في مرضهم أو الصلاة عليهم عند وفاتهم[116] لكن الاختلافات العقائدية زادت في حدّتها في زمن التابعين.

د ـ بداية تدوين التفسير:

للاجابة عن سؤال: من هو أوّل من دوّن تفسير القرآن؟ يجب القول إنّ تشخيص المدوّن الأوّل للتفسير حسب المصادر الموجودة ليس عملاً سهلاً، لكننّا بإمعان النظر في هذا الموضوع ومناقشته، وبجرح الشواهد وتعديلها وتمحيصها ربّما سنصل الى نتيجة أنّ سعيد بن جبير (م ٩٤هـ) ينبغي ان يكون أول مدوّن لتفسير القرآن، وسعيد هذا قتله الحجّاج قتلة بشعة بسبب تشيُّعه وولائه لعليّ(ع).

إنّ المفسّرين الذين اعتبرهم المحققون المسلمون أوّل من دوّن في التفسير كلّهم رحلوا عن الدنيا بعد سعيد بن جبير، وبحدس قوي فقد شرعوا بعده بتدوين وكتابة التفسير.

يقول ابن النديم: كان السبب في إملاء كتاب الفرّاء في المعاني[117] انَّ عمر بن بكير كان من أصحابه وكان منقطعاً الى الحسن بن سهل، فكتب الى الفرّاء: إن الأمير الحسن بن سهل ربما سألني عن الشيء بعد الشيء من القرآن فلا يحضرني فيه جواب فان رأيت أن تجمع لي أصولاً، أو تجعل في ذلك كتاباً أرجع إليه فعلت، فقال الفرّاء لأصحابه: اجتمعوا حتىٰ أملي عليكم كتاباً في القرآن،

وجعل لهم يوماً، فلمّا حضروا خرج اليهم، وكان في المسجد رجل يؤذّن ويؤمُّ الناس في الصلاة، فالتفت اليه الفرّاء فقال له: إقرأ بفاتحة الكتاب نفسِّرها ثم نوفي الكتاب كلّه. فقرأ الرجل والفرّاء يفسّر قال أبو العبّاس: لم يعمل أحد قبله مثله ولا أحسب انّ أحداً يزيد عليه[118] وتوفّي الفرّاء سنة ٢٠٧هـ.

وعلىٰ ما ذكره أبو ثعلب فانّا لا نعرف مدوّناً آخر قبله في التفسير، لكننا توصّلنا في ترجمة أحوال مجاهد الىٰ هذه النتيجة وهي ان استيفاء الآيات وسور القرآن لم يكن عملاً بلا جذور أو سابقة، ولم يكن متأخراً عن نهاية القرن الأول، يقول ابن مليكة: رأيت مجاهداً يسأل ابن عباس عن تفسير القرآن ومعه ألواحه، فيقول له ابن عباس: اكتب، قال: حتىٰ سأله عن التفسير كلّه[119].

وقد ذكر السيوطي أيضاً هذا الحديث[120]، ويبدو ـ طبقاً لهذا الحديث ـ ان تفسير وتدوين كلّ القرآن جرىٰ في زمن ابن عبّاس.

وقد توفي ابن عباس سنه ٦٨، وتوفي مجاهد سنة ١٠٤، لكن المحققين لم يأخذوا هذه الرواية كدليل قطعي على تدوين تفسير القرآن، ربّما لأنّهم كانوا متردّدين في نسبتها. ومع اعتبار الوثائق والمصادر الموجودة يمكن القول انّ أول مفسّر للقرآن دوّن تفسيره هو سعيد بن جبير (م٩٤هـ).

ومع ان ابن النديم قد ذكر كتاب تفسير عكرمة عن ابن عباس ضمن الكتب التي دوّنت في تفسير القرآن[121]، لكنّ عكرمة توفي سنة ١٠٤ أو ١٠٥هـ وسنة وفاته متأخرة عن سنة وفاة سعيد بن جبير، وبعبارة اخرىٰ فانّ ابن جبير كان متقدماً زمانياً بين مدوّني تفسير عصره التابعين، وهو لذلك يتصدّرهم جميعاً. وكتب ابن خلكان انّ عمرو بن عبيد شيخ المعتزلة كتب كتاباً في تفسير القرآن بالنقل عن الحسن البصري (م ١١٠ أو ١١٦هـ)[122]، كما ذكر ابن النديم أيضاً كتاب تفسير الحسن بن أبي الحسن البصري[123]، لكنّ هذا التفسير أيضاً لا يمكن ان يكون التفسير المدوّن الأول؛ لأنّ سعيد بن جبير شرع بتدوين التفسير قبل موت الحسن البصري بسنوات بدليل أنّ ابن حجر ذكر في ترجمة عطاء بن دينار الهذلي المصري أنّ علي بن حسن الهسنجاني روىٰ عن أحمد بن صالح أنّه قال إنّ عطاء بن دينار كان من ثقات المصريّين... وقد طلب عبد الملك بن مروان(م٨٦هـ) من سعيد بن جبير أن يكتب له تفسيراً للقرآن فكتب ابن جبير ذلك، وقد وجد عطاء بن دينار هذا الكتاب في الديوان، ولأنه لم ير سعيد بن جبير فقد رواه عنه

مرسلاً.

هذه الرواية صـريحة في أنّ ابن جبير كـان قد دوّن كتـاباً فـي التفسير، وان هـذا العمل حصـل قبل وفاة عبـد الملك في سنـة (٨٦هـ)، ويجدر أن نضيف تأكيداً لما ذكرناه أنّ ابن النـديم ذكر أيضـاً كتاب تفسيـر ابن جبير[١٢٤].

وبالاخـذ بنظر الاعتبـار هذه القـرائن والدلائل، وان علمـاء أهل السنّة عـدوّه أعلم التابعيـن في تفسير القرآن فـانّه بـالحدس والظن القويّ يمكن القول إنّ سعيد بن جبير كان المؤلّف والمدوّن الأول لتفسير القرآن.

الهوامش:

(١) ابن خلكان؛ وفيات الاعيان ١: ٣٦٣.

(٢) السيوطي؛ الاتقان ٢: ٣٢٣.

(٣) المصدر نفسه.

(٤) ابن خلكان؛ وفيات الأعيان ١: ٣٦٥.

(٥) حسن الصـدر؛ تـأسيس الشيعـة: ٣٢٤؛ ابن حجـر، تهذيب التهذيب ٤: ١٣، ١٤.

(٦) جولدزيهر، مذاهب التفسير الاسلامي: ٢٩١.

(٧) الذهبي؛ التفسير والمفسرون ١: ١٠٣.

(٨) ابن خلكان؛ وفيات الأعيان ١: ٣٦٥.

(٩) المصدر السابق.

(١٠) جولدزيهر؛ مذاهب التفسير الاسلامي: ٧٤.

(١١) الذهبي؛التفسيـر والمفسـرون ١: ١٠٤؛ وينظر كـذلك الى:Brackeimunn 1.105 Anm (نقلاً عن جولدزيهر، مذاهب التفسير الاسلامي: ٧٤)؛ ابن حجر، تهذيب التهذيب ١: ١٣ و ١٤.

(١٢) ابن تيميـة؛ تفسيـر سـورة الاخـلاص (نقـلاً عـن جولدزيهر، مذاهب التفسير الاسلامي: ١٢٩).

(١٣) حسن الصـدر؛ تـاسيس الشيعـة : ٣٢٢؛ الشعراني، فهرست مشـاهير القراء.

(١٤) ابن تيميـة؛ تفسيـر سـورة الاخـلاص (نقـلاً عـن جولدزيهر، مذاهب التفسير الاسلامي: ١٢٩).

(١٥) ابن تيمية؛ مقدمة في أصول التفسير: ٢٨.

(١٦) البقرة: ٥٦.

(١٧) الجمعة: ٥.

(١٨) الطبري؛ جامع البيان ١: ٢٥٣.

(١٩) القيامة: ٢٢ و ٢٣.

(٢٠) الطبري؛ جامع البيان ٢٩: ١٢٠.

(٢١) الذهبي؛ التفسير والمفسرون ١: ١٠٦.

(٢٢) المصدر السابق: ١٠٧.

(٢٣) المصدر نفسه.

(٢٤) الاعراف: ١٦٤.

(٢٥) ابن حجر؛ تهذيب التهذيب ٧: ٢٦٣ ـ ٢٦٧؛ ابن سعد، الطبقات الكبرىٰ ٥: ٢٨٧، ٢٨٨.

(٢٦) السيوطي؛ الاتقان ٢: ٣١٦؛ ابن سعد، الطبقات الكبرىٰ ٢: ٣٨٦.

(٢٧) المحـدث القمي؛ سفينة البحـار ٢: ٣١٦؛ الشعراني، فهرست مشاهير القراء: ٦.

(٢٨) جولدزيهر؛ مذاهب التفسير الاسلامي: ٩٦؛ المحدث

القمي، سفينة البحار ٢:٢١٦.

(٢٩) المحدث القمّي: سفينة البحار ٢:٢١٦.

(٣٠) المصدر السابق، الشعراني: فهرست مشاهير القراء: ٦.

(٣١) الذهبي: التفسير والمفسرون ١: ١١٣، ١١٤.

(٣٢) الذهبي: التفسير والمفسرون ١: ١١٤.

(٣٣) جولدزيهر: مذاهب التفسير الاسلامي: ٩٧.

(٣٤) المصدر السابق.

(٣٥) وهم عبدالله بن عباس، عبدالله بن مسعود، عبدالله بن عمر وقيل عبدالله بن الزبير.

(٣٦) الذهبي: التفسير والمفسرون ١: ١١٢.

(٣٧) المحدث القمي: سفينة البحار ٢: ٩٤.

(٣٨) المحدث القمي: سفينة البحار ٢: ٩٤، ٩٥.

(٤٠) المصدر السابق.

(٤١) الطهراني: الذريعة ٤: ٢٨٠.

(٤٢) الذهبي: التفسير والمفسرون ٢: ١١٢

(٤٣) ابن سعد: الطبقات الكبرى ٥: ٣٩٤ (نقلاً عن جولدزيهر: مذاهب التفسير الاسلامي: ٨٠) للتوسع في شرح احوال طاووس يراجع: ابن حجر: تهذيب التهذيب ٥: ٨ ـ ١٠؛ المحدث القمي: سفينة البحار ٢: ٩٤، ٩٥.

(٤٤) الشعراني: فهرست مشاهير القراء.

(٤٥) للتوسع في المطلب يراجع: ابن حجر، تهذيب التهذيب ٢: ٢٨٤، ٢٨٥.

(٤٦) الشعراني، فهرست مشاهير القراء.

(٤٧) وهو كاتب (الموطا)، قيل انّه صرف أربعين سنة في تاليفه وعرضه على سبعين فقيهاً من فقهاء المدينة (يراجع: ابن حجر: تهذيب التهذيب ٢: ٣٩٥، ٣٩٦؛ صبحي الصالح، مباحث في علوم القرآن: ٩٥).

(٤٨) الزرقاني: مناهل العرفان ١: ٤٨٩؛ الشعراني، فهرست مشاهير القراء.

(٤٩) الخزرجي: خلاصة تذهيب الكمال: ٣٠٥.

(٥٠) الذهبي: التفسير والمفسرون ١: ١١٦.

(٥١) للتوسع في المطلب يراجع: ابن حجر: تهذيب التهذيب ١٠: ٨٨، ٨٩.

(٥٢) أبو علي: منتهىٰ المقال: ٣٠٠.

(٥٣) المصدر السابق ضمن ترجمة أحوال مسروق.

(٥٤) الذهبي: التفسير والمفسرون ١: ١١٩.

(٥٥) أبو علي: منتهىٰ المقال: ٣٠٢.

(٥٦) ابن حجر: تهذيب التهذيب ١٠: ١٠٩ـ١١١.

(٥٧) ابو علي: منتهىٰ المقال: ٣٠٠.

(٥٨) الخزرجي: خلاصة تذهيب الكمال: ١٥٥ (نقلاً عن الذهبي، التفسير والمفسرون ١: ١٢١).

(٥٩) الذهبي: التفسير والمفسرون ١: ١٢١.

(٦٠) المحدث القمي: سفينة البحار ١: ٧٠١.

(٦١) المصدر السابق.

(٦٢) الطبري: مقدمة جامع البيان ١: ٢٨.

(٦٣) أبو حيان النحوي: البحر المحيط ١: ١٣.

(٦٤) الطبري: جامع البيان ١: ٣٠ (نقلاً عن الذهبي، التفسير والمفسرون ١: ١٢٣.

(٦٥) للتوسّع يراجع تهذيب التهذيب ١: ٣٤٢، ٣٤٣.

(٦٦) ابو علي: منتهىٰ المقال: ٧٣؛ الصدر: تأسيس الشيعة ٢٨٤ و٣٢٦ و٣٥٨.

(٦٧) أبو علي: منتهىٰ المقال: ٧٣.

(٦٨) للتوسّع يراجع: أبو علي: منتهىٰ المقال: ٧٣.

(٦٩) Tusi List Of Shqa 73,244 Muh Stud. 11 - 112

(نقلاً عن جولدزيهر؛ مذاهب التفسير الاسلامي: ٣٠٣).

(٧٠) حسن الصدر؛ تأسيس الشيعة: ٣٢٦؛ عدّه الشيخ الطوسي في كتابه (معرفة الرجال) من أصحاب الامام الصادق(ع).

(٧١) مقدمتان: ٢٦٤؛ السيوطي؛ الاتقان ٢: ٣٢٣، ٣٢٤.

(٧٢) ابن قتيبة؛ المعارف: ٣٠٦ (نقلاً عن حسن الصدر، تأسيس الشيعة: ٣٢٦).

(٧٣) أبو علي؛ منتهىٰ المقال: ٥٦.

(٧٤) السيوطي؛ الاتقان ٢: ٣٢١، ٣٢٢.

(٧٥) الذهبي؛ التفسير والمفسرون ١: ١٢٤.

(٧٦) المصدر السابق.

(٧٧) للتوسع يراجع: تهذيب التهذيب ٢: ٢٦٣ـ ٢٧٠.

(٧٨) المحدث القمي؛ سفينة البحار ٢: ٤٠٥.

(٧٩) ابن النديم؛ الفهرست: ٢٩٢.

(٨٠) في مسألة انّ ابن عباس كان له تفسير مدوّن أم لا تراجع مقالة الكاتب (تحقيق حول ابن عباس ومقامه في التفسير، بالفارسية) انظر: مقالات وبررسيها، هامش ١٧ و١٨: ٩٥ـ ١٠٥.

(٨١) احدىٰ محاضرات الكاتب ضمن البحث عن التصوّف في الاسلام ربيع عام ١٣٩٤هـ ـ ١٩٧٤م.

(٨٢) الذهبي؛ التفسير والمفسرون ١: ١٢٥.

(٨٣) المحدث القمّي؛ سفينة البحار ٢: ٤٠٥.

(٨٤) الزخرف: ١٣٢.

(٨٥) ابن خلكان؛ وفيات الأعيان ٢: ١٧٩.

(٨٦) عبد الحليم النجار؛ هامش مذاهب التفسير الاسلامي: ٧٦.

(٨٧) يقول: انّ قتادة دخل الكوفة وقال: سلوا عمّا شئتم، فسألوه عن نملة سليمان أذكرٌ هي أم انثىٰ؟ فلم يعلم فأفحم. (انظر: المحدث القمي؛ سفينة البحار ٢: ٥٨٦).

(٨٨) الصدر؛ تأسيس الشيعة: ٣٢٥.

(٨٩) الشعراني؛ فهرست مشاهير القراء الف.

(٩٠) مقدمتان: ٢٦٤.

(٩١) انظر: طرق رواية (تنوير المقباس من تفسير ابن عباس).

(٩٢) الزرقاني؛ مناهل العرفان ١: ٤٨٩.

(٩٣) الطهراني؛ الذريعة ٤: ٣١١؛ الصدر، تأسيس الشيعة: ٣٢٥.

(٩٤) السيوطي؛ الاتقان ٢: ٣٢٢.

(٩٥) المحدث القمي؛ سفينة البحار ٢: ٤٨٨.

(٩٦) المصدر السابق.

(٩٧) تراجع مقالة الكاتب (تحقيق حول ابن عباس...) مقالات وبررسيها، هامش ١٧ و١٨ص٨٨، ٨٩.

(٩٨) نفس المرجع: ٨٩، ٩٠.

(٩٩) أبو علي؛ منتهىٰ المقال: ٣١٠.

(١٠٠) الشعراني؛ فهرست مشاهير القراء.

(١٠١) ابن النديم؛ الفهرست (الترجمة الفارسية): ٣٣٤.

(١٠٢) ابن خلكان؛ وفيات الأعيان ٢: ١٦٥.

(١٠٣) تراجع مقالة الكاتب؛ مقالات وبررسيها ش١٧ و١٨ ص٩٤، ٩٥.

(١٠٤) السيوطي؛ الاتقان ٢: ٣٢٢.

(١٠٥) الخزرجي؛ خلاصة تذهيب المقال: ٣٠؛ السيوطي، الاتقان ٢: ٣٢٢.

(١٠٦) الطهراني؛ الذريعة ٤: ٢٨٣.

(١٠٧) الشعراني؛ فهرست مشاهير القراء.

(١٠٨) ابن خلدون؛ مقدمة العبر: ٤٣٩.

(١٠٩) المصدر السابق: ٤٣٩، ٤٤٠.

(١١٠) الجاحظ؛ البيان والتبيين ١: ٢٤٦.

(١١١) ابن النديم: الفهرست (الترجمة الفارسية): ٣٧، ٣٨.

(١١٢) طاش كبرىٰ زاده؛ مفتاح السعادة ٢: ٣٢.

(١١٣) المقريزي؛ الخطط ٤: ٨١.

(١١٤) الأشعري؛ مقالات الاسلاميين ١: ٢.

(١١٥) المحدث القمي؛ سفينة البحار ٢: ٤٠٩.

(١١٦) ابو المظفر الاسفرايني؛ التبصير في الدين (نقلاً عن مصطفىٰ عبد الرزاق؛ تمهيد لتاريخ الفلسفة الاسلامية: ٢٨٥).

(١١٧) هذا الكتاب يشبه (مجاز القرآن) لابي عبيدة في احتوائه علىٰ شرح آيات القرآن حسب ترتيب السور، وقد طبع الجزء الاول منه لأول مرّة من قبل دار الكتب سنة ١٩٥٦م، وكان الى آخر سورة يونس.

(١١٨) الذهبي؛ التفسير والمفسرون ١: ١٤٣.

(١١٩) الطبري؛ جامع البيان ج١: ٣٠.

(١٢٠) مقدمتان: ١٩٤.

(١٢١) ابن النديم؛ الفهرست (الترجمة الفارسية): ٥٩.

(١٢٢) ابن خلكان؛ وفيات الأعيان ٢: ٣.

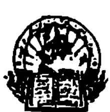
(١٢٣) ابن النديم؛ الفهرست: ٥٩ (الترجمة الفارسية).

(١٢٤) المصدر السابق.

* * *

الهداية القرآنيّة

السيد محيي الدين المشعل



﴿أفمن يهدي إلى الحقّ أحقّ أن يتّبع؟أمّن لايهدّي إلاّ أن يهدى﴾!

خلق الإنسان، وخلق الكون بما فيه من أجله ومن أجل إيصاله إلى كماله وتحقيقه لخلافة الله تعالى التي تعني هدايته، وتربيته، وتزكيته، وقد جاء الأنبياء، وأنزلت معهم الكتب، وزودوا بالشرايع لكي يتحقق الهدف الّذي أراده الله لأفضل مخلوقاته ـــ وهو الإنسان ـ والذي هو الهداية والسير إلى الله تعالى في خط الرضا.

ومن أعظم الكتب السماويّة وأقدسها القرآن الكريم الذي يتحدّث في أكثر سوره وآياته عن هداية الإنسان بكلّ أبعادها، وحيثياتها ومن هو الهادي؟، وكيف تتم عملية الهداية؟ وما هي أنواع الهداية، وأشكالها وموضوعات أخرى مرتبطة. بهذه المسألة الأساسية والمصيرية في حياة الإنسان، والّذي يسعى كل فرد لتحقيقها والحصول عليها لأنّها تمثل السعادة الحقيقية، والفوز المطلق في كلّ المجالات وذلك لأنّ هداية الشيء هي عبارة عن ايصاله إلى كماله من خلال إيجاد حالة من التوافق بين الوسائل والآليات التي زوّد بها وبين الأهداف التي يراد له تحقيقها، وبالتالي يتحقق الوصول إلى المقصد والمطلوب.

البحث اللغوي: هدى، الهدى: الرشاد والدلالة ويؤنّث، ويذكّر، يقال: هداه الله للدين هدىً، وقوله تعالى: ﴿أولم يهد لهم﴾ أي أولم يبين لهم.

وهديته الطريق والبيت هداية أي عرّفته، هذه لغة أهل الحجاز، وغيرهم يقول هديته إلى الطريق وإلى الدار.[1]

قال الراغب في المفردات:

هدى: الهداية دلالة بلطف، ومنه الهدية،

وهوادي الوحش أي متقدماتها الهادية لغيرها، وخصّ ما كان دلالة بهديت، وما كان إعطاءاً بأهديت.(٢)

ثم قسّم الراغب الهداية الالّهية للانسان إلى أربعة أقسام:

الأول: الهداية التي عمّ بجنسها كل مطلب من العقل والفطنة والمعارف الضرورية التي أعمّ منها كل شيء بقدر فيه حسب احتماله كما قال تعالى:

﴿ربُّنا الذي أعطى كلّ شيء خلقه ثم هدى﴾

إلا أن ظاهر الآية أعمّ من دعوى الراغب في أنّها هداية للإنسان اذ الآية الكريمة ذكرت كلّ شيء بمعنى كلّ موجود دون استثناء فحملها على خصوص الإنسان خلاف الظاهر.

الثاني: الهداية التي جعل للناس بدعائه إيّاهم على ألسنة الأنبياء، وإنزال القرآن، ونحو ذلك وهو المقصود بقوله: **﴿وجعلنا منهم أئمة يهدون بأمرنا لمّا صبروا﴾**.

الثالث: التوفيق الذي يختص به من اهتدى ـــ الهداية الخاصّة ـ وهو المعنيّة بقوله: **﴿والذين اهتدوا زادهم هدى وآتاهم تقواهم﴾** ، **﴿ومن يؤمن بالله يهد قلبه﴾**، **﴿إنّ الذين آمنوا وعملوا الصالحات يهديهم ربُّهم بإيمانهم﴾**، **﴿والذين جاهدوا فينا لنهدينّهم سبلنا﴾**، **﴿ويزيد الله الذين اهتدوا هدى﴾**، **﴿فهدى الله الذين آمنوا﴾**، **﴿والله يهدي من يشاء إلى صراط مستقيم﴾**.

الرابع: الهداية في الآخرة إلى الجنّة المعنيّة بقوله: **﴿سيهديهم ويصلح بالهم﴾**، **﴿ونزعنا ما في صدورهم من غلّ﴾**، **﴿الحمد لله الذي هدانا لهذا﴾**.

ثم قال: إنّ هذه الهدايات الأربع مترتبة حصولاً وتحقّقاً والمتأخّرة منها متوقّفة على المتقدّمة، ثم حاول توجيه الآيات المتعلّقة بالهداية بادخالها تحت أحد هذه الأقسام الأربعة.

والهدى والهداية من حيث اللغة واحد ولكن اختصّ الله تعالى الهدى بنفسه وبما تولّاه وأعطاه، واختصّ هو به دون ما هو إلى الإنسان نحو: **﴿هدىً للمتّقين﴾**، **﴿أولئك على هدىً من ربّهم﴾**.

من هو الهادي؟

بتتبع الآيات الكريمة نجد أنّ الهادي هو الله تعالى، وأنّ الهداية منه لكل شيء، بل هي منحصرة في كونها منه تعالى، وبعض الآيات تشير إلى الانحصار، والأخرى تشير إلى الانحصار بدليله.

فكما أنّ الإنسان في وجوده

واستمرارية بقائه بحاجة إلى مَبدَءٍ يفيض عليه ذلك، ويرفع فقره وحاجته مع ملاحظة كون ذلك المبدأ قائم بذاته غير مفتقر إلى غيره فكذلك الأمر في كل صفاته الكمالية فإنّه لابد أن يفيض عليه كمالاته من هو كامل بذاته، وكذا الأمر في المنهج والطريق الذي ينبغي أن يسلك به للوصول إلى هذه الكمالات.

ففي قوله تعالى: ﴿قل إن هدى الله هو الهدى﴾ [٣] بمعنى أن غيره ليس هو الهدى الحقيقي قال في الميزان ج١، ص٢٦٥: «ولا هدىً إلاّ هدى الله والحقّ الذي يجب أن يتّبع، وغيره ليس بالهدى، بل هو أهواؤكم البستموها لباس الدين وسمّيتموها باسم الملّة، ففي قوله تعالى: ﴿إنّ هدى الله ...﴾ جعل الهدى كناية عن القرآن النازل، ثمّ أضيف إلى الله فأفاد صحّة الحصر في قوله: ﴿إنّ هدى الله هو الهدى﴾ على طريق قصر القلب، وأفاد ذلك خلوّ ملّتهم عن الهدى». [٤]

وفي قوله تعالى: ﴿فذلكم الله ربّكم الحقّ فماذا بعد الحقّ إلاّ الضلال﴾ [٥]

«فإذا كانت ربوبيته تعالى حقّه، فإنّ الهدى في اتّباعه، وعبادته، فإنّ الهدى مع الحقّ لا غير فلا يبقى عند غيره الذي هو الباطل إلاّ الضلال».

وكذا قيل إنّ في الآية احتباكاً ـ وهو من المحسنات البديعية ـ وهو أن يكون هناك متقابلان فيحذف من كلّ منهما شيء يدل عليه الآخر. فإنّ تقدير الكلام: فماذا بعد الحقّ إلا الباطل، وماذا بعد الهدى إلا الضلال، فحذف الباطل من الأوّل، والهدى من الثاني فبقي قوله فماذا بعد الحقّ إلا الضلال.

وقوله تعالى: ﴿إنّ الدين عند الله الإسلام﴾ ، ﴿ومن يبتغ غير الإسلام ديناً فلن يقبل منه وهو في الآخرة من الخاسرين﴾ [٦]

فبضم هاتين الآيتين إلى الآيات المتقدّمة التي بيّنت أنّ هدى الله هو الهدى والدين عند الله الإسلام، فالهدى عند الله هو الإسلام ولا غيره فانحصرت الهداية فيه تعالى.

وقوله تعالى: ﴿كفى بربّك هادياً ونصيراً﴾ [٧] وإن لم يظهر الحصر واضحاً في الآية الكريمة إلاّ انها بضمها مع ما تقدمها من الآيات يمكن أن تكون كفايته تعالى في الهداية دليلاً على انحصارها فيه إذ غيره لايمكنه أن يكون كافياً لأنّه ليس برب، وليس بقادر على النصرة.

وكذلك قوله تعالى: ﴿فأين تذهبون﴾ [٨] بمعنى أن الذي ترك القرآن والإسلام لايصل إلى مقصد، ولا يهتدي إلى

هدف، وهذا يبين أنّ الطريق الوحيد للهداية هو طريق الله تعالى لاغير.

وهذه مجموعة آيات تدل على انحصار الهداية فيه سبحانه وتعالى، وأما التي تدل على الانحصار مع الدليل فقوله تعالى: ﴿قل هل من شركائكم من يهدي إلى الحقّ قل الله يهدي للحقّ أفمن يهدي إلى الحقّ أحقُّ أن يتّبع أمّن لايهدّي إلاّ أن يهدى فمالكم كيف تحكمون﴾.[٩]

وفي الآية مقابلة بين المهتدي بالذات الذي يتمكن من هداية غيره و بين المحتاج للهداية حتى يهتدي فضلاً عن كونه يهدي. إذ بدون هداية ذلك المهتدي بالذات لايمكنه أن يهتدي.

والوجه في أنّ الآية حصرت الهداية في المهتدي بالذات ونفتها عن المحتاج لها لأنّ فاقد الشيء لا يمكنه أن يعطيه، والهداية صفة كمال، وكلّ موجود لم يكن وجوده هو عين ذاته فهو محتاج إلى غيره في أصل وجوده ومن ثمّ فهو محتاج لذلك الغير في بقيّة الكمالات الأخرى التي من ضمنها الهداية.

فالله تعالى مهتدٍ بالذات إذ يقول تعالى: ﴿إنّ ربّي على صراط مستقيم﴾[١٠] وهو الهادي بالذات ولذلك رأى لانحصار الهداية فيه تعالى فإنّه:﴿من يهد الله فهو المهتد ومن يضلل فلن تجد لهم اولياء من دونه ونحشرهم يوم القيامة على وجوههم عمياً وبكماً وصمّاً مأواهم جهنّم كلّما خبت زدناهم سعيراً﴾.[١١]

فكلّ من أراد أن يهتدي بغيره تعالى كانت عاقبته هذه.

﴿فمن يهد الله فهو المهتد ومن يضلل فلن تجد له وليّاً مرشداً﴾.[١٢]

وهنا ملاحظة لابد من إثارتها، وهي أنّ هذه الهداية الّتي حصرناها فيه تعالى هي الهداية التكوينية التّي تعني الإيصال للمقصود والمطلوب والهدف، وأمّا الهداية التي تعني التبليغ وبيان الأحكام فليست منحصرة فيه، بل يمكن أن تتحقق من قبل المهتدي بهدايته تعالى كما في قول مؤمن آل فرعون: ﴿ياقوم اتّبعونِ أهدكم سبيل الرشاد﴾[١٣] ويمكن أن تتحقق من قبل الشخص غير المهتدي كما في قوله تعالى: ﴿أتامرون الناس بالبرّ وتنسون أنفسكم﴾[١٤]، ﴿لم تقولون مالا تفعلون كبر مقتاً عند الله أن تقولوا مالا تفعلون﴾.

الهداية بالأصالة والهداية بالتبع:

وبعد بيان انحصار الهداية في الله سبحانه وتعالى تواجهنا مشكلة قرآنية وهي

أنّ الآيات في كثير منها قد نسبت الهداية لغيره تبارك وتعالى كما في نسبتها للأنبياء أو لبعض الأولياء أفهذه النسبة تنافي الانحصار المتقدّم الذي أشرنا إليه أم لا؟

وفي مقام الإجابة عن هذا السؤال نقول بأنّ أصل الهداية بالذات، وبالأصالة منحصرة فيه تعالى كبقية الكمالات الوجودية الأخرى، إلا أن هذه الهداية تكون للأنبياء والأولياء ـ الّذين هم منفّذو المشيئة الإلهية ـ بالتبع أو بالعرض سواء كانت هذه الهداية هداية تكوينية، أم هداية تشريعيّة.

بمعنى أنّهم «ع» في كلتا الجهتين أعني الهداية التكوينية، والهداية التشريعية مجاري فيض لله سبحانه وتعالى، أي كما أنّهم من حيثية الولاية وسائط فيض في الهداية التكوينية فهم كذلك من حيث الخلافة والرسالة، وسائط فيض في الهداية التشريعية.

فالفرق الجوهري بين الهداية المنسوبة له تعالى، وبين الهداية المنسوبة لأوليائه، وأنبيائه أنّ الأولى بالأصل، والثانية بالتبع.

فقوله تعالى: ﴿وإنّك لتهدي إلى صراط مستقيم﴾ [١٥] تفيد أنّه (ص) له صلاحية الهداية إذ أنّه (ص) على صراط مستقيم في جميع أفعاله وأقواله، وسكناته، وحركاته كما جاء في قوله تعالى: ﴿إنك لمن المرسلين على صراط مستقيم﴾ [١٦] غاية الأمر أنّ هدايته (ص) للناس ليست بالأصالة، وإنما هي بالتبع والمجاز.

ولذلك صحّ سلب الهداية عنه(ص) كما في قوله تعالى: ﴿إنّك لاتهدي من أحببت ولكنّ الله يهدي من يشاء وهو أعلم بالمهتدين﴾ [١٧] وذلك بالتوجيه المتقدّم فإثبات الهداية له في الآية السابقة على نحو الهداية التبعية لا الأصلية وسلبها عنه في الآية الثانية على نحو الهداية الأصلية، فلا تنافي أصلاً بين هاتين الآيتين، وأمثالهما من الآيات الأخرى.

والشاهد على صحّة هذا الجمع نفس صدر الآية الأولى التي تقول: ﴿وكذلك أوحينا إليك روحاً من أمرنا ما كنت تدري ما الكتاب ولا الإيمان ولكن جعلناه نوراً نهدي به من نشاء من عبادنا وإنّك لتهدي إلى صراط مستقيم﴾. [١٨]

وهناك شاهد آخر في القرآن الكريم، وهو قوله تعالى في سورة مريم في خطاب ابراهيم(ع) لأبيه: ﴿يا أبت إنّي قد جاءني من العلم ما لم يأتك فاتّبعني أهدك صراطاً سويّاً﴾. [١٩]

فالهداية التي نسبها إبراهيم(ع) لنفسه في قوله أهدك قد أرجعها في بداية الآية إلى ما جاءه من العلم الالّهي في قوله: ﴿إنّي قد

جاءني من العلم مالم يأتك﴾ ولأجل هذا فاتبعني. وعلى كلّ حال فإنّ آية سورة يونس وهي قوله تعالى: ﴿**أفمن يهدي إلى الحقّ أحقّ أن يتّبع أمّن لايهدّي إلاّ أن يهدى...**﴾[٢٠] هي الحاكمة على كل حالات الهداية المنسوبة لغيره تعالى.

والأمر كذلك في الإرادة، فإنّ الإرادة بالأصل لله فقط لا لغيره، وبالتبع يمكن أن تكون لنبيّه(ص) ففي قوله تعالى: ﴿**وما رميت إذ رميت ولكن الله رمى**﴾[٢١]، دلالة على هذا الأمر فهو يثبت الإرادة والرمي للرسول(ص) في قوله: ﴿**إذ رميت**﴾ ثم ينفيه عنه بقوله، ﴿**وما رميت**﴾، ولكنّ الله رمى، فيريد هنا الإشارة إلى اختلاف هاتين الإرادتين. بالأصل لم يرم الرسول(ص) ولكنه بالتبع قد رمى. وكذلك الأمر في أبان الشفاعة وهو واضح.

فحمل الهداية المنفية من الرسول(ص) على الهداية التكوينية، والهداية الثابتة له(ص) على الهداية التشريعية ليس في محلّه بغية حلّ التنافي، والتناقص، وذلك لأنّه له(ص) الهدايتان التكوينية والتشريعية، فالأوجه في حلّ التنافي في التفريق بين الهداية بالأصل والهداية بالتبع.

أقسام الهداية:

بلحاظ الآيات القرآنية الكريمة التي تدور حول الهداية، والتحقيق في مضامينها نجد أنّ الهداية تنقسم إلى عدّة أقسام وبعدة اعتبارات، وقد تتداخل أقسامها بعضها ببعض.

الهداية التكوينية:

بحسب تتبع الآيات الكريمة نجد أنّ هناك هداية عامّة لا تختص بالإنسان فحسب، بل تشمله، وتشمل جميع الموجودات الأخرى في هذا الكون، وهي المصطلح عليها بالهداية التكوينية، وهي عبارة عن إيصال كلّ شيء إلى مطلوبه الذي هو الغاية التّي يرتبط بها وجوده، وينتهي إليها، والمطلوب هو مطلوبه من جهة خلقه الذي أعطيه، ومعنى هدايته له إليها تسييره نحوها، كلّ ذلك بمناسبة بعضٍ لبعضٍ، فيؤول المعنى إلى إيجاد رابطة بين كلّ شيء بما جهّز به في وجوده من القوى والآلات، وبين آثاره التي تنتهي به إلى غاية وجوده.

فالجنين من الإنسان مثلاً وهو نطفة مصوّرة بصورته مجهّز في نفسه بقوى وأعضاء تناسب من الأفعال والآثار ما ينتهي به إلى الإنسان الكامل في نفسه وبدنه، فقد أعطيت النطفة الإنسانية بما لها من

الاستعداد خلقها الذي يخصّها وهو الوجود الخاصّ بالإنسان ثم هديت وسيّرت بما جهّزت به من القوى والأعضاء نحو مطلوبها وهو غاية الوجود والإنسانية والكمال الأخير الذي يختص به هذا النوع.[٢٢]

وهذا النوع من الهداية هو المدلول عليه بقوله تعالى: **﴿ربُّنا الذي أعطى كلّ شيء خلقه ثمّ هدى﴾**.[٢٣]

وهذا النوع من الهداية لاشك في ضرورته لكل شيء إذ أنّ كل موجود مكاني محتاج لها، وحاجة الموجود المادي أو الطبيعي بدرجة اكبر، وذلك لأن الموجود كلّما ضعف في وجوده فإن حاجته للهداية تكون أشدّ من غيره.

وفي هذا المجال يقول تعالى: **﴿ألم تر أنّ الله أنزل من السماء ماءاً فسلكه ينابيع في الأرض ثمّ يخرج به زرعاً مختلفاً ألوانه ثمّ يهيج فتراه مصفرّاً ثمّ يجعله حطاماً، إنّ في ذلك لذكرى لأولي الألباب﴾**.[٢٤]

ففي هذه الآية بيان لحركة المطر واتجاهه في الأرض، وامتصاص النباتات له ويقول تعالى في شأن النحل: **﴿وأوحى ربّك إلى النحل أن اتّخذي من الجبال بيوتاً ومن الشجر، ومما يعرشون ثمّ كلي من كلّ الثمرات فاسلكي سبل ربّك ذللاً، يخرج من بطونها شراب مختلف ألوانه فيه شفاء للناس إنّ في ذلك لآية لقوم يتفكّرون﴾**.[٢٥]

هذه الهداية التكوينية بالنسبة للموجودات على الإطلاق، أمّا الهداية التكوينية الخاصّة بالانسان فهي الهداية التي تقابل الهداية التشريعية له.

وهي في الإنسان عبارة عن القوى التي يودعها الله تعالى في الإنسان على مستوى علمي وعملي خاصّين، يتم من خلال بذل الجهد والعمل للوصول إلى فهم المعارف الإلّهية ومشاهدتها ومن ثمّ بلوغ الغاية النهائية وفق المراد.

ويكون متعلّق الهداية التكوينية هو فعل الله تعالى ـ أي فعل الهادي، ولذلك فإنّ هذه الهداية لايمكن أن يتخلّف متعلّقها، ولايمكن أن ينحرف المهدي الواقع فيها عما أريد له الوصول إليه.

الهداية التشريعية:

وهي عبارة عن القانون التشريعي الذي يشرّعه الله تعالى للناس بحيث إذا التزمه المشرَّعُ لهم وعملوا بنواهيه وأوامره فإنّهم يصلون إلى سعادتهم.

ومتعلق هذا النحو من الهداية هو فعل المهدي فعل الإنسان ــ فلذلك يمكن أن يتخلّف هذا المتعلّق فيها، بينما متعلّق

الهداية التكوينية كما تقدّم لايمكن بحال من الأحوال أن يتخلّف المتعلق فيها.

لذا قال تعالى: ﴿وأمّا ثمود فهديناهم فاستحبوا العمى على الهدى﴾.[٢٦]

هداية تشريعية، فإنهم كان لهم الاختيار في عدم قبول الهداية.

وكذا قال تعالى: ﴿إنّا هديناه السبيل إمّا شاكراً وإمّا كفوراً﴾.[٢٧]

وعلى كل حال فإن كلتا الهدايتين من الله تعالى لا من أحد سواه، بالفرق الذي تقدّم.

الهداية العامّة والهداية الخاصّة

الهداية العامّة هي الهداية الشاملة التي لامقابل لها، وأمّا الهداية الخاصّة فهي التي تقابل الضلالة.

ومعنى الهداية العامة هو أنّها علاقة خاصّة توجد بين مبدأ العمل ومنتهاه بمعنى أنّ الشيء إذا تحققت من قبله مقدّمات معيّنة فإنه سيصل إلى نتائج خاصّة، فإذا تغيّرت تلك المقدّمات فإنّه سوف تختلف النتائج أيضاً.

قال تعالى: ﴿وعلامات وبالنجم هم يهتدون﴾

فإن كلّ من اعتمد على النجوم وهو عارف بمواقعها فإنه سوف يصل للهدف المنشود.

وقوله تعالى: **﴿إنّا هديناه السبيل إمّا شاكراً و إمّا كفوراً﴾**.[٢٨]

وقوله تعالى: **﴿وهديناه النجدين﴾**.[٢٩]

وقوله تعالى: **﴿فالله يدعو إلى دار السلام﴾**.[٣٠]

وقوله تعالى: **﴿والله يقول الحقّ وهو يهدي السبيل﴾**[٣١]

وقوله تعالى: **﴿وإنّك لتهدي إلى صراط مستقيم﴾**.

فالله تعالى بداية قد جهّز كلّ موجود بقوة واستعداد بهما يصل إلى كمالاته، ويخرجها من القوة والقابلية والاستعداد إلى الفعلية والتحقق، ثم بيّن له الطريق الصحيح الذي من خلاله يحقق ذلك، بل دعاه إلى ذلك الطريق وحذّره عن تركه، فإنّ هذا يسمّى هداية ولا يقابلها شيء البتة. ذلك أن الله تبارك وتعالى لايدعو أحداً إلى الضلالة الابتدائية. بل الضلالة أو الإضلال الابتدائي من الصفات السلبية لله تعالى.

ومن صفاته الثبوتية المتعلقة بمقام الفعل صفة الهداية الابتدائية، فإنه تعالى بالنسبة لمقدمات الهداية التي بسلوكها يصل بالإنسان إلى كماله، وهدفه المنشود لم يفرق بين أحد أصلاً بل ألهم كل شخص ما به يميز بين الحقّ والباطل وبين الخير

والشرّ.

قال تعالى: ﴿ونفس وما سوّاها * فألهمها فجورها وتقواها * قد أفلح من زكّاها﴾[٣٢]

والهداية العامة،

وإن كانت شاملة للانسان وغيره إلا أن ما يشمل غير الإنسان هو من قسم الهداية التكوينية التي تقدم الحديث عنها والتي لايتخلّف متعلقها. بينما الهداية العامّة في المقام هي الهداية التي لا مقابل لها وتعم المؤمن والكافر بلا فرق سواء أكانت على مستوى التعليم أم الدعوة أم بيان الطريق وغيرها.

الهداية الخاصّة:

وهذا النحو من الهداية ليس عاماً يشمل المؤمن والكافر، وإنما هو مختص بالمؤمن، وهو الذي له نحو سلبي يقابله، وهو الإهمال والترك أو الإضلال والضلالة.

فإن الإنسان المؤمن إذا طوى طريق الهداية العامّة، بمعنى أنه لما جاءه الحقّ من الله آمن به واتّبعه وائتمر بأوامره، وانتهى عن نواهيه، فإنه تعالى يجازيه بهداية أرقى نستطيع أن نعبّر عنها بالهداية الجزائية أو الثوابية، وهذه تختلف فقد تكون رفعاً في الدرجات القربية من الله تعالى، أو نفس الإيصال إلى المطلوب.

قال تعالى: ﴿الذين اهتدوا زادهم هدى وآتاهم تقواهم﴾[٣٣] فهنا هداية ابتدائية وهداية جزائية فالذين قبلوا البدوية باختيارهم شملتهم الجزائية بغير اختيارهم بعد أن حققوا مقدماتها.

وقال تعالى: ﴿ومن يؤمن بالله يهد قلبه﴾.[٣٤]

وقال تعالى: ﴿والذين قالوا ربّنا الله ثم أستقاموا تتنزل عليهم الملائكةُ ألا تخافوا ولا تحزنوا...﴾.[٣٥]

قال تعالى: ﴿الله نزّل أحسن الحديث كتاباً متشابهاً مثاني تقشعرّ منه جلود الذين يخشون ربّهم ثمّ تلين جلودهم، وقلوبهم إلى ذكر الله، ذلك هدى الله يهدي به من يشاء ومن يضلل الله فماله من هاد﴾.[٣٦]

فبقرينة المقابلة بين الهداية والضلال نستكشف كون الهداية في المقام هداية جزائية لا ابتدائية.

قال تعالى: ﴿وننزل من القرآن ماهو شفاء ورحمة للمؤمنين ولايزيد الظالمين إلا خساراً﴾.[٣٧]

قال تعالى: ﴿ذلك الكتاب لاريب فيه هدى للمتّقين﴾.[٣٨]

وبعد أن بيّنا أنّ هذا النحو من الهداية هو الهداية الجزائية والثوابية التي تترتب

على استجابة العبد لنداء ربّه، وإخلاصه له، فإن في مقابل هذه الهداية ضلالاً عقابياً يترتب على إعراض الإنسان عن نداءات ربّه، ولا مبالاته بها، بل عناده ومكابرته، وتحديه.

وهذا في الحقيقة والواقع ليس إضلالاً، وإنّما هو ضلال، إذ أنّه تعالى إمّا أن يتعاهد العبد فيهديه، أو إنّه يهمله فيضل، وليس هذا الإهمال بلا سبب وإنّما منشأه إهمال العبد لبيانات المولى تبارك وتعالى، ولأوامره ونواهيه بعد أن تأتيه مكرّرة بغية إخراجه من الظلمات إلى النور، وهو مع ذلك معاند جاحد قال تعالى: **﴿أفرأيت من اتّخذ إلَهه هواه وأضلّه الله على علم، وختم على قلبه﴾.**(٣٩)

فإنَّ الإضلال ليس ابتدائياً وإنّما هو واقع ثم من بعد تعريف الحقّ وبيانه للانسان، وهو مع ذلك متّبع لهواه غير مطيع لمولاه.

وقال تعالى: **﴿ليهلك من هلك عن بيّنة ويحيى من حيًّ عن بيّنة﴾.**(٤٠)

قال تعالى: **﴿ومن أعرض عن ذكري فإنّ له معيشة ضنكاً ونحشره يوم القيامة أعمى قال ربّ لم حشرتني أعمى وقد كنت بصيراً قال كذلك أتتك آياتنا فنسيتها فكذلك اليوم تنسى﴾.**(٤١)

قال تعالى: **﴿وننزّل من القرآن ماهو شفاء ورحمة للمؤمنين ولايزيد الظالمين إلاّ خساراً﴾.**(٤٢)

قال تعالى: **﴿واتل عليهم نبأ الذي آتيناه آياتنا فانسلخ منها فاتبعه الشيطان فكان من الغاوين * ولو شئنا لرفعناه بها ولكنّه أخلد إلى الأرض واتبع هواه فمثله كمثل الكلب إن تحمل عليه يلهث أو تتركه يلهث﴾.**(٤٣)

قال تعالى: **﴿فويل للقاسية قلوبهم من ذكر الله أولئك في ضلال مبين﴾.**(٤٤)

قال تعالى: **﴿فلمّا زاغوا أزاغ الله قلوبهم﴾.**(٤٥)

قال تعالى: **﴿وما يضل به إلا الفاسقين الذين ينقضون عهد الله من بعد ميثاقه ويقطعون ما أمر الله به أن يوصل ويفسدون في الأرض﴾.**(٤٦)

﴿في قلوبهم مرض فزادهم الله مرضاً﴾

وأمّا منشأ الهداية الجزائية او الابتدائية فإنّه قوله تعالى: **﴿ومن يرد الله أن يهديه يشرح صدره للإسلام ومن يرد أن يضلّه يجعل صدره ضيقاً حرجاً كأنّما يصّعّد في السماء﴾.**(٤٧)

استدراك على الضلالة العقابية:

قوله تعالى: ﴿يا بني آدم لا يفتننكم الشيطان كما أخرج أبويكم من الجنّة ينزع عنهما لباسهما ليريهما سوآتهما، إنّه يراكم هو وقبيله من حيث لاترونهم إنّا جعلنا الشياطين أولياء للذين لا يؤمنون﴾.[٤٨]

قوله تعالى: ﴿كذلك يجعل الله الرجس على الذين لايؤمنون﴾.[٤٩]

ولم يكن هذا الأمر إلاّ لانّهم لم يؤمنوا أوّلاً لذا فقد قال تعالى: ﴿إنّهم اتّخذوا الشياطين أولياء﴾.[٥٠]

وقال تعالى: ﴿ألم تر أنّا أرسلنا الشياطين على الكافرين تؤزهم أزّاً﴾.[٥١]

وقال تعالى: ﴿هل أنبئكم على من تنزل الشياطين * تنزل على كلّ أفّاك أثيم* يلقون السمع وأكثرهم كاذبون﴾.[٥٢]

فإنّ الضلال الذي اطلقنا عليه بالضلال العقابي هو نتيجة طبيعة مترتبة على أفعال الكافر المتبعد عن الله قضاءاً لحق المسانخة والقابلية والاستعداد النفساني استناداً لعدله تبارك وتعالى.

وإلاّ فإن الأثر واضح في قوله تعالى: ﴿ما يفتح الله للناس من رحمة فلا ممسك لها، وما يمسك فلا مرسلَ له من بعده وهو العزيز الحكيم﴾.[٥٣]

منشأ الهداية ومنشأ الضلالة:

قال تعالى: ﴿فمن يرد الله أن يهديه يشرح صدره للإسلام ومن يرد أن يضلّه يجعل صدره ضيّقاً حرجاً كأنّما يصّعّد في السماء كذلك يجعل الله الرجس على الذين لا يؤمنون﴾.[٥٤]

﴿وهذا صراط ربّك مستقيماً قد فصّلنا الآيات لقوم يذّكرون﴾.[٥٥]

ولذلك جعل الله تعالى شرح الصدر بالنسبة لرسوله(ص) من أعظم النعم وأرقاها لذا قال تعالى في سورة الشرح ﴿ألم نشرح لك صدرك... السورة﴾.

كما أنّ نبيّنا موسى(ع) قال: ﴿رب اشرح لي صدري﴾.[٥٦]

قال تعالى: ﴿أومن كان ميتاً فاحييناه وجعلنا له نوراً يمشي به في الناس كمن مثله في الظلمات ليس بخارج منها كذلك زيّن للكافرين ما كانوا يعملون﴾.[٥٧]

هذه بعض الموضوعات التي تتعلق بالهداية القرآنية ترجمنا أكثرها عن كتاب «الهداية في القرآن» لآية الله الشيخ الجوادي الآملي مع بعض التصرّف.

ونسأل الله تعالى أن يهدينا إلى سواء الصراط.

الهوامش:

(١) الجوهري: الصحاح: مادة هدى.

(٢) الراغب: المفردات: مادة هدى: ٥٣٨.

(٣) البقرة: ١٣٨.

(٤) الميزان: ١: ٢٦٥.

(٥) يونس: ٣٢.

(٦) آل عمران: ١٩، ٨٥.

(٧) آل عمران: ٨٥.

(٨) الفرقان: ٣١.

(٩) التكوير: ٣٦.

(١٠) يونس: ٣٥.

(١١) هود: ٥٦.

(١٢) الإسراء: ٩٧.

(١٣) الكهف: ١٧.

(١٤) الشورى: ٥٢.

(١٥) يس: ٣ـ٤.

(١٦) القصص: ٥٦.

(١٧) الشورى: ٥٢.

(١٨) مريم: ٤٢.

(١٩) يونس:

(٢٠) الأنفال: ٢٧.

(٢١) الميزان: ١٤: ١٦٦ـ١٦٧.

(٢٢) فصّلت: ١٧

(٢٣) طه: ٥٠.

(٢٤) الزمر: ٢١.

(٢٥) النحل: ٦٨ـ٦٩.

(٢٦) الجاثية: ٢٢.

(٢٧) الانسان: ٣.

(٢٨) الانسان: ٣.

(٢٩) البلد: ١٠.

(٣٠) يونس: ٢٥.

(٣١) الاحزاب: ٤.

(٣٢) الشمس: ٦ـ٨

(٣٣) محمد: ١٧.

(٣٤) التغابن: ١١.

(٣٥) فصلت: ٤.

(٣٦) الزمر: ٢٢.

(٣٧) الاسراء: ٨٢.

(٣٨) البقرة: ٢.

(٣٩) الجاثية: ٢٣ مقابل لقوله تعالى في الآية المتقدّمة: فمن اتبع هداي/ ومقتضى المقابلة أن يقال: ومن لم يتبع هداي. ميزان: ١٤: ٢٢٤.

(٤٠) الانفال: ٤٢. لان من نسي ربّه وانقطع عن ذكره لم يبعد له إلا أن يتعلّق بالدنيا ويجعلها مطلوبة الوصية الذي يسعى له ويهتم باصلاحه.

(٤١) طه: ١٢٢ـ١٢٤.

(٤٢) الاسراء: ٨٢.

(٤٣) الاعراف: ١٧٥ـ١٧٦.

(٤٤) الزمر: ٢١.

(٤٥) الصف: ٥.

(٤٦) البقرة: ٢٦ـ٢٧.

(٤٧) الانعام: ١٢٥.

(٤٨) الاعراف: ٢٧.

(٤٩) الانعام: ١٢٥.

(٥٠) الاعراف: ٣٠.

(٥١) مريم: ٨٣.

(٥٢) الشعراء: ٢٢١ـ٢٢٢.

(٥٣) فاطر: ٢.

(٥٤) الانعام: ١٢٥.

(٥٥) الانعام: ١٣٦.

(٥٦) طه: ٢٥.

(٥٧) الانعام: ١٢٢.

الدين والسياسة: رؤية قرآنية

الاستاذ محمد تقي فرجي
تعريب : عباس ابو سعيدي

يرتبط الانسان خلال مسار حياته الاجتماعية دائماً بالاحداث والمشاكل السياسية . ولغرض استيعاب الظواهر الاجتماعية والمسؤولية التي تقع على عاتق الفرد في مقابل التنمية والتطور والرفاه الاجتماعي الذي يحس به الفرد ، كل ذلك يرغمه على درك وتحليل واقع الحوادث والخصائص المتعلقة بها ثم ابداء وجهة نظره تجاهها والتصميم ثم التدخل في تلك الحوادث .

ان التعقيدات والتنوعات والمفاجآت التي تحويها المسائل السياسية ، اجبرت المفكرين والحكماء ورجال السياسة على ايجاد طرق وسياقات مناسبة ومتكاملة للفهم والتشخيص السريع للمجريات السياسية المتعددة والمتضادة ، [وأن يواتموا الامكانات المتاحة مع الظروف الحالية]، لغرض الوصول الى الاهداف المرجوّة، ولذا فقد ظهرت مدارس سياسية مختلفة على ساحة الوجود[1].

من حيث المبدأ ، فإن السياسة تعني الشروع في إصلاح المجتمع وهداية الناس الى طريق الخير والسعادة في الدنيا والآخرة ، وعلى هذا فإن على الاهداف السياسية ان لا تنفصل عن الأهداف التي من اجلها خُلق الانسان وقد بيّنت ذلك التعاليم الدينية بكل وضوح . ولكن وللأسف الشديد ، تحول مصطلحا الدين والسياسة - كما هو الحال مع المصطلحات الاصيلة والقّيمة الاخرى - على مر التأريخ من قبل المخادعين والأفاكين الى ألعوبة بأيديهم وأساءُوا التعامل معها وحرّفوا معانيها . ولقد

تسارعت خُطى هذه الخيانة الكبرى للأهداف الانسانية السامية منذ وقت مبكر من عصر الرسالة ، وتجلّت إبّان العهد الأموي ، حينما تحولت السلطة الى مُلك عضوض! وصوّر دُعاة اللذة الدنيوية والمتلاعبون بالسياسة، من خلال الاعلام المكثّف والمؤثّر ، السياسة على أنها كذب وخداع وتحايل وخيانة وأن الدّين معناه الانزواء والابتعاد عن الامور السياسية والحكومية والتمسّك بالعبادات الانفرادية ، وكان استدلالهم على ذلك هو أنه لا يمكن لبقعة ما في الأرض أن تُدار الاّ من خلال الكذب والمكر والتحايل ، والحال أنّ طرقاً كهذه كانت دائماً ممقوتة ومبغوضة من قبل الدين ، وعلى هذا فإن على المتعبدين والمتقين ان يبتعدوا عن المسائل والأحداث السياسية .

وممّا يؤسف له أن هذه النظرية الخاطئة والمضلّلة تبنّاها كثيرٌ من رجال السياسةالفاشلين وعبيد الدنيا والمتديّنين البسطاء والغافلين، على أنها جوهر غير قابل للنقاش ، ممّا فتح الطريق لإيجاد حكومات مستبدّة وفاسدة حكمت المجتمعات الأسلامية ومارست فيها القتل والإبعاد والتعذيب في حق أصحاب الحق والمنادين للحقيقة ، وحشّدت كل الإمكانات العظيمة التي أوجدتها التعاليم الحرّة في القرآن والتي كان يجب أن تُسخّر لخدمة مسيرة التكامل والارتقاء بالبشرية ، حُشّدت لتعزيز القمع والإرهاب والإكثار من الأفكار والعقائد الفاسدة والايمان بالخرافة .

والتأريخ هو خير شاهد على انه متى أهمل الإنسان عهده الذى قطعه مع السماء وابتعد عن الوحي ، بقي متأخّراً عن ركب الحضارة ولم ينل أهدافه ، حتى أولئك الرجال المصلحون والخيّرون الذين قادوا المجتمعات مبتعدين عن الشرائع الإلهية والذين توصلوا الى نجاحات ظاهرية ، ففى الواقع يجب اعتبارهم منهزمين، ذلك أن سعيهم لم يكن موازياً ومنسجماً مع فلسفةالخلق ، حيث أن الهدف من وجود حكومةفى نظام تقييمي هو أن يصل أبناءالبشر في ظل الحرية والأمن والرفاه والنظام الى التنمية والفلاح والتقرب بالعمل من الباري عزّ وجلّ لا أن يُسمّنوا .

ليست الحكومة في الاسلام انطباعاً ذهنياً أو انتزاعاً صرفاً حتى يمكن التغاضي عنه ، بل هي جزء لا يتجزأ من الفقه غير قابل للإنكار بل ومكمل له ، ففي نظر الدين ، تُعتبر الحاكمية والسلطة الحقيقية مستمدة

مـن اللـه وحـده ، ولايحـق لأحـد أن يحكـم الآخريـن دون اكتساب الشرعيـة والاذن من الشرع.

﴿قل اللهم مالك الملك .....﴾[٢].

ولاتتـوقف وظيفـة الإنسـان عنـد اداء الفـرائض الدينيـة بصـورة صحيحة ، كمـا ينظر اليـه الديـن ، بل الايفاء بمسـؤولياتـه السيـاسيـة ، والاقتصـاديـة ، والثقـافيـة ، والدفـاعية ، والتكاليف الاجتماعيـة الأخرى والتي أقرتها الشريعة السمحة، اذا لم نقل إنّ العبادات الفردية كذلك ممتزجة امتزاجاً كلياً مع الجوانب الاجتماعية والسياسية .

أن كل مسلـم متـديّن وملتـزم هـو في الحقيقة سيـاسي نبيه وحذر يسعـى دائماً، بالإدراك الدقيق والصحيح للمكـان والزمان، لهداية المجتمع البشـري الى القسط والعدل والصـــلاح وانقـاذه مـن عبـادة الأصنـــام والطاغوت والنجاة من قيود الهوى .

﴿ولتكن منكم امة يدعون الى الخير ويأمرون بالمعـروف وينهون عن المنكر واولئك هم المفلحون﴾[٣].

﴿ياايهـا الذين آمنـوا كونوا قـوامين بالقسـط شهداء لله ولـو على انفسكم او الوالدين والاقربين...﴾[٤].

ان اعـداء القـرآن يسعـون مـن خـلال عدائِهـم وحملاتهم الشيطـانية ومـن خلال الحيلة والخبث وباساليب مختلفة ان يوجهوا ضربـة الى الدين الحنيف متـى سنحت لهم الفرصة لذلك.

﴿قـال فبمـا اغويتنـي لاقعـدن لهم صـراطك المستقيـم ثم لآتينهـم من بيـن ايـديهم ومـن خلفهم وعن ايمـانهـم وعن شمائلهم ولاتجد اكثرهم شاكرين﴾[٥].

لاتـوجد فـي المجتمع الاسـلامی ايـة مسـؤليـة اهم واكثـر ضـرورةمن تقـويـة السلطـة، وإجراء قـوانين الاسلام علـى كل الأصعدة، وحماية الحـدود ومحاربة الفساد واستتباب الامـن والامر بالمعـروف والنهی عن المنكر والمواجهة الحقة والمستمرة ضد الجوانب الثقافية المخزية والتعريف بالاعداء فی الداخـل والخارج، ذلك ان الله سبحـانه لايسمح للغـرباء ان يتسلطـوا على مصيـر ومقدرات المسلمين.

﴿...ولن يجعل اللـه للكافـرين على المؤمنين سبيلاً﴾[٦].

يقول الامام الخمينی(قدس سره) مخاطباً رئيس جهاز المخابرات «الساواك»: لقد قال من خلال احاديثه«ايهـا السيد! ان السياسة هی عبـارة عـن الكذب، والخـداع والعـذاب! فدعوا ذلك لنا» فقلت له« تلك هی سياستكم!»

لقد تبددت لحسن الحظ وخصوصاً في الوقت الراهن كثير من بيوت العناكب للجهل وسوء الفهم التي نسجها وحوش العالم حول التعاليم النورانية للقرآن الكريم، وذلك بفضل العقل النيّر لحملة لواء التشيع والفداء من الرجال المؤمنين والبواسل واشاعوا احكام الاسلام لينير ثانية في عالم الكفر والالحاد. الا انه مازال اعداء الاسلام يأملون بكل الوسائل ان يجعلوا العلم موازياً للدين، والعقل خليفة للوحي، والشعوبية في مقابل المذهب، وابعاد الفقه عن الحكومة، وفصل الدين عن السياسة.

لقد ذكرت آيات كثيرة الجهاد ومحاربة الظلم والعدوان والدفاع عن حق المحرومين، وبينت كيفية مواجهة الكفار والمشركين والمنافقين، ووضع الانظمة الحقوقية والقضائية والاقتصادية والثقافية...مما يدل على ان القرآن لم يترك اية مسألة من المسائل الاجتماعية والسياسية في المجتمع الاسلامي دون جواب.

ان النبي الاكرم(ص) هو باني هذا الدين الحنيف وكانت بعهدته القيادة السياسية للمجتمع وادارة امور الناس، وعزل ونصب المسؤولين، وانتخاب السفراء واستقبال الموفدين السياسيين للاقاليم الاخرى، واعلان الحرب وعقد المعاهدات العسكرية، وتوقيع الاتفاقيات الخاصة بالصلح والتسوية، واقامة العلاقات التجارية والاقتصادية والثقافية، واستيفاء الاموال وتوزيعها حسب الحاجة على العامة، كل ذلك كان يجري تحت نظره ومباشرته هو.

يقول الامام الصادق(ع) يذكر الرسول(ص):

لقد ادّب الله سبحانه نبيه بالاخلاق الحسنة ولانه قد وصل الى حد الكمال فقد قال الله في حقه«انك لعلى خُلُق عظيم»فأتمنه على مصير الدين والدنيا حتى يسوس عباده ويقول الله تعالى في ذلك«وماآتاكم الرسول فخذوه ومانهاكم عنه فانتهوا»(٧).

وكانت حياة مولى المتقين الشريفة السامية مشحونة بالحوادث الكثيرة والاحداث السياسية والتي ذُكِر الكثير منها بصورة جلية في نهج البلاغة. وقد اعترف التاريخ مصرحاً كون ذلك الرجل الامام الهُمام كان القرآن الناطق والاسلام المجسّم ولم يبتعد لحظة واحدة في حياته المقدسة عن مسرح الاحداث السياسية ولم يُبدِ ايَّ

اختلاف فى موقفه تجاه الاحداث الاجتماعية ولم يطأطئ رأسه لايّ ظرف من ظروف الحياة.

يقول الامام الخميني(رض) في ما يتعلق بالرابطة الموجودة بين الدين والسياسة:

«لقد كان شغل الانبياء الشاغل هو السياسة والدين، تلك السياسة التى يتحرك الناس من خلالها وتهديهم الى كل ما فيه صلاح الفرد والمجتمع»[٨].

وقد بين آية الله العظمى الكلبايكاني (قدس سره) نظرته حول السياسة كما يلي:

«اننى اعلن ان ديننا هو الدين الاسلامى وان سياستنا هى سياسة اسلامية ولايمكن للمسلمين ان يبقوا منعزلين عن امور الدولة الاسلامية، فما بالك مع الفقهاء والمجتهدين والذين يمتلكون الزعامة الشرعية والتمثيل العام»[٩].

ويوضح المرحوم كاشف الغطاء امتزاج الدين مع السياسة كما يلي:

«اذا كانت السياسة هى العمل الصالح وخدمة المصلحة العامة وقيادة المجتمع وحفظه من الفساد والخيانة وتقديم النصائح للناس وتحذيرهم من الاستعمار فنعم نحن غارقون فيها وذلك هو واجبنا»[١٠].

وكان المرحوم المدرس يعتبر السياسة هى الدين والدين هو السياسة.

وفى جوابه على شارل ناورل ـ الكاتب الفرنسى ـ يقول آية الله الكاشاني:

«ليس فى الاسلام كما هو الحال فى المسيحية شيءٌ اسمه ترك الدنيا والرهبانية...فانى حين اتدخل فى السياسة فذلك واجبى»[١١].

ان سياسياً محنكاً اليوم يعلم جيداً اهداف السياسة الغربية وان هذه السياسة بدأت العدّ التنازلى لسقوطها واندحارها كما بينا ذلك فى مسألة المعسكر الشرقى سابقاً ويتضح لنا ان الدين الاسلامي وحده قادر على التحرك والبقاء والتفاعل مع العوامل الاخرى فى وقت خلا من الايديولوجية الصحيحة شريطة ان يلتزم رجال السياسة المسلمون بواجبهم الدينى بذكاء وحنكة وان يضعوا نصائح واوامر امير المؤمنين(ع) نصب اعينهم حيث يقول: اوصيكم بتقوى الله ونظم امركم...

الهوامش:

(١) اصول السياسة الاسلامية فى كتاب بعنوان(الدين السياسى والسياسة الدينية) لكاتب المقالة قيد التاليف حيث سينشر قريباً بعون الله.

(٢) آل عمران: ٢٦.

(٣) آل عمران:١٠٤.

(٤) النساء: ١٣٥.

(٥) الاعراف: ١٦ـ ١٧.

(٦) النساء: ١٤١.

(٧) تفسير نور الثقلين

(٨) الرسالة الجديدة: ج٤ص٧٠

(٩) مجلة التعزية: ٢٩

(١٠)ملحمة الفتوى:٥.

(١١) المصدر السابق:٥.

* * *

الصيام وفروضه

السيد حسين الطباطبائي اليزدي

قوله تعالى: ﴿يا أيّها الذين آمنوا كُتب عليكم الصيام كما كتب على الذين من قبلكم لعلّكم تتقون﴾[1].

التفسير

ثمّ أنّه تعالى شأنه بيّن فريضة الصوم بقوله: ﴿يا أيّها الذين آمنوا كتب عليكم الصيام﴾ لما كان الصيام رياضةً روحيّةً، وعملاً سلبياً للنفس وتربيةً للإرادة، وتعويداً للصبر، وتحمُّلاً للمشاق، وهو شديد على النفس أن تحرم مما في يدها وتحت قدرتها، فلذا نرى أنّه تعالى شأنه يتلطّف في الأمر به، إذ ناداهم بوصف الإيمان.

وفي مجمع البيان[2] روي عن الصادق ـ عليه السلام ـ أنّه قال: «لذّة ما في النداء أزال تعب العبادة والعناء».

وعن الحسن: «إذا سمعت الله عزّوجلّ يقول: ﴿يا أيّها الذين آمنوا﴾ فارع لها سمعك فإنّها لأمر تؤمر به أو لنهي تنهى عنه». ﴿كما كتب على الذين من قبلكم﴾ أي فرض عليكم كما فرض على من قبلكم من الأنبياء والأمم، فاقبلوه كما قبله غيركم، والتشبيه باعتبار أن كلّ أحد له صوم أيّام، أي أنتم متعبّدون بالصيام في أيّام، كما تعبد من كان قبلكم.

وفي آلاء الرحمن: (فقد دلّت الآثار على أنّه مختلف بحسب الشرائع في الحدود والوقت، ففي رواية العلل عن الإمام الحسن المجتبى ـ عليه السلام ـ عن جدّه(ص): «إنّ الصوم على الأمم كان أكثر ممّا هو على المسلمين في شهر رمضان». وفي رواية الفقيه عن حفص بن غيّاث عن الصادق ـ عليه السلام ـ: «إنّ صوم شهر لم يفرض على الأمم قبلنا، إنّما فرض على الأنبياء».

وقد اختلفت روايات الجمهور في هذا المقام.

ثمّ أنّه لمّا كان مطهراً للنفس، ومرضاة للرب فرضه عليكم: ﴿لعلّكم تتقون﴾ المعاصي، وذلك لأنّ الصوم من موجبات التقوى وبه تتربى العزيمة والإرادة على ضبط النفس وترك الشهوات المحرّمة والصبر عنها.

وقد روي: «الصيام نصف الصبر»، كما روي عن النبي(ص) أنّه قال: «خصاء أمتي الصوم»[3] كما في مجمع البيان[4]:

(وفيه): وسأل هشام بن الحكم أبا عبدالله ـ عليه السلام ـ عن علّة الصيام فقال: «إنّما فرض الصيام ليستوي به الغنيّ والفقير، وذلك لأنّ الغني لم يكن ليجد مس الجوع فيرحم الفقير، فأراد الله سبحانه أن يذيق الغني من الجوع ليرقّ على الضعيف ويرحم الجائع».

الحكم

وفيه مسائل:

(المسألة الأولى): في معنى الصوم وتعريفه شرعاً، وهو الإمساك عن المفطرات مع النيّة، وهو القصد إليه مع القربة والإخلاص كما في سائر العبادات، ويعتبر فيما عدا شهر رمضان حتّى الواجب المعيّن القصد إلى نوعه، ولا فرق بين الصوم الواجب والندب، والزمان الذي يصحّ فيه الصوم هو النهار من غير العيدين، ومبدأه طلوع الفجر الثاني، ووقت الإفطار ذهاب الحمرة من المشرق، ويجب الإمساك من باب المقدّمة في جزء من الليل في كل من الطرفين ليحصل العلم بإمساك تمام النهار، هذا ما صرّح به سيّدنا الجدّ ـ قدّس سرّه ـ في العروة الوثقى، وهو المشهور بين علماء الإماميّة قدّس الله أسرارهم.

وأمّا تعريفه عند الجمهور، ففي كتاب الفقه على المذاهب الأربعة[5] الصوم شرعاً: هو الإمساك عن المفطرات يوماً كاملاً من طلوع الفجر إلى غروب الشمس، والشافعيّة والمالكيّة زادوا في التعريف (مع النيّة) لأنّها عندهم ركن.

(المسألة الثانية): في قوله تعالى: ﴿يا أيّها الذين آمنوا كتب عليكم الصيام﴾ لا إشكال أنّ صريح الآية دالة على وجوب الصوم، بلا خلاف فيه، وكذا قوله تعالى: ﴿فمن شهد منكم الشهر فليصمه﴾ كما سيأتي. وعلى وجوبه إجماع المسلمين بجميع فرقهم ومذاهبهم، ولايخالف في ذلك أحد من المسلمين.

وفي العروة الوثقى: ووجوبه في شهر رمضان من ضروريّات الدين ومنكره مرتدّ يجب قتله، ومن أفطر فيه مستحلاً عالماً عامداً، يعزّر بخمسة وعشرين سوطاً، فإن عاد عزّر ثانياً، فإن عاد قتل على الأقوى، وإن كان الأحوط قتله في الرابعة، وإنّما يقتل في الثالة أو الرابعة، إذا عزّر في كلّ من المرتين أو الثلاث، وإذا ادّعى شبهة محتملة في حقّه درئ عنه الحد.

وفي الفقه على المذاهب الأربعة[٦]: فقد اتّفقت الأمّة على فرضيته ولم يخالف فيها أحد من المسلمين فهي معلومة من الدين بالضرورة، ومنكرها كافر كمنكر فريضة الصلاة والزكاة والحجّ.

وهناك أخبار تدلّ على أنّ منكرها خارج عن ربقة الإسلام، وأنّ الإسلام بني عليه:

(منها) ما رواه الشيخ ـ قدّس سرّه ـ في التهذيب [٧] بإسناده عن زرارة عن أبي جعفر ـ عليه السلام ـ قال بني الإسلام على خمسة أشياء: على الصلاة والزكاة والصوم الحجّ والولاية، قال رسول الله(ص): «الصوم جنّة من النار».

(ومنها) ما رواه المحدّث الكاشاني ـ قدّس سرّه ـ في الوافي [٨] عن الكافي بإسناده عن الفضيل عن أبي جعفر ـ عليه السلام ـ قال بني الإسلام على خمس: الصلاة والزكاة والصوم والحجّ». والولاية.

(ومنها) ما رواه القرطبي في تفسيره[٩] عن ابن عمر، قال(ص): «بني الإسلام على خمس شهادة أنّ لا إله إلاّ الله وأن محمّداً رسول الله وإقامة الصلاة وإيتاء الزكاة وصوم رمضان والحجّ. إلى غير ذلك من الأخبار الكثيرة بهذا المضمون.

(المسالة الثالثة): في أقسام الصوم وهي أربعة، واجب ومندوب ومكروه وحرام.

أمّا الواجب منها ثمانية:

(الأوّل) صوم شهر رمضان.

(الثاني) صوم القضاء.

(الثالث) صوم الكفّا رة بأقسامها وعلى كثرتها.

(الرابع) صوم بدل الهدي في الحجّ.

(الخامس) صوم النذر وشبهه.

(السادس) صوم الإجارة ونحوها.

(السابع) صوم الثالث من أيام الاعتكاف.

(الثامن) صوم الولد الأكبر عن أحد أبويه.

وأمّا المندوب، فجميع أيّام السنة إلا المنهي عنه، ويتأكّد الاستحباب أيّام، مثل يوم الغدير، ويم المبعث وغيرهما ممّا ذكر في الكتب الفقهيّة.

وأمّا المكروه، بمعنى قلّة الثواب: (منها) صوم عاشوراء، (ومنها) صوم عرفة لمن خاف أن يضعفه عن الدعاء، أو مع الشك في هلال أوّل ذي الحجّة خوفاً من ان يكون يوم العيد، (ومنها) صوم الولد بدون اذن الوالدين، وسيأتي أنّه يحرم إذا كان فيه إيذاء الوالدين، (ومنها) صوم الضيف إذا كان بدون إذن مضيّفه.

وأمّا المحرّم منها فاثنا عشر:

(الأوّل) صوم العيدين الفطر والأضحى. (الثاني) صوم أيّام التشريق لمن كان بمنى. (الثالث) صوم يوم الشكّ بنيّة أنّه من رمضان. (الرابع) صوم وفاء نذر المعصية. (الخامس) صوم الصمت.

(السادس) صم الوصل. (السابع) صوم الزوجة مع المزاحمة لحقّ الزوج. (الثامن) صوم الولد مع كونه موجباً لتألّم الوالدين واذيتهما. (التاسع) صوم المملوك مع المزاحمة لحقّ المولى. (العاشر) صوم المريض ومن كان يضرّه الصوم. (الحادي عشر) صوم المسافر إلاّ في صورة المستثنيات. (الثاني عشر) صوم الدهر حتى العيدين.

وهذه الأقسام هي المشهورة بين أصحابنا الإماميّة قدّس الله أسرارهم.

وأمّا الجمهور، فكذا لا خلاف بينهم في تحريم صوم يوم العيدين إلا أنّ الحنفيّة قالوا: صوم يوم العيدين وثلاثة أيّام التشريق مكروه تحريماً إلا في الحجّ. وكذا الحنابلة قالوا بحرمته إلا في الحج للمتمتع والقارن، وأمّا الشافعيّة والمالكيّة قالوا: بتحريمه مطلقاً، لكن المالكيّة قالوا: بجواز صوم اليومين بعد العيد للمتمتع والقارن، كما في كتاب الفقه على المذاهب الأربعة.[10]

فائدة

في قوله تعالى: ﴿يا أيّها الذين آمنوا﴾ تنبيه على أنّ تعلّق الحكم لايكون إلا بالمؤمنين، لأنّ العبادة لا تصلح إلا منهم، ووجوبه عليهم بهذه الآية لا ينافي وجوبه على غيرهم، بدليل آخر من الكتاب أو السنّة.

وكذا يستفاد من الآية الشريفة، أنّ الحكم تعلّق بالمكلف لأنّ الإيمان عبارة عن التصديق والإذعان بالوعد والوعيد المتوقّف على تصوّر الأطراف وذلك لا يحصل إلا من البالغ والعاقل، فيخرج الصبي والمجنون ونحوهما.

وفي قوله تعالى: ﴿لعلّكم تتقون﴾ إشارة إلى أن التكاليف السمعيّة ألطاف مقرّبة إلى الطاعات واجتناب عن كثير من المعاصي، كما في قوله تعالى: ﴿إنّ الصلاة تنهى عن الفحشاء والمنكر﴾ وفيها أيضاً منافع دنيوية كما تقدّم في قوله تعالى: ﴿ولكم في القصاص حياة﴾ وقد ورد في الأخبار في بيان علل تحريم المحرّمات منافع شتّى، كما في قلائد الدرر.

الهوامش:

(١) البقرة: ١٨٣.

(٢) ٢: ٢٧١.

(٣) و(٤) ٢: ٢٧٢.

(٥) قسم العبادات ـ كتاب الصوم ـ: ٤٣٦.

(٦) نفس المصدر المتقدّم: ٤٢٧.

(٧) ١: ٣٦١.

(٨) كتاب الكفر والإيمان ١: ٢٧٨.

(٩) ٢: ٢٧٢.

(١٠) قسم العبادات ١: ٤٣٨.

الانحراف الاجتماعي ومعالجته على ضوء النظريّة القرآنيّة

د. زهير الأعرجي



النظرالقرآنيـة في معالجة الانحراف الاجتماعي:

ربّما يعزى نجاح النظريّة القرآنية في تحليلها ومعالجتها الاجتماعيّة المعاصرة كنظريات (الانتقال الانحرافي)، و(القصر الاجتماعي)، و(الضبط الاجتماعي)، و(الالصاق الاجتماعي) التي سنتناولها بالنقد لاحقاً بإذن الله. وهذه الأسباب هي:

الأوّل: العدالة الاجتماعية والاقتصادية التي جاء بها الإسلام وحاول تطبيقها على الأفراد.

الثاني: العقوبة الصارمة ضدّ المنحرفين كالقصاص والديّة والتعزير.

الثالث: المساواة التامّة بين جميع الافراد أمام القضاء والشريعة في قضايا العقوبة والتأديب والتعويض.

الرابع: المشاركة الجماعية في دفع ثمن الجريمة والانحراف كإلزام عاقلة المنحرف دفع ديّة القتيل عن طريق الخطأ، ودفع دية القتيل الذي لايعرف قاتله من بيت المال.

فعلى الصعيد الأوّل، نادى الإسلام بالعدالة الاجتماعيّة واعتبرها الأساس في بناء المجتمع السليم من الإنحرافات الشخصيّة، القائمة على الأساس الاقتصادي أو السياسي، كالغصب والسرقة والاعتداء على حقوق الآخرين. وقد فصّلنا القول في ذلك في الفصل الأوّل.

وعلى الصعيد الثاني، فإنّ ديناً متكاملاً كالإسلام لابدّ وأن يطرح للإنسانيّة المعذّبة نظاماً يعالج فيه مختلف زوايا الانحراف، ويحلّل من خلاله، بكلّ دقّة دوافع الجريمة في المجتمع الإنساني، ويشرّع على ضوء

ذلك أحكاماً صارمة لقلع منشأ الانحراف من جذوره الثابتة في عمق النفس البشريّة لأنّ الخالق عزّوجلّ ادرى بالنفس الإنسانية التي صمّمها وأنشأها **﴿ونفس وما سوّاها فألهمها فجورها وتقواها﴾**(1).

فمن أجل مكافحة الجريمة وتعويض الضحيّة، صنّف النظام الإسلامي العقوبات إلى قسمين هما: العقوبات الأدبية والعقوبات المادّية.

فالعقوبات الأدبيّة تشمل جانبين،

الأوّل: الحدود، وهي العقوبات المقدّرة في الكتاب والسنّة، بمعنى أنّ الشارع لم يسمح للقاضي الشرعي في التصرّف في أمر تقديرها، كالقصاص في جرائم القتل والقطع والجرح، كما أشار قوله تعالى إلى ذلك: **﴿ولكم في القصاص حياة يا أولى الألباب﴾**(2). وعقوبات الزنا، واللواط، والسحاق، والقيادة، والقذف، والسرقة، والسكر، والارتداد، وقطع الطريق.

الثاني: التعزيرات، وهي العقوبات التي فوّض أمر تقديرها وتحديدها لنظر الحاكم الشرعي، فيعاقب عليها بما يراه مناسباً، كعقوبة التزوير والغيبة ونحوها.

والعقوبات المادّية، وهي الديّات، أو المال الواجب دفعه بسبب الجناية على النفس أو مادونها **﴿وما كان لمؤمن أن يقتل مؤمناً إلاّ خطأً، ومن قتل مؤمنا خطأً فتحريرُ رقبةٍ مؤمنةٍ وديةٌ مسلّمةٌ إلى أهله إلاّ أن يصّدّقوا﴾**(3). وتشمل حانبين أيضاً، وهما:

أوّلاً: الديات المقدّردة على لسان الشارع، كديّة النفس والأعضاء.

ثانياً: الديات التي فوّض أمر تقديرها إلى الحكومة، أو الخبراء الموثوق بهم.

وبالإجمال، فإنّ الإسلام صنّف الانحراف إلى أربعة أصناف، وهي:

1ـ جرائم الاعتداء على النفس البشريّة وما دونها وفيها القصاص أو الدية مع الشروط.

2ـ جرائم ضد الملكية وفيها القطع، والمقاصّة، ووجوب رد المغصوب.

3ـ الجرائم الخلقيّة، وفيها الرجم والقتل والجلد.

4ـ جرائم ضد النظام الاجتماعي، كالمحاربة والاحتكار ونحوها وفيها التعزير أو الغرامة. وواجب في الديّات غير المقدّرة شرعاً الأرش أو الحكومة.

وهده الأحكام الشرعيّة هدفها الردع أكثر من الانتقام، حتّى أنّ القصاص الذي يبدو ظاهراً، قضيّة انتقاميّة يؤدّي في الواقع دوراً أساسياً في ردع الانحراف وتأديب

المنحرفين، فـإنزال الأذى المماثل بـالجاني أمضى تأثيراً من عقوبة السجـن، التي آمن بها النظام القضائي الغربي. والسارق الذي تؤدّبه الشـريعة الإسلامية بقطـع يده يعتبر أكثـر إنتـاجاً مـن السارق الـذي يقبـع في سجون الأنظمـة الرأسمالية سنـوات معطِّلاً طـاقتهُ الانتـاجية ومستهلِكـاً مواردَ النظـام الاجتماعي. وما أن يخرج إلـى أجواء الحرّية مرّة أخرى حتّى يرتكب انحرافاً مماثلاً لذلك الذي أدخله السجن أوّل مرّة.

وعلى الصعيـد الثـالـث، فإنّ الإسـلام نـادى بالمسـاواة بين الأفـراد في العقوبـة والتعـويض. فالسـارق مع تـوفّر الشـروط يقطـع حتّى لـو كـان يشغل أعلـى وظيفـة سياسيّـة في الدولـة، لإطلاق الآية الكـريمة ﴿والسـارق والسـارقـة فـاقطعـوا أيديهما﴾[4]، وعدم تخصيصـه بفئة معيّنـة من السرّاق مثلاً. والزانـي مع توفّر الشروط يقام عليـه الحدّ كائناً مـن كان. ولا يستثنى أحد لسبب طبقي أو وراثي من إقامة الحدود الشرعيّـة. وهنا يكمـن الفرق بين النظـامين التشـريعي الإسـلامي ؟القضـائي الغـربي الرأسمـالي. ففي حين يفلت مجرمـو الطبقة الرأسمـاليه من قبضـة العقاب، بـاعتبار أنّ العقاب المعنـوي لأفراد الطبقـة العليا أشـدّ إيلاماً من العقاب المبـدئي، يصون التشريعُ الإسـلاميُّ النظام القضائيَّ من عبث الأصابع البشـريّـة التي يـدفعهـا الهـوى والطمـوح الشخصي. وبعـد أربعـة عشـر قـرنـاً مـن الـزمـان، لم يستطع مقنِّـن واحد، أيّـاً كـان مـذهبـه، من تغييـر حكم القـرآن فـي قطع السارق أو قتل القاتل المتعمّد أو جلد الزانية والزاني.

ولاشـك أنّ الأفـراد جميعـاً بمختلـف الوانهم وهيئاتهم متسـاوون أمام الشارع، فـالأسـود والأبيـض والأصفـر سـواسيـة كالمشط فـي مثولهم أمام الحاكـم الشرعي وإنـزال العقاب بهـم، أو تبـرئتهم. ﴿إنّ الله يـامـر بـالعـدل والإحسـان ...﴾[5]، ﴿وأقسطـوا إنّ الله يحبّ المقسطيـن﴾[6]. بل إنّ الشارع يعاقب مـن يميّز على أساس اللون، أو يتعدّى حدود القصاص، ويلزمهم بدفع مقدار التعدّي.

ولابـد أن نـذكـر هنـا، أنّ النظـريّـة الإسـلامية قـد ميّـزت الانحراف بـأنواعـه وطـرقه المتعـدّدة، واعتبـرت فيه الأسبـاب الموجبة. فأخـذت الاضطراب العقلي، وعدم البلوغ مثلاً، بعين الاعتبـار في إنشاء الحكم على القـاتل. وميّـزت بين قتل العمـد، وقتل الخطأ، والقتل الشبيـه بالخطأ وافـردت لكل واحد منهما حكماً خـاصّاً. واعطت الشريعة للأحداث والصبيان فـرصة لعلاج انحرافهم

بدل إنزال العقاب بهم.

وعلى الصعيد الرابع، فإنّ الإسلام شجّع المشاركة الجماعيّة في دفع الانحراف بطرق عديدة منها:

أوّلاً: إنّ وليّ الأمر مسؤول شرعاً عن دفع الدية اذا ارتكب من يتولّاه انحرافاً يستوجب دفع تلك الغرامة.

ثانياً: إنّ العلاقة الأسرية التي أكد عليها الإسلام تساهم من خلال التعاون والتآزر على إصلاح الفرد المنحرف في الأسرة.

ثالثاً: العاقلة، وهم العصبة من قرابة الأب كالأخوة والأعمام وأولادهم، التي تتحمّل دية القتل الخطأ، ودية الجناية على الأطراف ونحوها.

والمدار في كلّ ذلك أنّ الفرد في المجتمع الإسلامي لايعيش منعزلاً عن الرابطة الاجتماعية، فالأفراد ملزمون بالتعاون فيما بينهم لدرء الانحراف الاجتماعي. لأنّ ذلك الانحراف اذا لم يكلّفهم نفساً بشريّة أو أذى يعتد به فإنّه يكلّفهم أموالاً تفرض عليهم في باب العاقلة. وهم بذلك ملزمون أخلاقيّاً بإرشاد وإصلاح ذويهم ودرء خطر الانحراف فيهم.

الانحرافات الاجتماعية الرئيسة وأساليب معالجتها:

لاشكّ أنّ الانحرافات التي فصّلتها الشريعة واوجبت فيها العقوبات الأدبيّة والماديّة، تأخذ مجريين شرعيين:

الأوّل: ما يستدعي ارتكابها التعدّي على حقوق الله سبحانه وتعالى، وهي الزنا واللواط وشرب المسكر، لأنّها تعدّ مخالفة لأمر الله، ولايجوز العفو فيها بعد قيام البيّنة وثبوت الحدّ.

والثاني: ما يستدعي ارتكابها التعدّي على حقوق الله وحقوق الفرد معاً، كالقذف والسرقة والقتل، لأنّ فيها جهة شخصيّة متضرّرة، فيتوقّف إقامة الحدّ على المطالبة من المتضرّر أو من يرثه.

ويجوز للحاكم الشرعي إقامة الحدّ فيما يتعلّق بحقوق الله بمجرّد علمه، ولكنّه لايستطيع القيام بذلك فيما يتعلّق بحقوق الناس كالسرقة والقذف.

١ـ جرائم الاعتداء على النفس الإنسانية وما دونها:

وهي جرائم القتل والجراح والشجاج وإسقاط الجنين، وقد أوجب فيها الإسلام القصاص، أو دفع الدية. وأوجب كفّارة القتل في مواضع معيّنة، وأباح للمعتدي عليه

الدفاع عن نفسه في كلّ الاحوال.

فالقِصاص، وهو من اقتفاء الأثر لغةً[٧]. كما في قوله تعالى **﴿وقالت لاخته قصيّه...﴾**، وشرعاً هو وجوب المماثلة في القتل والقطع بشروطها الشرعيّة، يعتبر من أقصر الطرق إلى تحقيق العدالة الاجتماعيّة **﴿فمن اعتدى عليكم فاعتدوا عليه بمثل ما اعتدى عليكم﴾**[٨]. **﴿وكتبنا عليهم فيها أنّ النفس بالنفس والعين بالعين والأنف بالأنف والأذن بالأذن والسنّ بالسنّ والجروح قصاص فمن تصدّق به فهو كفّارة له ومن لم يحكم بما أنزل الله فاولئك هم الظالمون﴾**[٩]. ففي حين يعلن الإسلام بكلّ قوة وجوب المماثلة. في القصاص، يقوم النظام الغربي في تشريعه لعقوبة الانحراف، بفرض القيود على حرّية المجرم عن طريق السجن أو العلاج الطبّي أو خدمة مؤسسات الإدارة المحلّية، أو بتعويض الضحيّة ماليّاً. وهذه الأساليب لاتبعد المنحرف عن انحرافه ولا تقدّم للضحيّة مثالاً واقعيّاً لمعاقبة الجاني، بل تربك النظام الاجتماعي وتستهلك موارده الماليّة، لأنّ السجن والطبّ النفسي اثبتا فشلهما في علاج المنحرف علاجاً حقيقيّاً[١٠].

وقد ذهب أكثر الفقهاء إلى أنّ القاتل المتعمّد لو مات قبل الاقتصاص منه، أخذت الدية من ماله اذا كان له مال، أو من مال أرحامه اذا لم يكن له مال، لقوله تعالى: **﴿فقد جعلنا لوليّه سلطاناً﴾**[١١]. ولما ورد عن الإمام الصادق(ع) عندما سئل عن هروب القاتل، فقال: «إن كان له مال أخذت الدية من ماله وإلاّ فمن الأقرب فالأقرب فإن لم يكن له قرابة أدّاه الإمام فإنّه لايبطل دم إمرئ مسلم»[١٢].

ولاشكّ أنّ القرآن ضمن إطاره الأخلاقي العام، مع تأكيده على القصاص أو المماثلة عيناً بعين وسنّاً بسن . . .، إلاّ أنّه في نفس الوقت يحبّب لأولياء المقتول العفو عن القاتل **﴿فمن تصدّق خيراً فهو كفّارةٌ له﴾**[١٣]، **﴿وجزاءُ سيئة سيئة مثلها فمن عفا وأصلح فاجره على الله﴾**[١٤].

أمّا الدية، فإنّ الأصل في وجوبها قوله تعالى: **﴿وما كان لمؤمن أن يقتل مؤمناً إلاّ خطأً ومن قتل مؤمناً خطأً فتحريرُ رقبةٍ مؤمنةٍ ودِيةٌ مسلّمةٌ إلى أهله إلاّ أن يصّدّقوا فإنّ كان من قوم عدوٌ لكم وهو مؤمنٌ فتحريرُ رقبةٍ مؤمنةٍ وإن كان من قوم بينكم وبينهم ميثاق فديةٌ مسلّمةٌ إلى أهله وتحريرُ رقبةٍ مؤمنة فمن لم يجد فصيامُ شهرين متتابعين توبةً من الله وكان الله عليماً حكيماً﴾**[١٥]. ولاشكّ أنّ

الديـة عامـل من عوامـل التعويض المـالي المختصّ بجـرائم قتل الخطـأ وشبه العمـد، فإنّهمـا يـوجبـان الـديـة دون القصـاص، وبالتراضـي بين الطرفين فيما عدا ذلك. وفي الضرب الـذي لا يجرح ولكنّه يولّـد احمراراً ونحـوه الأرش أو الحكـومـة، وفي الضـرب الذي يسبّب الألم فقط، التعزير. وتتعيّن دية المقتـول عمداً فـي حالات استثنـائيّـة فقط منها، فوات المحل كموت القاتل ونحوه.

والديـة المقدّرة شرعـاً في قتل المسلم الذكر عمـداً ألف دينار، وهو مـا يعادل أكثر من ٣،٥ كيلوغرام ذهباً، او مـا قدّر شرعاً من الشيـاه والإبل والأبقـار والحلـل والفضّـة. وهذه الكمّية مـن المال كافية لإغنـاء العائلة المفجوعـة بفقد معيلهـا، حتى لا تمُدّ يـدها لاستعطاء النـاس. فيضمن القاتل الـدية إذا قصد القتل أو الفعل الذي يؤدي إليه.

ولـم يتـوقّف دفـع الـديـة على القتـل فحسب، بل تعدّى إلى تلف الأعضاء كالعين والأنف والشفة واللسان والأسنان ونحوها، وتلف المنـافـع كـالعقل والسمـع والبصـر والشمّ والنطق ونحـوه، والجراح المختصّـة بـالـرأس والوجـه كـالحـارصة والـداميـة والباضعة والسمحاق والموضحة والهاشمة والمنقـولة والمأمـومة ونحوهـا. وفي غيـر ذلك يتعيّن الأرش الذي تقدّره الحكومة.

وبطبيعـة الحـال فـإنّ تقـديـر قيمـة الضمـان، فـي النظـام الإسـلامـي، تخـدم المجتمع عن طريق عـاملين، الأوّل: تعويض الضحيّـة أو أسرتـه تعويضـاً مـالياً يسـدّ حـاجـاتهم الأسـاسيّـة التـي حـرمـوا من إشبعـاعهـا بفقدان المعيـل. والثـاني: ردع الانحـراف الاجتماعي، بـإبلاغ المنحـرفين علناً بأنّ انحرافهم لا يمـرّ دون ثمن باهض يدفعونه لصالح الضحيّة وفي الآخر لصالح النظام الاجتماعي.

ولاشكّ أنّ إشراك العاقلة في دفع الديّة، وإشراك القسامة في التحليـف حالة اللوث، تعتبران من أهمّ العوامل الـرادعة للانحراف الاجتماعي. لأنّ الفرد، لكونه كائناً اجتماعياً، يرتبـط بعشيرتـه ومحلّته وقـريته بـروابط الـزواج والأخـوّة والأســريـة والمصلحـة الاجتماعيّـة. وهذه الروابط تقلّـل من فرص زيغه عـن النظام الاجتماعي العـام، وتجعل الجريمـة التي يرتكبهـا فضيحة اجتمـاعيّة تجلب عليه وعلى أسرته وعشيرته وصمة لا تمحو آثارها السنون، أمّـا إذا كانت الجناية خطأً فإنّ مشـاركة العصبة أو العشيـرة في تسديد ثمنها المالي، يعتبر بمثابة المشاركة الجماعيّـة في مساعـدة العائلة المفجـوعة، وتقـويتهـا أمـام المحـن والمصـاعـب الاقتصـاديّة القادمة.

وتكمن أهمّية العاقلة في المشاركة في دفع دية الخطأ بما يلي:

١ـ إنّ مساهمة العاقلة في دفع ديّة الخطأ يخفّف من تحمّل الفرد كاهل دفع تلك الدية وحدَه، وهو مبلغ هائل، كما هو واضح.

٢ـ إنّ مساهمة العاقلة في دفع الدية يساهم في تقوية العلاقات والأواصر الاجتماعيّة بين أبناء العشيرة الواحدة ويجعلها تقف متّحدة في المحن والمصائب التي يتعرّض لها أفرادها.

٣ـ إنّ جمع مبلغ الدية عن طريق العاقلة يخفّف من العبء الذي تتحمّله عائلة المجنى عليه، خصوصاً اذا عجز الجاني عن تسديد ذلك المبلغ، فتصبح العائلة المفجوعة ضحيّة لجريمة اقتصاديّة ومعاشيّة خارجة عن إرادتها. فتكون العاقلة عندئذ وسيلة ضمان لاستلام الديّة.

نقطة مهمّة أخرى نودّ أن نعرضها هنا، وهي أنّ القيمومة الشرعيّة على الأسرة هو المقياس في مقدار الديّة، وليس تفضيل جنس على جنس كما يدّعيه أعداء النظريّة الدينيّة. فدية قتل الذكر المسلم عمداً الف دينار ذهب أو نحوه، ودية المرأة الحرّة المسلمة على النصف من أصناف الديّات الست، سواءاً كانت الجناية عليها عمداً أو خطأ أو شبه عمد، صغيرةً كانت او كبيرة، عاقلة كانت أو مصابة بالاضطراب العقلي (الجنون). وكذلك الجراح والقطع والشجاج فإنّه يتساوى مع الرجل قصاصاً ودية إلى حد الثلث، فإن زاد عن الثلث رجعت ديتها على النصف من الرجل. ولا شكّ أنّ مقادير هذه الديّات لم توضع لتقدير قيمة المرأة، فيكون مقدارها نصف قيمة الرجل مثلاً. بل إنّ الإسلام أراد منها معالجة وضع ما بعد الجريمة. فالرجل المقتول الذي يفترض فيه أن يكون معيلاً لعائلة ما، تذهب ديته إلى عائلته التي افتقدت المعيل، فيكون الدخل المقدّر بألف دينار ذهب أو نحوه ضمان لنفقات العائلة المعيشيّة. أمّا المرأة المقتولة، فإنّ ديتها المقدّرة بنصف دية الرجل تدخل وارد الرجل الذي يفترض فيه أن يكون قيّماً على عائلته، زوجةً كانت المجنيُّ عليها أو أختاً أو بنتاً. ودليل آخر على مساواة الإسلام للمرأة والرجل في نظام العقوبات، هو أنّ حدّ القذف وحد المسكر وهو ثمانون جلدة يتساوى فيه القاذف والشارب، ذكراً كان أم أنثى.

أمّا فيما يتعلّق بالإجهاض أو الإسقاط المتعمّد للجنين، فإنّ النظام الإسلامي شرّع أدقّ العقوبات الخاصّة بهذه الانحرافات، فقسّمت ديّتها بحسب عمر الجنين، ففي النطفة المستقرّة في الرحم عشرون ديناراً،

وفي العلقة أربعون، وفي المضغة ستّون، وفي العظم ثمانون، وفي الجنين التامّ الذي لم تلجه الروح مئة دينار، وفي الجنين الذي ولجته الروح ديّة كاملة[16]. وهذا الحكم الشرعي يرجع بالتأكيد إلى أصالة قوله تعالى في خلق الإنسان: **﴿ولقد خلقنا الإنسان من سلالة من طين ثمّ جعلناه نطفة في قرار مكين ثمّ خلقنا النطفة علقة فخلقنا العلقة مضغة فخلقنا المضغة عظاماً فكسونا العظام لحماً ثمّ أنشأناه خلقاً آخر فتبارك الله أحسن الخالقين﴾**[17].

وفي حين حلّ الإسلام مشكلة الإجهاض من الصميم قبل نشوء الثورة الصناعيّة بقرون، إلاّ أنّ قضاة النظام الرأسمالي الغربي يحاولون لحدّ اليوم الإجابة عن السؤال الذي يناقش أحقّية المرأة في الإجهاض، فمنذ تشريع المحكمة العليا الأمريكيّة سنة ١٩٧٣م القاضي بشرعيّة الإجهاض في قضيّة (جين رو ضدّ هنري ويد)، والقانون يتبدّل بين شدّ وجذب، وجواز وحرمة. وكلّما تبدّلَ عضو من أعضاء المحكمة العليا تبدّلَ القانون الخاصّ بالإجهاض. وهذا الاضطراب دليل قوي على فشل النظام الاجتماعي الغربي في معالجة مشاكل قضائيّة خطيرة عالجها الإسلام بكلّ دقّة قبل أربعة عشر قرناً من الزمان.

٢ـ جرائم ضد الملكيّة:

ولاريب أنّ النظريّة الإسلامية الخاصّة بالعقوبات الجنائيّة تنظر إلى الجرائم المتعلّقة بالملكيّة نظرة خاصّة وترتب عليها عقوبات صارمة. لأنّ ضمان سلامة حقوق الناس من تعدّي الآخرين تعتبر من أهمّ أسباب استقرار النظام الاجتماعي وتطوّره الاقتصادي. ولاشكّ أنّ الإقرار بأحكام اليد ودلالتها على الملكيّة، تضع للمجتمع الإنسان الحدود العامّة لانتقال الملكيّة، ودوران المال بين أفراد النظام الاجتماعي، عيناً كان ذلك المال أو نقداً، منقولاً كان أو غير منقول، ولولاها لاضطرب النظام الاقتصادي والاجتماعي، وانعدام البيع والشراء الذي هو الأصل في سدّ حاجات الناس الاستهلاكيّة والكمالية. ولذلك فإنّ إقرار الإسلام لهذا الأصل وربطه بالصدق العرفي ينسجم مع الطبيعة الفطرية للتعامل الاجتماعي وتنظيم سلوك الأفراد.

وتنقسم الجرائم المتعلّقة بالملكيّة الى قسمين:

القسم الأوّل: الانحرافات التي تؤدّي الى سلب الملكيّة من مالكها قهراً وظلماً كالغصب ويتحقّق بصدق الاستيلاء عرفاً على حقّ الغير. وقد شدّد الإسلام على حرمة غصب أموال الناس. وحرّم التصرّف

بالمـال مطلقاً إلا مع العلم بـالإذن الشرعي، لقولـه تعالى: ﴿ولا تأكلوا أمـوالكم بينكم بالباطل﴾[18]، وعمـوم قولـه(ص): «لايحلّ مال امرئ مسلم إلاّ عـن طيب نفس منه»[19]، وقـوله(ص) أيضـاً: «مـن غصب شبـراً من الأرض طوّقه من سبع أرضين»[20].

إنّ حـرمة الغصب تتعـدّى من مجـرّد الإثم إلى وجوب الردّ على الغاصب وضمانه تلف المادّة المغصـوبة. فالغـاصب، حسب النظريّة الإسلامية، يتحمّـل مسؤوليّة كاملة في إرجاع المـادّة المغصوبة سليمـة من كلّ عيب، بل يتعيّـن عليه وجوب الـردّ فوراً دون تأخير. بينمـا لايتحقّق الضمان ولا الفـوريّة في قانون العقوبات الرأسمالي الغربي.

ولاشكّ أنّ المبـاشـرة أو التسبيـب أو اجتمـاعهمـا فـي تلف المغصـوب تـوجـب الضمان بأيّ حـال من الأحوال، بـاعتبار أنّ الخطابـات الوضعيّـة تشمل الجميع. وعليـه فإنّ الطفل والمجنون إذا أتلفا مال الآخرين، تعيّن علـى وليّهما دفع البـدل إن كان لهمـا مالٌ. والمسبب لتلف مال الآخر يدفع للمالك بدل التـالف من المثل والقيمة. والمستـولي على مـال غيره بغيـر إذن ونحوه يـدخل في عهـدتـه، وعليـه مسـؤوليّـة تلفـه اذا تلف. والنتيجـة أنّ وجوب الضمـان يحفظ أمـوال الأفراد من الضياع والتلـف، ويصون الثروة الاجتماعيّة والانسانية من الهدر والتبذير.

القسم الثاني: السرقة وهي سلب مال الغير المـودع في حرز سرّاً وفيهـا شروط. ولعل السرقـة أشدّ من الغصب، بـاعتبار أنّ انتهاك حرمة الشيء المسروق الذي أطمأنّ صاحبه على سلامته بالسر والحرز، يعرّض النظام الاجتماعي لمخاطر كبيرة فيما يتعلّق بالـوضـع الاقتصادي للمجتمع الإسـلامي. وقد أوجب الشارع الحـدّ فيها على السارق دون الغـاصب، كمـا ورد في قولـه تعـالى: ﴿والسارقُ والسـارقة فاقطعوا أيـديهما جزاءً بمـا كسبا نكـالاً من اللهِ واللهُ عـزيز حكيم﴾[21].

ونستلهم مـن كتب السيـرة والتـاريخ عـدالـة النظريّـة الإسـلاميـة في معـاقبـة المنحـرفين فقـد روي أنّ امـرأة من طبقـة الأشـراف سـرقـت، فتشفّـع لـدى رسـول الله(ص) أحد الصحابـة، فقام(ص) وخطب في الناس خطبـة قويّة قصيرة، معلنـاً فيها مبدأ مسـاواة جميع الأفـراد أمام الشـريعة والقانـون: «إيّها الناس، إنّمـا هلكَ من قبلكم أنّهم كانـوا إذا سرق فيهم الشريف تـركوه، وإذا سرق فيهم الضعيف أقاموا عليه الحدّ، وأيم الله لـو أنّ فـاطمة بنت محمـد سـرقت لقطع محمدٌ يدها»[22].

ولابـدّ للسـارق، بمـوجـب الشـريعـة

الإسلامية، من إعادة المادّة المسروقة (الغرم)، حيث لايسقط عنه بحال من الأحوال، حتّى مع إقامة الحدّ وهذا الضمان لاتلتزم به النظريّة الغربيّة، فإذا صرف السارق المال المسروق في المجتمع الرأسمالي، فإنّه يعاقب بالسجن ولا يجبر على ردّ ما سرقه إلى صاحبه.

ولا يحدّ السارق إلاّ بتوفّر الشروط الشرعيّة، وهي البلوغ والعقل لقاعدة «رفع القلم عن الصبيّ حتّى يحتلم وعن المجنون حتّى يفيق، وعن النائم حتّى يستيقظ»[٢٣]، والاختيار [٢٤]، وارتفاع الشبهة[٢٥]، وكون المال المسروق في حرز[٢٦]، وأن تبلغ قيمة المسروق نصاب القطع وهو ربع دينار ذهباً[٢٧]. بمعنى أنّ المضطر الجائع لايقطع إذا سرق ما يسدّ رمقه ورمق عائلته. ومع وجود الشبهة لاينفذ الحدّ لقاعدة «إدرأوا الحدود بالشبهات»[٢٨]. وإذا تمّت السرقة في مكان عام غير مقفل لايقطع أيضاً، لأنّ القطع مختصّ بكون المال المسروق موضوع في حرز أو نحوه. وإذا طلب الفرد المسروق عدم معاقبة الفرد السارق بالحدّ، يترك السارق دون قطع، لأنّ عقوبة السرقة متعلّقة بالحقوق الماليّة للناس وليست من حقوق الله.

وطريقة القطع، المراد منها تأديب المنحرفين وردعهم عن ارتكاب الجريمة، لاتجعل الفرد المذنب معاقاً عن العمل الإنتاجي. فالأصل في القطع، هو الأصابع الأربع فقط من اليد اليمنى للمنحرف، فتترك له الراحة والإبهام. وهذا لايعتبر تعطيلا لإنتاجيّة الفرد، بل إنّ للفرد الحقّ بعد توبته الدخول في الحقل الإنتاجي الاجتماعي ليكون عضواً نافعاً في مجتمعه الإنساني، علماً بأنّ عنصر إبداع الإنسان في العمل والبناء يعتمد على الإبهام وراحة اليدّ بالأصل. على عكس نظام العقوبات الغربي الذي يجعل السجن محور العقوبات، ممّا يسبب انخفاضاً في الإنتاج واستهلاكاً لموارد وثروات المجتمع، لأنّ السجين معطّل عن الإنتاج الاجتماعي بالإكراه.

٦ـ الجرائم الخلقيّة:

ولمّا كانت رسالة الإسلام العظيمة اجتماعيّة المنشأ، فتتعامل مع الفرد والمجتمع ضمن الإطار الأخلاقي المرسوم لها من قبل السماء، أصبح تعاملها الشديد مع الجرائم والانحرافات الخلقيّة أمراً حتميّاً، لأنّ القاعدة الأخلاقيّة هي الأصل في ضمان سلامه أجهزة النظام الاجتماعي وتكاملها لبناء المجتمع الإنساني السعيد، وهذا الإطار الأخلاقي الذي نادت به الشريعة وتبنّته على إمتداد تاريخها الحافل بالوقائع والأحداث،

هو الذي حفظ المجتمع الإسلامي من الانحرافات التي يعيشها المجتمع الغربي وهو في أوج تقدّمه الحضاري والاقتصادي. وأهمّ الجرائم والانحرفات الأخلاقيّة التي يواجهها النظام الاجتماعي هي الانحرافات الجنسيّة كالزنا واللواط والمساحقة والقيادة، والانحرافات السلوكيّة كالقذف وشرب الخمر، والانحرافات العقائديّة كالارتداد.

والأصل في العقوبات الأخلاقيّة القرآنيّة لردع المنحرفين هو التشديد، فتتعيّن عقوبة القتل في الزنا بذات محرم نسباً، وفي الاغتصاب الجنسي ونحوها؛ والرجم في الزانية المحصنة والزاني المحصن؛ والجلد على الزاني والزانية غير المحصنين؛ والجلد والرجم معاً في الشيخ والشيخة المحصنين الزانيين؛ والجلد والتغريب والجزّ في البكر الزاني الذي تزوّج ولم يدخل. ومع أنّ هذا التفصيل يستند إلى السنّة الشريفة، إلاّ أنّ تحريم الزنا ظاهر في النصّ القرآني الشريف: ﴿ولا تقربوا الزنى إنّه كان فاحشة وساء سبيلاً﴾[29]، وقوله تعالى في وصف المؤمنين: ﴿ولا يزنون ومن يفعل ذلك يلق آثاماً﴾[30]، ﴿الزاني لاينكح إلاّ زانية أو مشركة والزانية لاينكحها إلا زانٍ أو مشرك وحرّم ذلك على المؤمنين﴾[31]. ﴿الزانيةُ والزاني فاجلدوا كلَّ واحد منهما مئةَ جلدةٍ ولا تأخذكم بهما رأفة في دين الله إن كنتم تؤمنون بالله واليوم الآخر وليشهد عذابهما طائفة من المؤمنين﴾[32].

ويحدّ اللواطيّ بالقتل ضرباً بالسيف أو حرقاً بالنار أو الإلقاء من شاهق، أو هدم الجدار عليه. وهذا اللون من الانحراف من أخطر مراتب الانحرافات الجنسيّة، ومعناه اللغوي، اللصوق. وسمّي لواطاً نسبة إلى قوم لوط الذين أدانهم القرآن الكريم بالقول: ﴿اذ قال لهم أخوهم لوط ألا تتقون * إنّي لكم رسول أمين فاتّقوا الله واطيعون*وما أسالكم عليه من أجر إن أجري إلاّ على ربّ العالمين*أتأتون الذكران من العالمين * وتذرون ما خلق لكم ربّكم من أزواجكم بل أنتم قوم عادون﴾[33]. ﴿إنّكم لتأتون الرجال وتقطعون السبيل﴾[34]. وقد شدّد التحريم فيه، كما ورد في قول رسول الله(ص): «من جامع غلاماً جاء جُنباً يوم القيامة، لاينقّيه ماء الدنيا، وغضب الله عليه، ولعنه وأعدّ له جهنّم وساءت مصيراً»[35].

وفي السحق مئة جلدة، وقيل أنّ «أصحاب الرسّ كانت نساؤهم سحّاقات»[36].

وهو إشارة إلى قوله تعالى: ﴿وعادا

وثمود وأصحاب الرسّ﴾[٣٧] وفي القيادة، وهو الجمع بين فردين على الحرام خمسة وسبعون جلدة. وفي القذف والسكر ثمانون جلدة، لقوله تعالى: ﴿والّذين يرمون المحصنات ثمّ لم يأتوا بأربعة شهداء فاجلدوهم ثمانين جلدة﴾[٣٨]، وقوله أيضاً: ﴿إنّما الخمر والميسر والأنصاب والأزلام رجس من عمل الشيطان﴾[٣٩] والنصّ الوارد عن أمير المؤمنين(ع): «إنّ الرجل إذا شرب الخمر سكر، وإذا سكر هذى، وإن هذى افترى، فاجلدوه حدّ المفتري»[٤٠].

ولا شكّ أنّ هذا التشديد في التعامل مع المنحرفين أخلاقياً منسجم مع النظريّة الأخلاقيّة الإسلامية. فلابد من أجل بناء مجتمع متكامل نظيف يهتم بحقوق الأسرة والأفراد الذين يشكّلون تركيبتها البشريّة وحقوق النظام الاجتماعي، من إنزال أقصى العقوبات الجسديّة بالذين يحاولون تمزيق النظام الأسري والاجتماعي عن طريق الانزلاق في الشهوات المحرّمة وخلط الأنساب. وبطبيعة الحال، فإنّ الإسلام لم يغفل حاجة الفرد المتعلّقة بالجنس، بل أشبعها ضمن ضوابط الزواج الشرعيّة والعرفيّة، وجعل العقاب صارماً فيما وراء ذلك.

ومع التشديد المذكور في إنزال العقاب بفعليّة الانحراف، هناك تشديد آخر في الشهادة على الجرائم الخلقيّة، وخصوصاً الزنى واللواط والسحق وهو أربعة شهود، وفي القيادة والقذف والسكر شاهدان. ففي ثبوت الزنى الموجب للحدّ رجماً أو جلداً ينبغي شهادة أربعة عدول يتواردون على الشهادة برؤية الواقعة رؤية دقيقة، ولابد من اتّفاقهم على المشهود به زماناً ومكاناً وفعلاً. وإذا نقص عدد الشهود عن أربعة، أو اختلفوا في التفصيل حُدّ الشهود على القذف ثمانين جلدة. وهذا مصداق قوله تعالى: ﴿والذين يرمون المحصنات ثمّ لم يأتوا بأربعة شهداء فاجلدوهم ثمانين جلدة ولا تقبلوا لهم شهادة أبداً واولئك هم الفاسقون * إلّا الذين تابوا من بعد ذلك وأصلحوا فإنّ الله غفور رحيم﴾[٤١]. وقد ورد أنّ ثلاثة شهود شهدوا على رجل بالزنا، فقال أمير المؤمنين علي(ع): اين الرابع؟ قالوا: الآن يجيء، فقال: «حدّوا الشهود فليس في الحدود نظر ساعة»[٤٢]. ولا شكّ أنّ هذا التشديد في دقّة الشهادة وعدالة الشهود، له ناحيتان إيجابيتان:

الأولى: ردع الأفراد عن اتّهام الآخرين بالزنا بمجرّد الظن أو الشكّ، فلابد من اجتماع الأربعة على رؤية الواقعة

بتفصيلاتها الدقيقة، وإلا فستكون العقوبة من نصيبهم.

الثانية: أنّ الذي يرتكب هذا الانحراف أمام أربعة رجال دون أدنى حياء، يستحّق العقوبة الجسديّة لأنّه عنصر إفساد للنظام الاجتماعي ينبغي استئصاله دون رحمة.

وقد جعل الإسلام تطبيق الحدود، آخر الحلول لمعالجة الجريمة والانحراف. فقد أمر الأفراد اوّلاً بالستر والتوبة وسدّ الحاجات الغريزيّة بالطرق الشرعيّة. فإذا استتر المنحرف وتاب إلى الله قبل قيام البيّنة فهو في ستر الله ولا يقام عليه الحدّ ﴿إلا الذين تابوا من بعد ذلك وأصلحوا فإنّ الله غفور رحيم﴾[٤٣]. ولكن إذا اقرّ على نفسه الجرم أو ثبت عليه الجرم بالبيّنة اقيم عليه الحدّ. وقد ورد في الروايات أنّ الإمام(ع) مسؤول عن تزويج الزانية بحيث يعصمها عن ارتكاب هذا الانحراف. وهو دليل قوي على أنّ أهمّ أسباب انحراف الفرد هو الحاجة الماليّة أو الغريزيّة التي لاتسدّ إلا عن طريق الزواج الشرعي.

٤ ـ جرائم ضد النظام الاجتماعي العام:

ولما كان الإسلام يعكس جوهر العدالة الاجتماعيّة بين الأفراد، فإنّ نظامه السياسي والاقتصادي لابدّ وأن يتحرّك بكلّ قوّة لمعاقبة المنحرفين الذين يحالون العبث بمقدّرات الأفراد على الصعيد الاجتماعي. ولذلك فإنّ الانحرافات التي يقوم بها هؤلاء الأفراد، وتؤدّي بقصد أو دون قصد إلى زعزعة النظام الاجتماعي، كارهاب الناس، واحتكار اقواتهم، وظلمهم، تعتبر جرائمَ تستحقّ نوعاً من العقوبات المنصوص عليها في الشريعة.

فالمحاربة هي إرادة الإفساد في الأرض والمحارب هو الذي يجهّز سلاحه لإرعاب الناس، ذكراً كان أم أنثى، قوّياً كان أم ضعيفاً، لعموم الآية في قوله تعالى: ﴿إنّما جزاء الذي يحاربون الله ورسوله ويسعون في الأرض فساداً أن يقتّلوا أو يصلّبوا أو تُقطّعَ أيديهم وأرجلهم من خلاف أو يُنفَوا من الأرض ذلك لهم خزي في الدنيا ولهم في الآخرة عذاب عظيم﴾[٤٤].

ولا شكّ أنّ من أهمّ نتائج هذا التشريع هو استتباب الأمن والسلام الاجتماعي في المجتمع الإسلامي. فليس لأولياء المقتول عن طريق المحاربة العفو عن المحارب، بل إنّ على الإمام قتله بأيّ شكل من الأشكال، إلا إذا تاب من تلقاء نفسه قبل التمكن منه فعندئذ يسقط الحقّ العام، لقوله تعالى: ﴿إلاّ الذين تابوا من قبل أن تقدروا عليهم

فاعلموا أنّ الله غفور رحيم﴾[٤٥]. وهذا الأمن الاجتماعي الذي ينعم به المجتمع الإسلامي يعتبر من أهمّ مصادر استقرار النظام وتنشيط طاقات أفراده الإنتاجيّة.

ولاشك أنّ الدولة في الإسلام ينبغي أن تتمتع بأمان اقتصادي ومعاشي ينعم به جميع الأفراد. وأيّ انتهاك لهذا الأمان يجب أن يعامل بقوّة أخلاقيّة وشرعيّة من قبل الحاكم الشرعي أو الدولة بمؤسساتها القضائية. والاحتكار وهو خزن المادّة الغذائية الأساسيّة التي يحتاجها الأفراد وقت الاضطرار من أجل رفع سعرها أو إضرار الدولة، يمثّل هذا الانحراف الموجّه ضد النظام الاجتماعي العامّ. فيجبر المحتكر حينئذٍ على الصعيد الشرعي على بيع المادّة المحتكرة، ففي عهد الإمام علي(ع) لمالك الأشتر اشارة الى ذلك: «فمن قارف حكرة بعد نهيك إيّاه فنكّل به وعاقب في غير إسراف»[٤٦]. وهذا التشريع، يجنّب الأفراد الفوضى الاقتصاديّة والمعيشيّة وهو منسجم تماماً مع تطلّعات الإسلام نحو العدالة الاجتماعيّة بين الأفراد.

امّا فيما يتعلق بظلم الحاكم، فنقول إنّ المجتمع الإنساني لمّا كان بحاجة مستمرّة إلى نظام اجتماعي مستقرّ، وبحاجة ماسّة إلى مدير يدير هذا النظام ويرعى شؤونه الماليّة والقضائيّة والدفاعيّة والسياسيّة، تعيّن أن تكون للقائد شروط ومواصفات موضوعيّة مستمدّة من الشريعة نفسها. وقد جابه القرآنُ الكريمُ بكلّ قوّة النظامَ السياسيَّ الظالمَ وأدان وجوده اللاشرعي بمختلف الأساليب، وجعل فرعون مثلا يعكس فساد جوهر الظلم السياسي ﴿وإذ نادى ربُّكَ موسى أن ائت القوم الظالمين قوم فرعون ألا يتّقون﴾[٤٧]، ﴿ومن يظلم منكم نُذِقْهُ عذاباً كبيراً﴾[٤٨]، ﴿وقد خاب من حمل ظلماً﴾[٤٩]﴿إنّه لايحبّ الظالمين﴾[٥٠]. وورد ما يشير إلى وجوب الكفر بالحكومة التي لا تقضي بما أنزل الله وتعمل في الناس بالجور والظلم والعدوان وسمّاها بالطاغوت، فقال عزّوجلّ: ﴿ألم تر إلى الذين يزعمون انّهم آمنوا بما أُنزل إليك وما أُنزل من قبلك يريدون أن يتحاكموا إلى الطاغوت وقد أمِرُوا أن يكفروا به ...﴾[٥١] وفي خطبة الإمام الحسين بن علي(ع) في الناس في (منى) تأكيد آخر على التصدي للظلم الاجتماعي: «اعتبروا أيّها الناس بما وعظ الله به أولياءه من سوء ثنائه على الأحبار إذ يقول: ﴿لولا ينهاهم الربّانيون والأحبار عن قولهِم الإثمَ وأكلهم السُّحتَ لبِئْسَ ما كانوا يصنعون﴾[٥٢]، وقال: ﴿لُعن الذين كفروا

من بني إسرائيل على لسان داود وعيسى ابن مريم ذلك بما عصوا وكانوا يعتدون * كانوا لايتناهون عن منكرٍ فعلوه لبئس ما كانوا يفعلون﴾[٥٣]. وإنما عاب الله ذلك عليهم لأنّهم كانوا يرون من الظلمة الذين بين اظهرهم المنكر والفساد فلا ينهونهم عن ذلك رغبة فيما كانوا ينالون منهم ورهبة مما يحذرون والله يقول: ﴿فلا تَخْشَوا الناس واخْشَوْن﴾[٥٤]، وقال: ﴿المؤمنونَ والمؤمناتُ بعضُهم أولياءُ بعضٍ يامرون بالمعروف وينهون عن المنكر﴾[٥٥]. فبدأ الله بالأمر بالمعروف والنهي عن المنكر فريضة منه لعلمه بأنّها إذا أدّيت وأقيمت، استقامت الفرائض كلّها هيّنها وصعبها، وذلك أنّ الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر دعاء إلى الإسلام مع ردّ المظالم، ومخالفة الظلم، وقسمة الفيء والغنائم، وأخذ الصدقات من مواضعها ووضعها في حقّها،[٥٦].

وإذا كان الإسلام دين العدالة الاجتماعيّة حقّاً وهو بالتأكيد كذلك، فإنّ أوّل عدوّ يسعى لمحاربته، هو نظام الظلم الاجتماعي والسياسي ضد الأفراد. ولذلك، فإنّ قاعدة العدالة الاجتماعيّة المتمثّلة بإطار الحكم الإسلامي والدولة الإسلامية يجب ان تستمر حتماً، حتّى قيام الساعة، إن كانت تحت أمر النبي(ص) أو الإمام المعصوم(ع) أو نائبه الفقيه الجامع للشرائط ﴿يا أيّها الذين آمنوا أطيعوا الله وأطيعوا الرسول وأولي الأمر منكم﴾[٥٧]، فلا مكان للحاكم الظالم في دنيا الإسلام، دنيا العدالة الاجتماعيّة والحقوقيّة.

النظريات الاجتماعيّة الغربيّة المعلّقة بالانحراف ونقدها:

وهذه النظريّات هي من أهمّ الأفكار الاجتماعيّة التي انتجتها أوربا الغربيّة وأمريكا الشماليّة في عصر التصنيع والنهضة العلميّة. فنظريّة (الانتقال الانحرافي) تؤمن بأنّ الانحراف سلوك مكتسب، حيث يتعلّم الفرد الانحراف كما يتعلّم الفرد الآخر، السلوك الذي يرتضيه النظام الاجتماعي. بمعنى أنّ الانحراف إذا ظهر في بيئة اجتماعيّة معيّنة فلابد له من الاستمرار والازدهار حتّى يتعمّق في التركيبة الثقافيّة والاجتماعيّة لتلك البيئة، وينتقل ذلك الطابع الانحرافي من فرد إلى آخر ثمّ من جيل إلى آخر دون أن يتغيّر الدافع الذي يؤدّي إلى ارتكاب الجريمة لدى الفرد. ولمّا كان الإنسان يولد نقيّاً من بذرة الانحراف، فإنّ العوامل التي تساعده على تكوين شخصيّته الاجراميّة، لابد وأن تكون

متسلسلة الحدوث خلال مسيرته التطوّريّة من الطفولة وحتّى البلوغ. بمعنى أنّ هذه العوامل مرتبطة قطعاً بالبيئة التي يعيش الفرد خلال أدوار نموّه المختلفة، وأهمّها على الإطلاق انفتاحه على المنحرفين عن طريق الصداقة والمودّة.

وتتجاهل هذه النظريّة جوهر المشكلة الانحرافيّة، وهي أنّ الواقع الرئيس للانحراف هو عدم إشباع الحاجات الإنسانيّة الأساسيّة للمنحرفين من قبل النظام الاجتماعي. فالانحراف عموماً لايحتاج إلى معلّم، فالسارق الجائع يعرف بالغريزة كيف يفعل فعلته، والقاتل يعرف بالغريزة كيف يقتل،والغاصب في مجتمع منحلّ يعرف كيف يتعامل مع ضحيّته. وفي كل هذه الجرائم يكون الدافع والحاجة عاملاً مهمّاً من عوامل ارتكاب الفعل نفسه. إضافة إلى ذلك أنّ هذه النظريّة تقصر عن التمييز بين الانحراف الاقتصادي عن الانحراف الأخلاقي والسياسي، وتعجز عن تفسير ظهور الانحراف بين أفراد الطبقة الرأسماليّة الذين لايرتبطون بأيّ فئة منحرفة اجتماعياً.

ويعتقد (أميلي ديركهايم) مؤسس نظريّة (القهر الاجتماعي) بأنّ الانحراف ظاهرة اجتماعيّة ناتجة عن القهر والتسلّط الاجتماعي الذي يمارسه بعض الأفراد ضدّ بعضهم الآخر. فالفقر، باعتباره انعكاساً صارخاً لانعدام العدالة الاجتماعيّة بين الطبقات، يولّد رفضاً للقيم والأخلاق الاجتماعيّة التي آمن بها الرعيل الأكبر من أفراد النظام الاجتماعي.

وما الانحراف إلا صورة من صور ذلك الرفض الاجتماعي. والفرد الذي لايصل إلى تحقيق أهدافه عن طريق الوسائل المقرّرة اجتماعياً، يسلك مسلكاً منحرفاً يؤدّي به الى هدفه كالسرقة، والرشوة والبيع الذي يحرّمه القانون. وهنا يلعب القهر الاجتماعي دوراً في توليد ضغط لدى بعض الأفراد كي ينحرفوااجتماعياً.

إلا أنّ هذه النظريّة فيها خلل واضح، وهو تجاهلها للانحراف الناتج عن الاضطرابات العقليّة والأمراض النفسيّة، وهو انحراف غير مرتبط بالقهر الاجتماعي. وتعجز هذه النظريّة أيضاً عن تفسير ظاهرة الانحراف بين أفراد الطبقة الرأسماليّة الغنيّة كالقتل والاعتداء والاغتصاب مع أنّهم يملكون كلّ وسائل الثروة والمنزلة الاجتماعيّة، وملاحظة انتفاء ظاهرة القهر الاجتماعي عنهم.

أمّانظريّة (الإلصاق الاجتماعي) فهي تشير إلى حقيقةمهمّة تجعلها محور فكرتها الرئيسة، وهي أنّ الانحراف الاجتماعي إنّما

هو نتاج نجاح مجموعة من الأفراد بالإشارة إلى أفراد آخرين بأنّهم منحرفون. وتستند فكرة النظريّة على فرضيّة الصراع الاجتماعي بين الأفراد ومحاولة اتّهام بعضهم بعضاً بالحيود عن المجرى العام للسلوك الاجتماعي وتقسّم الانحراف إلى قسمين، الأوّل: الانحراف المستور. والثاني: الانحراف الظاهر. فعندما يُتّهم أفرادٌ بالانحراف علنيّاً، يتبدّل الوضع النفسي والاجتماعي للمتّهمين فما لو بقي الانحراف مستوراً. فإذا ألصقت تهمة السرقة بشخص ثالث، شعر هؤلاء الأفراد بالإهانة الاجتماعيّة، لأنّ الآثار المترتبة على انحرافهم تعيّن، أوّلاً: إنزال العقوبات التي أخّرها النظام الاجتماعي بهم. وثانياً: افتضاح أمرهم أمام الناس، وثالثاً: انعكاس ذلك الافتضاح على معاملة بقيّة الأفراد لهم. ولذلك فإنّ الصفات القاسيّة التي يستخدمها النظام ضدّهم كصفات السرقة والرشوة والتجديف إنما وضعها في الواقع، النظام الاجتماعي والسياسي وألصقها بهؤلاء الأفراد.

ولكن هذه النظريّة بتشديدها على فكرة الإلصاق، تبرّر بصورة غير مباشرة ظاهرة الانحراف المستور، لأنّ الانحراف إذا لم يلصق بفئة من الأفراد يصبح سلوكاً طبيعياً. ولكن السارق في البيع والشراء يعدّ سارقاً بغضّ النظر عن الصاق التهمة به أو عدم إلصاقها به. والمرتشي يعدّ مرتشياً سواء ألصقت التهمة به أم لا. والقاتل الذي لم تكشف جريمته يعتبر قاتلاً في كلّ الأحوال سواء أألصقت التهمة به أم لم تلصق، وهذه النظريّة تعطي الفرد مبرّراً لاستمرار الانحراف، فالمنحرف يجد عذراً بالقاء سبب انحرافه على النظام الاجتماعي ولا يقيم لدافعه الذاتي نحو ارتكاب الجريمة، وزناً. وهذا يتنافى مع الأصول العامّة للتجريم التي تأخذ الدافع الذاتي والنيّة المسبقة بنظر الاعتبار.

ولعل نظريّة (الضبط الاجتماعي) تعتبر من أقرب النظريّات الغربيّة إلى الواقع القرآني. فتعتقد هذه النظريّة بأنّ الانحراف ظاهرة ناتجة عن فشل السيطرة الاجتماعيّة على الأفراد. لأنّ الانحراف يتناسب عكسياً مع العلاقة الاجتماعيّة بين الأفراد، فالمجتمع المتماسك رحميّاً يتضاءل فيه الانحراف، على عكس المجتمع المنحلّ. فلو درسنا نسب انتحار الأفراد في المجتمع الإنساني للاحظنا أنّها أكثر انتشاراً في المجتمعات التي لا تهتم بعلاقات القربى والعشيرة وصلة الرحم. وعلى هذا الأساس آمنت النظريّة بأنّ أفراد المجتمع المتماسك

من ناحية العلاقات الرحميّة والإنسانية أكثر طاعة للقانون وأكثر اتّباعاً للقيم التي يؤمن بها من أفراد المجتمع المتحلل في علاقات أفراده الاجتماعيّة. وبالجملة، فإنّ الأفراد الذين تربطهم الأواصر الاجتماعيّة المتينة، وينغمسون في أعمالهم ونشاطاتهم ويستثمرون في المجتمع أموالهم وأولادهم ويطبّقون بكلّ إيمان أحكام دينهم فهؤلاء تتضاءل عندهم فرص الانحراف الاجتماعي، وتزداد من خلال سلوكهم فرص الاستقرار الثبات على الخط الاجتماعي السليم.

وهذه النظريّة تعكس بشكل جزئي بعض المفاهيم القرآنيّة التي تتعامل مع العلاقات الاجتماعيّة وتأثيراتها الإيجابيّة في ضبط سلوك الأفراد كصلة الرحم ﴿والذين يصلون ما أمر الله به أن يوصل ويخشون ربّهم ويخافون سوء الحساب﴾(٥٨)، ﴿ويسالونك ماذا ينفقون قل ما أنفقتم من خير فللوالدين والأقربين واليتامى والمساكين وابن السبيل وما تفعلوا من خير فإنّ الله به عليم﴾(٥٩)، وإكرام الجار ﴿... والجار ذي القربى والجار الجنب والصاحب بالجنب﴾(٦٠)، والنهي عن الظلم ﴿ومن يظلم منكم نذقه عذاباً كبيراً﴾(٦١)، وحرمة أذى المؤمنين: ﴿والذين يؤذون المؤمنين والمؤمنات بغير ما اكتسبوا فقد احتملوا بهتاناً وإثماً مبيناً﴾(٦٢)، والنهي عن احتقار الناس ﴿يا أيّها الذين آمنوا لايسخر قوم من قوم عسى أن يكونوا خيراً منهم ولا نساء من نساء عسى أن يكنّ خيراً منهنّ ولا تلمزوا أنفسكم ولا تنابزوا بالألقاب، بئس الاسم الفسوق بعد الإيمان، ومن لم يتب فاولئك هم الظالمون﴾(٦٣)، وإصلاح ذات البين ﴿إنما المؤمنون إخوة فاصلحوا بين أخويكم واتّقوا الله لعلّكم ترحمون﴾(٦٤)، والتعاون على الخير ﴿وتعاونوا على البرّ والتقوى ولا تعاونوا على الإثم والعدوان﴾(٦٥).

ومع كلّ هذه الاقتباسات التي اقتبسها (أميلي ديركهايم) في نظريّته الخاصّة بالضبط الاجتماعي من المفاهيم القرآنيّة، تبقى تلك النظرية عاجزة عن تكامل الصورة الاجتماعيّة للانحراف. فديركهايم لم يتناول معالجة الانحراف بين الأفراد الذين تتوفر فيهم جميع عناصر منع الانحراف الاجتماعي، كالطبقات الرأسماليّة في الدول الصناعيّة، وبابوية القرون الوسطى في أوربا، والتجار الأثرياء في الأنظمة الحرّة مع أنّهم يتمتعون بأفضل الصلات العائليّة والعشائرية، ويمارسون أفضل الهوايات الفكريّة والبدنية ويستثمرون أموالهم في العقارات والمزارع والمصانع، ويعتقدون

بدياناتهم المختلفة.

والخلاصة، أنّ هذه النظريات الاجتماعيّة الغربيّة الأربع تفشل في تفسير ظاهرة الانحراف والتجريم بالصورة الدقيقة الشاملة المستوعبة لكل مفردات الواقع الاجتماعي. فهذه النظريات منفصلة لاتستطيع تفسير جرائم المقامرة، وانحراف الأحداث، وتعاطي المخدارات، والتحايل في دفع حقوق الفقراء وكلّ نظريّة من هذه النظريّات تنظر للجريمة بشكل تجزيئي محدود ولا تنهض بمستوى النظرة الكلّية للمشكلة الانحرافيّة بحيث تستوعب كلّ مفردات وتشكيلات الإجرام الفردي والجماعي في المجتمع الإنساني.

الهوامش:

(١) الشمس: ٧ـ٨

(٢) البقرة: ١٧٩.

(٣) النساء: ٩٢.

(٤) المائدة: ٣٨.

(٥) النحل: ٩٠.

(٦) الحجرات: ٩.

(٧) مجمع البيان ٢٠: ٢٧٠.

(٨) البقرة: ١٩٥.

(٩) المائدة: ٤٥.

(١٠) المجتمع الاسلامي ١: ٣٦٠ تحت الطبع للكاتب.

(١١) الاسراء: ٣٣.

(١٢) الجواهر ٤٢: ٣٣٠.

(١٣) المائدة: ٤٥

(١٤) الشورى: ٤٨

(١٥) النساء: ٩١.

(١٦) الكافي ٧: ٢٤٣.

(١٧) المؤمنون: ١٣ـ١٤.

(١٨) البقرة: ١٨٨.

(١٩) الكافي ٧: ٢٧٤.

(٢٠) كنز العمال ١٠ـ٦٣٩.

(٢١) المائدة: ٣٨.

(٢٢) البخاري ـ كتاب الحدود ـ باب ١٢.

(٢٣) سفينة البحار ١: ٥٣٠.

(٢٤) من لا يحضره الفقيه ٤: ٤٣.

(٢٥) المقنع للشيخ الصدوق: ١٤٧.

(٢٦) تفسير العياشي ١: ٣١٩.

(٢٧) المقنع للصدوق: ١٥٠.

(٢٨) المصدر نفسه: ١٤٧.

(٢٩) الاسراء: ٣٢.

(٣٠) الفرقان: ٦٨.

(٣١) النور: ٢.

(٣٢) النور: ٢.

(٣٣) الشعراء: ١٦١.

(٣٤) العنكبوت: ٢٩.

(٣٥) الكافي ٢: ٧٠.

(٣٦) مجمع البيان ١٩: ١٠٧.

(٣٧) تفسير القمي: ٤٦٥، تفسير الآية ٣٨ من سورة الفرقان.

(٣٨) النور: ٤.

(٣٩) المائدة: ٩٠.

(٤٠) الكافي ٧: ٢١٥.

(٤١) النور: ٤ ـ ٥.

(٤٢) من لا يحضره الفقيه ٤: ٢٤.

(٤٣) النور: ٥.

(٤٤) المائدة: ٣٣.

(٤٥) المائدة: ٢٤.

(٤٦) نهج البلاغة: ٦٢٥.

(٤٧) الشعراء: ١٠ ـ ١١.

(٤٨) الفرقان: ١٩.

(٤٩) طه: ١١١.

(٥٠) الشورى: ٤٠.

(٥١) النساء: ٦٠.

(٥٢) المائدة: ٦٣.

(٥٣) المائدة: ٧٨ـ٧٩.

(٥٤) المائدة: ٤٤.

(٥٥) التوبة ٧٢.

(٥٦) تحف العقول: ٢٣٧.

(٥٧) النساء: ٥٩.

(٥٨) الرعد: ٢١.

(٥٩) البقرة: ٢١٥.

(٦٠) النساء: ٣٦.

(٦١) الفرقان: ١٩.

(٦٢) الاحزاب: ٥٨.

(٦٣) الحجرات: ١

(٦٤) الحجرات: ١٠.

(٦٥) المائدة: ٢١.



جولة مع سيبويه تحت راية القرآن

د. محمّد فاضلي

إنّ سيبويه وكتابه في الثقافة الإسلاميّة ظاهرتان نادرتان كلّما كرّ عليهما اللّيل والنهار زادتا حسناً وبهاءً، ومهما تعاقبت عليهما الأجيال توسّعت آفاق فكرتهما اقتفاءً واحتذاءً، وكلّما تداولت جهودهما أيدي الأخلاف شايعوهما مدحاً وثناءً.

فهذا هو الجاحظ (ت: ٢٥٥هـ) يعني كتاب سيبويه ويقول: «لم يكتب الناس في النحو كتاباً مثله، وجميع الناسِ عليه عيال»[١]. ويقول المازني (ت: ٢٤٧): «من أراد أن يعمل كتاباً كبيراً في النحو بعد كتاب سيبويه، فليستحي»[٢]. وكان المبرّد (ت: ٢٨٥) يقول لمن أراد أن يقرأ عليه كتاب سيبويه: «هل ركبت البحر؟» [٣]. وقال ابن خلدون: «ووضع كتابه المشهور الذي صار إماماً لكلّ ما كتب فيها (المسائل الأدبيّة) من بعده»[٤].

وممّا لاشك فيه أنّ «الكتاب» وجهود «سيبويه» المثمرة الواسعة الآفاق قد أحرزا في الثقافة الإسلامية منزلة مرموقة قلّما أحرزها غيرهما، ذلك أنّهما قد أحدثا تيّارات ثقافية وفكريّة جرت إلى الأمام - وستجري - بكلّ قوّة، وتواصلت على الأيّام - وستتواصل - بكلّ عظمة. فنحن اليوم نعتزّ بهذا التراث كلبنة في الثقافة الواسعة الإسلامية معتقدين أنّ جهود «سيبويه» لم تنحصر في مسائل الصرف والنحو، بل أنّ كتابه يعدّ محاولة عميقة تتناول مسائل شتّى من المعارف الإسلاميّة ﴿فيها ما تشتهيه الأنفس وتلذّ الأعين﴾[٥].

من هذه المسائل ـــ اللغة وفقهها، المعاني والبديع، تفسير الآيات والقراءة والتجويد ثم الشعر والنقد. لقد بلغ من

إتقان عرض هذه المسائل، أنّ بعضاً منها قد تحوّل إلى أصول أوحت بكثير من مباحث «البلاغة» و«فقه اللّغة» وحتّى أصول الفقه. روي عن أبي عمرو الجرمي(٢٢٥) وكان أثبت القوم في كتاب سيبويه، وجليلاً في الحديث والأخبار، وفقيهاً في الدّين (٦) ـ أنّه ادّعى استخراج الفتاوى الفقهيّة طوال ثلاثين سنة من كتاب سيبويه (٧).

فلسنا ههنا بصدد أن ندرس جميع جوانب جهود سيبويه في الثقافة الإسلامية، بل نحاول أن نركّز هذه الدراسة على بعض جهوده فيما يتعلّق بالقرآن خاصّة، وتواصل هذه الجهود عند أقطاب المسلمين وتعاقبها منصورة لديهم، وأن نؤكّد على أهمّية «الكتاب» بالنسبة إلى المسائل القرآنية، وتناوله اللطائف والنكت القرقانيّة، فنقول: هذه الجهود الطيّبة تجلّت في صور متنوّعة لكلٍّ منها شأنه وجلالته.

* فمنها:

ـ جهود تنمّ عن تشبيه بديع ذي منزلة رفيعة ـ لإمام النحاة في هذ الناحية نظرات دقيقة وتأمّلات صادقة، يرجع الفضل فيها إليه وينحصر السبق إليها عليه. فهو عند قوله تعالى:

﴿ومثل الذين كفروا كمثل الذي ينعق بما لايسمع إلاّ دعاءً ونداءً﴾ (٨).

الذي يُفيد بظاهره أنّ الكفّار شُبّهوا بمن يصيح على مالا يعقل ولا يسمع ـ وهو معنى لا يعلق بالقلب ـ يتذكّر الكفّار لم يُشبَّهوا بما ينعق بل بالمنعوق به، وأنّ المعنى: مثلكم ومثل الذين كفروا كمثل الناعق والمنعوق به الذي لايسمع . . . ولكنّه جاء على سعة الكلام والإيجاز، لعلم المخاطب بالمعنى» (٩).

فاذا تتبّعنا المسألة عند جهابذة الثقافة الإسلامية رأينا الطبري (ت: ٣١٠هـ) أشار إلى إبداءأهل التأويل في الآية رايين:

أحدهما ـ أنّ معنى ذلك مثل الكافر في قلّة فهمه عن . . . ما يتلى عليه في كتابه وسوء قبوله لما يدعى إليه من توحيد . . . ويوعظ به، مثلُ البهيمة التي تسمع الصوت اذا نُعِق بها ولا تعقل ما يقال لها. فيكون تقدير الآية «ومَثَلُ وعظ الذين كفروا، وواعظهم كمثل نعق الناعق بغنمه ونعيقه بها، ثمّ أضيف المثل إلى «الذين كفروا» وترك ذكر «الوعظ» و«الواعظ» لدلالة الكلام عليه.

والثاني ـ أنّ المعنى ومثلُ الذين كفروا في دعائهم آلهتهم وأصنامهم التي لاتسمع ولا تعقل، كمثل الذي ينعق بما لايسمع إلاّ دعاءً ونداءً.

ثمّ يرجّح الطبري الرأي الأوّل محتجاً

بأنّ الآية نزلت في اليهود وهم ليسوا أهل أوثان يعبدونها ولا أهل أصنام يُعظّمونها[١٠].

فنرى أنّ المرجَّح عند الطبري هو نفس تأويل سيبويه للآية، غير أنّ عبارة إمام النحاة في تقدير الآية لاشتمالها على جميع أجزاء طرفي التقابل وحفظ الترتيب بينهما، أبين وأوضح.

اذا تركنا الطبري وتتبعنا نفس المسألة عند غيره وجدنا السيّد المرتضى(ت:٤٣٦هـ) عندّ التعرّض للآية السابقة والإجابة على السؤال عن وجه الشبه بين الذين كفروا ومن ينعق بالغنم، أنّه ذكر خمسة أوجه وضع في أوّلها أن يكون المعنى «مثل واعظ الّذين كفروا والداعي لهم إلى الإيمان والطّاعة كمثل الداعي الذي ينعق بالغنم وهي لا تعقل معنى دعائه»[١١].

وكذلك وجدنا الزّمخشري (ت:٥٣٨ هـ) في ذيل الآية المتقدّمة يقول: «لابُدّ من مضاف محذوف، تقديره: ومثلُ داعي الّذين كفروا كمثل الذي ينعق، أو ومثل الّذين كفروا كبهائم الّذي ينعق»[١٢].

فترى أيضاً أنّ فكرة سيبويه استمرّت عند هذين العلمين وتواصلت لديهما، ولكنّ نصّ تأويل إمام النّحاة الذي سبق الإشارة إليه نال بخطّ أوفر من الدقّة والكمال، ذلك أنّ ظاهر الآية يحكي عن التشبيه المركّب الطّرفين الذي ينطبق على تأويل سيبويه بلا غموض وخفاء بسبب اشتماله على الأجزاء المعتبرة اللازمة في طرفي التشبيه، أعني «الوعظ» و«غير المتّعظ» من جانب المشبه، و«الناعق» و«المنعوق به» من جانب المشبه به.

* ومنها:

- جهود تنمّ عن عمليّة الاستعارة - في هذه المحاولة، نرى إمام النحاة عند قوله تعالى:

﴿يا ابتِ إنّي رأيتُ احدَ عشرَ كوكباً والشمسَ والقمرَ رأيتُهُمُ لي ساجدين﴾[١٣].

وقوله:

﴿يا أيّها النّمل ادخلوا مساكنكم﴾[١٤].

وقوله:

﴿وهو الذي خلق اللّيل والنّهار والشمس والقمر كلٌّ في فلك يسبحون﴾[١٥].

التي عومل فيها الشمس والقمر والنجوم والنّمل معاملة الإنسان، حيث استعمل في حقها «ساجدين» و«يسبحون» و«ادخلوا» مكان «ساجدة» و«تسبح» و«ادخلن أو ادخلي» يتذكّر أنّ الخليل كان يعتقد لمّا ذُكر هذه الأشياء بفعل كالسجود،

وخوطب النمل كالإنسان، نُـزِّلَت منزلـة ما يعقل ويسمع.

ثمّ يستشهد علـى قـول الخليل بهـذا البيت من النّابغة الجُعدي:

شَرِبْتُ بها والدّيكُ يدْعُو صباحَهُ

إذا ما بنُو نعشٍ دَنوا فتَصَوَّبُوا

لتنزيله «بنات النعش» منزلة الإنسان حيث ذكرها بفعل الدّنو والتصوّب.

وبعد إيراد هذا الشاهد يرجع إلى الآيات المتقدّمة ويُضيف:

«فجاز هـذا حيث صارت هـذه الأشياء عندهم، تُـؤمر وتُطيع وتفهم الكـلام وتعبد، بمنزلة الآدميين»(١٦).

فسيبويه هاهنا يضع الحجر الأوّل في بناء الاستعـارة، ويقوم بتـوجيه وتحليـل ما ينبـئ عن هـذا الفـن، وإن كـان لايقـدّم لـه اصطلاحـاً خاصّـاً. فكلامـه في بيـان تلك النُكت له فضـل التقدّم ومكانتـه الجليلةُ في اهتداء العقول إلى مواطن أسرار البلاغة في الآيات القرآنيّة.

فَلْنَتتبعْ هذا الاتّجاه وسيـره حتّى نرى كيف أصبحت جهود إمام النحاة نهراً متدفّقاً يجري إلـى الأمام، وتواصَلَ قـويّاً وهـائجاً، وكيف ورد عليـه أقطاب الثقـافة الإســلاميّة وترووا منه.

فهذا الشريف الرضي (ت: ٤٠٦) يتلقّى فكرة سيبويـه في الآيات المتقدّمـة بالقبول ولكن يُلبسهـا ثـوبـاً شفّـافـاً وينـصُّ على اصطلاح الاستعـارة، فيقول فـي ذيل قولـه تعالى: ﴿يا أبتِ... رأيتهم لي ساجدين﴾: «هذه استعارة لأنّ الكواكب والشمس والقمر ممّا لايعقـل فكان الوجـه أن يقال: سـاجدة، ولكنها لمّا أطلِق عليها فعلُ من يعقل جاز أن تـوصف بصفة مـن يعقل لأنّ السجـود من فعل العقلاء.

وهذا كقولـه سبحانه: ﴿يا أيُّها النمل ادخلوا مساكنكم﴾، «فلمّا كـانت النمل في هـذا القـول مأمـورةً أمـر مـن يعقل جـرى الخطاب عليها جريه على من يعقل»(١٧).

غير أنّ الشريف الرّضي جاء في نهاية كلامه هنا بفكـرة أخرى وادّعى فيها السبق لنفسه فقال: «وهذا موضع حسن ولم يمض بي لمن تقدّم»(١٨).

وفي ذيـل قولـه تعـالى: ﴿وهو الّذي خلق اللّيـل ... كلٌّ فـي فلكٍ يسبحـون﴾ يجري أيضاً مجرى إمـام النحاة في توجيه المسألـة وتحليلها لكن ببيـان بليغ كمـا هو شـأنـه، وينـصّ علـى قضيـة الاستعــارة أيضـاً(١٩).

إنّ فكرة سيبويه وجهوده هنا استمرّت أيضـاً لـدى الأقطـاب الآخـرين، قـويّـة أو ضعيفـة، مـوجـزة أو مفصّلـة، كـالشيـخ

الطّوسي[٢٠] والطبرسي[٢١] والزمخشري[٢٢] والبيضاوي[٢٣] وغيرهم. فكانت محاولات زعيم البصريين كما قلنا نهراً متفجّراً من ينبوع الثقافة الإسلاميّة، كلّما جرى إلى الأمام انضمّت إليه جداول حتّى فار وفاض وأصبح بحراً ماؤه لن يغور.

* ومنها:

ــ جهودٌ تنمّ عن مجاز يتراوح بين الاستعارة وغيرها ــ وفيما يتعلّق بهذه القضيّة نرى إمام النحاة أيضاً في محاولاته القرائيّة يقوم بفكرة يتداولها علماء المسلمين، وتتحوّل لديهم قبساً من النّور يهديهم إلى فنون من علم البلاغة. ومن جرّاء هذا تتواصل جهود سيبويه مشرقةً عندهم، كما ستتواصل مضيئةً لدى الآخرين.

لقد ذكر سيبويه عندّ التعرّض لهذه الآيات:

﴿بل مكر الليل والنهار﴾[٢٤].

﴿واسأل القرية﴾[٢٥].

إنّها جرت على مجرى التوسّع في الكلام للإيجاز والاختصار، «فالليل والنهار لايمكران ولكنّ المكر فيهما»[٢٦] و«إنّما يريد أهل القرية فاختصر وعمل الفعل في القرية كما كان عاملا في الأهل لو كان ههنا»[٢٧].

فالظاهر أنّه لمّا اتّصلت هذه الفكرة إلى الآخرين تجلّت في فنون مختلفة كالإيجاز والمجاز والاستعارة.

فهذا علي بن عيسى الرمّاني (ت: ٣٨٦) أورد الآية الثانية في «باب الإيجاز» الذي عرّفه بـ«تقليل الكلام من غير إخلال بالمعنى»[٢٨].

والشيخ عبد القاهر الجرجاني ذكرها تحت عنوان المجاز وقال: «واعلم أنّ الكلمة كما توصف بالمجاز لنقلك لها في معناها كما مضى، فقد توصف به لنقلها من حكم كان لها إلى حكم ليس هو بحقيقة فيها»[٢٩] وقد احتذى حذو الشيخ السكاكيُّ والقزويني من المتأخّرين[٣٠].

وأمّا الشريف الرضي، فقد تناول الآية وذكرها تحت عنوان الاستعارة، وقال: «وهذه من مشاهير الاستعارات، والمراد واسأل أهل القرية»[٣١].

تلك هي جهود سيبويه القرآنية المتواصلة في ما انتهى إلى اللّطائف البلاغيّة والمباحث الفنّية منها، في هذه الحلقة.

وأمّا جهوده القرآنيّة المتواصلة الأخرى في المفردات والتراكيب والأساليب التي تتعلّق بالمباحث اللّغوية وفقهها ودلالة الألفاظ واشتقاق الكلمات وعلم الإعراب، فنتركها لحلقة أخرى تتيسّر لي. وما ذلك على الله بعزيز.

الهوامش:

(١) جمال الدين، علي بن يوسف القفطي: إنباه الرواة على أنباء النحاة٢:٣٥١ تحقيق محمد أبو الفضل إبراهيم، دار الفكر العربي، القاهرة.

(٢) نفس المصدر٢:٣٤٨، وابن النديم، الفهرست ٢٥، طبع فلوجل، بيروت.

(٣) السيوطي: بغية الوعاة في طبقات اللغويين والنحاة: ٣٦٦ تصحيح محمّد أمين خانجي، مصر.

(٤) مقدّمة ابن خلدون: ٢٤، دار مكتبة الهلال.

(٥) الزخرف: ٧١.

(٦) القفطي: إنباه الرواة: ٨١

(٧) أبوبكر محمد بن حسن الزبيدي: طبقات النحويين واللغويين: ٧٢، تحقيق محمد أبو الفضل إبراهيم، مصر.

(٨) البقرة: ١٧١.

(٩) الكتاب١: ١٣١ أفست أدب الحوزة.

(١٠) جامع البيان في تفسير القرآن٢: ٤٧ـ٤٩، طبع بولاق، ١٣٢٣.

(١١) الأمالي في التفسير والحديث والأدب: ١٥٤، أفست إيران.

(١٢) الكشّاف عن حقائق غوامض التنزيل١: ٢١٤.

(١٣) يوسف: ٤.

(١٤) النمل: ١٨.

(١٥) الأنبياء: ٣٣.

(١٦) الكتاب١: ٢٨٠.

(١٧) تلخيص البيان في مجازات القرآن: ٩١، طبع عالم الكتب، بيروت.

(١٨) نفس المصدر ونفس الصفحة.

(١٩) نفس المصدر: ٩٦ـ٩٧.

(٢٠) التبيان في تفسير القرآن٦: ٩٦، ٧: ٢٤٦، طبع دار إحياء التراث العربي، بيروت.

(٢١) مجمع البيان في تفسير القرآن٤: ٤٦ منشورات مكتبة آية الله المرعشي، قم.

(٢٢) الكشاف٢: ٤٤٤.

(٢٣) أنوار التنزيل وأسرار التأويل٤: ٤٠، طبع المكتبة الإسلامية، تركيا.

(٢٤) سبأ: ٣٢.

(٢٥) يوسف: ٨٣.

(٢٦) الكتاب١: ١١٠.

(٢٧) نفس المصدر١: ١٣١ وراجع أيضاً ٢: ٢٩.

(٢٨) النكت في إعجاز القرآن: ٧٦، في مجموعة «ثلاث رسائل في إعجاز القرآن»، تحقيق محمّد خلف الله والدكتور محمدّ زغلول سلام.

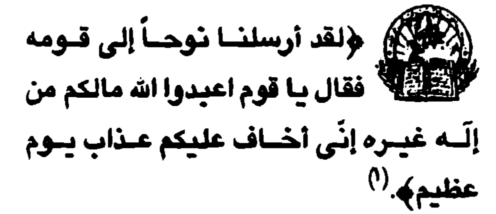
(٢٩) أسرار البلاغة: ٣٦٢ تحقيق سيّد محمّد رشيد رضا.

(٣٠) مفتاح العلوم: ١٦٦ طبع دار الكتب العلميّة، بيروت، وتلخيص المفتاح مع المطوّل: ٦ـ٤٠٥، طبع مطبعة أحمد كامل.

(٣١) تلخيص البيان: ١٠٠.

سلام على نوح في العالمين

الشيخ طالب السنجري



﴿لقد أرسلنا نوحاً إلى قومه فقال يا قوم اعبدوا الله مالكم من إلَـه غيره إنّي أخاف عليكم عذاب يوم عظيم﴾.(١)

ما أجلّ هذا النبيّ!، وما أوسع قلبه وأطيبه! فهو يخاف على قومه الذين تنكبّوا جادّة الصّواب.. ويتضوّع حرقة من المصير الذي سيواجهونه، يوم يفدون على ربّ العالمين، ثمَّ ما أرذل ما يعيش الإنسان في هذه الحياة وهو منكر لدعوة الحقّ والعدل!

كلّ ذلك كان يعيشه نوح في نفسه وينبعث به مشافهة مع قومه في ألم ممضّ.

ثمّ يتابع هذا الرسالي الصامد دعوته، وذلك في تعداد ما أنعم الله على الناس:

﴿فقلت استغفروا ربّكم إنّه كان غفّاراً * يرسل السماء عليكم مدراراً * ويمددكم بأموال وبنين ويجعل لكم جنّات ويجعل لكم أنهاراً * مالكم لاترجون لله وقاراً * وقد خلقكم أطواراً * ألم تروا كيف خلق الله سبع سموات طباقاً * وجعل القمر فيهنّ نوراً وجعل الشمس سراجاً * والله انبتكم من الأرض نباتاً * ثمَّ يعيدكم فيها ويخرجكم إخراجاً * والله جعل لكم الأرض بساطاً * لتسلكوا منها سبُلاً فجاجاً﴾.(٢)

مع هذا المنطق النبويّ العظيم وأساليب هذا النبيّ الكريم وقف قوم نوح بوجهه، يتهمونه بالضلال ويتبرّمون به، وهو يستعير من الصبر على هذا الجحود وجهاً آخر وضّاءً، وقلباً مفعماً بالحبّ ذلك أنّ خصمه فاجر متوحّش وهم أهل الثراء المفيض والمجد الزائف، ولم يقف معه على هذا النسق الباهر من الثبات على الحقّ إلاّ قلّة صامدة ماجدة أسموهم «أراذل الناس».

ولقد انطوى نوح على خبر أولئك بما لامزيد عليه من المعرفة، ولكنّه الداعية الذي يتوسّل الصبر في الدعوة إلى الله والمواصلة على الطريق، رغم أشواك الطريق، وقلّة الناصر، وإجماع الناس على رفضه:

﴿قال الملأ من قومه إنّا لنراك في ضلال مبين﴾[٣] فيواجههم بمنطق الرسول الذي لا تختلف على حياته الضلالات:

﴿قال يا قوم ليس بي ضلالة ولكنّي رسولٌ من رب العالمين * أبلّغكم رسالات ربّي وأنصح لكم وأعلم من الله ما لا تعلمون * أوعجبتم أن جاءكم ذكرٌ من ربّكم على رجل منكم لينذركم ولتتقوا ولعلّكم ترحمون﴾.[٤]

فالمسألة لم تكن كما تطالعنا الآيات المباركات التي سنشير إليها فيما بعد، هي منطق إيمان وضلال، فلم يكن الذين يناقشون في هذا الاتجاه بذاك المستوى، بل هم بعيدون عنه، لأنّهم أخلدوا إلى الأرض وفتنوا بما فيها ومن يخلد إلى الأرض ينشغل بها ويغدو مشغولاً عن المبادئ والقيم.

إذن فالضلال الذي وصموا به نوحاً(ع) هو أنّه بشراً مثلهم، ولم يطيقوا ــ وهم أشراف القوم ــ أنّ أحداً يساويهم في البشريّة سيسحب البساط من تحتهم وينتقل بهذا الخلق إلى حيث يريد، وبالتالي سيديل كلّ وجود لهؤلاء الأشراف ويساوي بين الناس جميعاً:

﴿فقال الملأ الذين كفروا من قومه ما نراك إلاّ بشراً مثلنا وما نراك اتّبعك إلاّ الذين هم أراذلنا بادي الرأي وما نرى لكم علينا من فضل بل نظنّكم كاذبين﴾.[٥]

ولكنّه نوح، اجتباه الله لحكمه، وألهمه الصبر، وزرع فيه إرادة لاتقهر، ردّ عليهم بما لايقدرون على ردّه إلاّ بقبيح الاتّهام.

﴿قال يا قوم أرأيتم إن كنتُ على بيّنة من ربّي وآتاني رحمةً من عنده فعُمّيت عليكم أنلزمكموها وأنتم لها كارهون * ويا قوم لا أسالكم عليه مالاً إن أجري إلاّ على الله وما أنا بطارد الذين آمنوا إنّهم ملاقوا ربّهم ولكنّي أراكم قوماً تجهلون * ويا قوم من ينصرني من الله إن طردتهم أفلا تذكّرون * ولا أقول لكم عندي خزائن الله ولا أعلم الغيب ولا أقول إنّي ملك ولا أقول للذين تزدري أعينكم لن يؤتيهم الله خيراً الله أعلم بما في أنفسهم إنّي إذاً لمن الظالمين﴾.[٦]

فتبرّم به قومه وأظهروا وجهاً آخر قبيحاً: **﴿قالوا يا نوح قد جادلتنا فاكثرت جدالنا فاتنا بما تَعِدُنا إن كنت من الصادقين﴾**.[٧]

ثمّ دعوا الناس إلى التربّص به واتهموه

بالجنون ﴿إن وهـو إلاّ رجل بـه جنّـة فتربصوا به حتّى حين﴾.(٨)

﴿قالوا لئن لم تنتـه يا نوح لتكوننّ من المرجومين﴾.(٩)

وقد اختتم هذا المشهد بهذا النوع من الإجراء المحموم فانتقل نوح إلى مشهد آخر من مشـاهد كدحـه إلى الله وهو رفع تقـرير نهائي عمّا هم عليه منتظراً أمر الله تعالى بعد أن غلّقوا بوجهه المنافذ وسدّوا عليه الطرق.

﴿قـال ربّ إنّي دعـوت قـومـي ليـلاً ونهاراً فلم يزدهم دعائي إلاّ فراراً * وإنّي كلّما دعوتهم لتغفـر لهم جعلوا أصابعهم في آذانهـم واستغشـوا ثيـابهم وأصـرّوا واستكبـروا استكباراً * ثـمّ إنّي دعـوتهم جهاراً * ثمّ إنّي أعلنـت لهم وأسررت لهم إسراراً﴾.(١٠)

﴿فافتح بيني وبينهـم فتحاً ونجّني ومن معي من المؤمنين﴾.(١١)

فنزل الـوحي على نوح بأصداء بـاهرة ألقت على روحه الهدوء والاستقـرار فيما هو التكليف الجديد ﴿إنّه لن يؤمن من قومك إلاّ مـن قـد آمـن فـلا تبتئس بمـا كـانـوا يفعلون﴾.(١٢)

فـأمـره الله تعالـى أن يعمل سفينـة يقلّ فيها مـن المؤمنين فيمـا هو الغرق الشـامل الذي توعّد الله به الذين ظلموا.

﴿واصنع الفلك بأعينـنـا ووحينا ولا تخـاطبني في الذين ظلمـوا إنّهم مغرقون * ويصنـع الفلـك وكلّما مـرّ عليه مـلأ من قومه سخروا منه قال إن تسخروا منّا فإنّا نسخـر منكم كمـا تسخـرون * فسـوف تعلمون مـن يأتيه عـذاب يخزيـه ويحلّ عليه عذاب مقيم﴾.(١٣)

فلمّـا أتمّ نـوح سفينتـه جـاء أمـر الله ﴿ففتحنـا أبـواب السماء بمـاء منهمـر * وفجّرنـا الأرض عيوناً فالتقـى الماء على أمـر قد قـدر * وحملنـاه على ذات ألـواح ودسر﴾.(١٤)

ومشت السفينة وهي تقلّ الثلّة الطاهرة من البشر ونوح يصدح جذلاناً ﴿إركبوا فيها بسم الله مجراها ومرسـاها إنّ ربّي لغفور رحيم﴾.(١٥)

ولقد تولّدت لهـذا النبيّ الطاهر مشكلة وهي مشكلة ابنه الـذي تخلّف عن ركب أبيه ﴿وهي تجـري بهم فـي مـوج كالجبـال ونادى نوح ابنه وكـان في معزل يا بنيّ اركب معنا ولا تكن مع الكافرين﴾.(١٦)

فما الـذي غيّر اتّجاه هذا الابـن هل هو من الكافرين فعلاً؟

القرآن لم يصرّح بذلـك، بل ظاهر الآية أنّ نوحاً كـان يريد النجاة لابنـه، والنجاة لا تشمل إلاّ المـؤمنين به، ولم يكـن ذلك النبيّ

بالـذي يستجيب إلى العواطـف أو أن ينشدّ إلى البنوة، إذا كانت بمعزل عن دعوته، فتلك هي امـرأته شملها العـذاب لأنّها حـادت عن الصواب وتنكّبت الطريق المستقيم ﴿ضرب الله مثلاً للـذين كفـروا امرأة نـوح وامرأة لـوط كـانتـا تحت عبـديـن من عبـادنـا صالحين فخانتاهما﴾.[١٧]

إذن لـربّما كـان ابنه وهـو كمـا يرينـا مصيـره المعلوم قـد مال مـع من مـال مع الكافريـن، فيما هي العلاقات التـي تجرّ من يسترسل معها بدون وعي إلى مهاو سحيقة. ولم يكن ليـدين معهم فيما يعتقـدون، ولقد اعتبر الله عـزّوجلّ هذا النحو مـن الانسياب في الرضـى وعدم الوقوف بمضـاء مع نوح بمثابـة الكفر والمـرء مع من أحـبّ، فشمله العذاب، وإلاّ فلـوكان مـاحضاً في كفـره لم يكن من نـوح وهو الداعي على قـومه ﴿ربّ لاتذر على الأرض من الكافرين ديّاراً﴾[١٨] أن يدعوه ليركب معه ويعني ذلك نجاته.

إذن ننتقل إلـى سـذاجـة هـذا الـولـد وبساطتـه وجهله ﴿قـال سآوي إلـى جبل يعصمني من الماء قال لا عاصم اليوم من أمـر الله إلاّ من رحم وحـال بينهما المـوج فكان من المغرّقين﴾.[١٩]

فطفق نوح ينـادي ربّه فيما واجـه ابنه من مصير ﴿فقـال ربّ إنّ ابني مـن أهلي وإنّ وعـــدك الحــقّ وأنـــت أحكــم الحاكمين﴾.[٢٠]

وقـد أخـذ نـوح بظـاهـر الأهـل وأنّ المستثنى منهم هو امرأته الكافرة فقط ﴿قال يا نـوح إنه ليس مـن أهلك إنّه عمـل غير صالح فلا تسئلنِ مـاليس لك به علم إنّي أعظك أن تكـون من الجـاهلين* قـال ربّ إنّي أعوذ بك أن أسالك ماليس لي به علم وإلاّ تغفـــر لـي وتـــرحمنـي أكـن مـن الخاسرين﴾.[٢١]

فـانقطع عنـه السـؤال بهـذا التـأديب الإلهي واستـأنـف(ع) كلامـاً آخر صـورته صـورة التوبة، وحقيقتـه الشكر لما أنعم الله بهذا الأدب، الذي هو من النعمة فقال: ﴿ربّ إنّي أعـوذ بك أن أسـالك مـا ليس لي بـه علم﴾.

فاستعاذبربّه ممّـا كان من طبع كلامه أن يسوقه إليه وهو سؤال نجاة ابنه ولا علم له بحقيقة حاله.

ومن الدليل على أنّـه لم يقع منه سؤال بعد هو قوله: ﴿أعوذ بـك أن اسالك ...﴾ ولم يقل أعـوذ بك من سـؤال ماليس لـي به علم، لتدل إضافة المصـدر إلى فاعله وقوع الفعل منه، لاتسألنِ ولو كـان سـاله لكان من حقّ الكلام أن يقابل بـالردّ الصريح أو يقال مثلاً: ولا تعد إلى مثله.[٢٢]

وممّا نستلهمه من دعوة نوح، وما كان من أمر الناس الذين آمنوا به، وما كان مصير من خالفه وعانده:

١ـ إنّ المؤمن في الحياة لابدّ وأن يكون داعية صدق لهذا الإيمان ومجاهداً عنيداً، في سبيل الله تعالى، كما كان نوح النبيّ، وقافلة النبوّات عبر التاريخ، والصالحون من عباد الله على مرّ الدهور.

٢ـ أن يتوسّل الرسالي الأساليب المثلى في دعوته الناس حسب طبيعة الزمان والمكان؛ إذ طريقة العمل متروكة إليه فيما هي الساعات المتعدّدة والظروف المتباينة.

٣ـ سيتعرّض الرسالي إلى ألوان من المضايقات والتهم فلا ينكفئ أمامها لأنّ دربه طويل ولم يكن مفروشاً بالزهور فالهدى والضلال دوماً في صراع مستمر.

٤ـ فإذا ما انسدّت بوجهه السبل وضيّق اعداء الله عليه بما لايسمح له بالحركة، من خلال الجوّ المتاح، فإنّه سيلوذ ويعتصم بالله وهو وحده تعالى يملك أسباب خلاصه ونجاته كما فعل ذلك بنوح والثلّة الباهرة معه.

٥ـ قد يواجه الرسالي بعض أساليب السخريّة والاستهزاء وذلك للحطّ من قيمته في المجتمع فلا يألو جهداً من أن يستخدم هذا الأسلوب للالتفاف على أعداء الرسالة ﴿إن تسخروا منّا فإنّا نسخر منكم كما تسخرون﴾.

٦ـ لابدّ للرسالي أن يبتدئ أي عمل يقوم به ببسم الله الذي هو عنوان حركته كما يبتدئ الطغاة باسماء آلهتهم الموهومة.

٧ـ المبدأ أهمّ من المرتكز العاطفي، وهو أغلى من كلّ آصرة، فالرسالي من يفرّط بكلّ شيء من أجل الدين ﴿إنّه ليس من أهلك إنّه عمل غير صالح﴾.

٨ـ العلاقات القائمة على أساس الدين هي المطلوبة في حركة الإنسان في الحياة، والتي هي بعيدة عن أجوائه الحالمة، ولقد أودت بالكثير في متاهات وضياع.

٩ـ الأدب الإلهي المفيض على لسان السائر في طريق الله ما يعبّر عن حسّ مرهف وقلب طاهر نظيف ومفاهيمه عالية، فإذا ما دعونا الله تعالى فعلينا أن نقرأ أدب الدعاء عند أولياء الله وطريقة مناجاتهم وخطابهم لربّ العالمين كما قد قرأنا لنوح المتأدّب بآداب الله.

١٠ـ أن يتوفّر للمغيّر في طريق الله وفاء عالٍ لمن رافقه على دربه وشاركه لأواء الطريق ومحنته وأن لاينساه من صالح دعائه: ﴿ربِّ اغفرلي ولوالدي ولمن دخل بيتي مؤمناً وللمؤمنين والمؤمنات﴾.

١١ـ أن يكون شديداً على الكافرين:

﴿ربِّ لا تـذر من الكافـرين ديّـاراً* إنّك إن تـذرهـم يضلّـوا عبادك ولا يلـدوا إلاّ فاجـراً كفّاراً﴾ فالمؤمن يمتلك في أن يتحدّث بفراسته عن أنباء في الغيب كما تحدّث نوح عن أصلاب وأرحام الكافرين.

وسلام على نوح في العالمين.

الهوامش:

(١) الأعراف: ٥٩.

(٢) نوح: ١ـ٢٠.

(٣) الأعراف: ٦٠.

(٤) الأعراف: ٦١ـ٦٣.

(٥) هود: ٢٨.

(٦) هود: ٢٩ـ٣٢.

(٧) هود: ٣٢.

(٨) المؤمنون: ٢٦.

(٩) الشعراء: ١١٧.

(١٠) نوح: ٧ـ١٠.

(١١) الشعراء: ١١٨.

(١٢) هود: ٣٦.

(١٣) هود: ٣٧ـ٣٩.

(١٤) القمر: ١١ـ١٣.

(١٥) هود: ٤١.

(١٦) هود: ٤٢.

(١٧) التحريم: ١٠.

(١٨) نوح: ٢٦.

(١٩) هود: ٤٣.

(٢٠) هود: ٤٥.

(٢١) هود: ٤٥ـ٤٧.

(٢٢) انظر الميزان٦: ٢٧٠.



دور التدبير الإلهي في حركة المجتمع والتاريخ: قراءة قرآنية

الشيخ محمّد مهدي الآصفي



العوامل الأساسيّة في بناء التاريخ، وفي حركة عجلة التاريخ ثلاثة:

١ـ قانون العلّية:

وما يستتبع هذا القانون من علاقة حتمية بين الأحداث وأسبابها. وهذا القانون يقرّه القرآن الكريم ويبني عليه، ويعتبره أساساً من الأسس الرئيسة لفهم التاريخ والمجتمع، وقد شرحنا ذلك في بحث (المذهب التاريخي في القرآن) بتفصيل.[1]

يقول تعالى في تبيان الحتميّة التاريخيّة النابعة من قانون العلّية والسببيّة.

﴿واتّقوا فتنة لاتصيبنّ الذين ظلموا منكم خاصّة واعلموا أنّ الله شديد العقاب﴾.[2]

﴿فتلك بيوتهم خاوية بما ظلموا إنّ في ذلك لآية لقوم يعلمون﴾.[3]

٢ـ حرّية الارادة:

وهو العنصر الثاني من العناصر المكوّنة للتاريخ. وهذا العنصر في نفس الوقت الذي يؤدّي دوره في الدائرة الأولى (قانون العلّية) . . . يهيمن على هذه الدائرة ويوجّه عجلة التاريخ حيث يشاء من خطوط العلّية. فلا يستطيع الإنسان في حركة التاريخ أن يعطّل قانون العلّية و«القدر»، ولكن بامكانه أن يتحوّل من قدر إلى قدر آخر، ومن مسار من مسارات العلّية إلى مسار آخر. إنّ قانون العلّية يفعل فعله بشكل حتمي، ومن دون خلل أو عطل، ولكن بإمكان الإنسان أن يختار الجهة التي تسوقه بصورة حتميّة إلى الهلاك، أو تسوقه بصورة حتميّة إلى الحياة الطيّبة، تسوقه إلى الغنى أو إلى الفقر، إلى الفوضى في

الحياة الاجتماعيّة أو إلى النظام.

اذن يبقى قانون العلّية فاعلاً بصفته الحتميّة، ولكنّ الإنسان يبقى هو العنصر المهيمن على هذا القانون، من دون أن يخرج عن دائرة نفوذ الحتميّة العلّية.

﴿ذلك بأنّ الله لم يك مغيّراً نعمة أنعمها على قوم حتّى يغيّروا ما بانفسهم﴾.(٤)

﴿إنّ الله لايغيّر ما بقوم حتّى يغيّروا مابانفسهم﴾.(٥)

٣ـ التدبير الإلّهي:

وفيما تقتصر الماديّة التاريخيّة على العنصر الأول فقط في فهم التاريخ والمجتمع ـ وفي دائرة ضيّقة جدّاً ـ علاقات الإنتاج والتوزيع ـ هناك من ينظر إلى حركة التاريخ نظرة أكثر شمولاً وأوسع، ويعترف بالإنسان عنصراً فاعلاً ومؤثّراً في مسار التاريخ، ويعتبر التاريخ قائماً على هذين الأساسين فقط (الحتمية العلّية وحرّية الإرادة).

ولكنّ القرآن الكريم يضيف إلى هذين العاملين عاملاً ثالثاً أساسيّاً في حركة التاريخ، من دونه لانستطيع أن نفهم ونوجّه التاريخ في مسيره الطويل . . . وهو عنصر (التدبير الإلّهي).

علاقة التدبير بالعوامل الاخرى لحركة التاريخ

وهذا العنصر يهيمن على العنصرين الآخرين، في الوقت الذي لايعطل دور العنصر الاوّل ولايهدم تأثير العنصر الثاني في فهم حركة التاريخ ولهذا العنصر قوانينه وسننه الخاصّة به وطريقته الخاصّة في توجيه وتحريك التاريخ وله طريقته الخاصّة في التعامل مع العنصرين الآخرين، وهي طريقة دقيقة يحتاج فهمها واستيعابها إلى دراسة واسعة لسنا بصدده الآن.

الرؤية التوحيديّة لعوامل حركة التاريخ:

والمتتبع لآيات القرآن الكريم يجد بوضوح أنّ القرآن الكريم يفرز هذا العنصر كعامل مستقلّ عن العاملين الآخرين . . . في الوقت الذي ينسب كلا العاملين الأوّل والثاني إلى مشيئة الله ويقرّر أنّ الله تعالى هو مصدر كل شيء والسبب الذي إليه يعود كلّ سبب، والخالق الذي إليه تنتهي كلّ علّة وفعل في الكون، وفي الآخر فإنّ كلّ حركة في الكون والمجتمع تنتسب إلى الله تعالى من خلال هذه الرؤية التوحيديّة الشاملة، دون أن تعني سلب ارادة الإنسان وحرّيته أو تعطيل دوره في الحياة أو رفع المسؤوليّة عنه، . . . وهذه مسألة دقيقة بالغة الدقّة في

القرآن الكريم، وفي الوقتِ نفسهِ موضّحة توضيحاً كافياً في كتاب الله. وبناءً على هذه الرؤية التوحيديّة فإنّ الله تعالى هو مبدأ كلّ سبب وفعل في هذا الكون سواء منه ما يرجع إلى العنصر الأوّل أم إلى العنصر الثاني. وبهذه الرؤية فإنّ القرآن الكريم ينسب كلّ فعل في هذا الكون إلى الله تعالى، حتّى الأفعال التي تدخل في دائرة مشيئة الإنسان وإرادته.

يقول تعالى: **﴿وما تشاؤون إلاّ أن يشاء الله إنّ الله كان عليماً حكيماً﴾**.(٦)

﴿وما تشاؤون إلاّ أن يشاء الله ربُّ العالمين﴾.(٧)

﴿وإليه يرجع الأمر كلّه﴾.(٨)

﴿بل لله الأمر جميعاً﴾.(٩)

﴿لله الأمر من قبل ومن بعد﴾.(١٠)

﴿إنّ الله يفعل ما يريد﴾.(١١)

﴿إنّ ربّك فعّال لما يريد﴾.(١٢)

(التدبير) من العوامل المحرّكة للتاريخ

ومع ذلك فإنّ هناك في الطبيعة والتاريخ سلسلة من الأفعال الإلّهيّة لاتقع في هذه الدائرة أو تلك من العناصر المحرّكة للتاريخ، تجسّد رعاية الله تعالى وتدبيره لشؤون خلقه، والحضور المستمر للرعاية الإلّهيّة في المجتمع والطبيعة.

والقرآن الكريم يسمّي هذه السلسلة من الأفعال بـ(التدبير):

﴿إنّ ربّكم الله الذي خلق السماوات والأرض في ستّة أيّام ثمّ استوى على العرش يدبّر الأمر مامن شفيع إلاّ من بعد إذنه ذلكم الله فاعبدوه أفلا تذكّرون﴾.(١٣)

﴿يدبّر الأمر من السماء إلى الأرض﴾.(١٤)

وهذا التدبير شيء غير الخلق والتقدير. ويتمّ بعد الخلق والتقدير **﴿خلق السماوات والأرض ثمّ استوى على العرش يدبّر الأمر﴾**. وهو تنظيم عمل الطبيعة والمجتمع وتنسيق الأدوار ووضع الأشياء والأمور والأشخاص والأحداث في مواضعها التي تتطلبها حركة الطبيعة وحركة التاريخ التكامليّة والصاعدة.

الخلق، والتقدير، والتدبير:

ولا بد أن نقف وقفة قصيرة عند كلمة (التدبير) فهي من المصطلحات الإسلامية الأساسيّة الواردة في القرآن وجديرة بالكثير من التأمّل والتفكير.

والذي يتراءى لنا من القرآن أنّ مراحل خلق الله تعالى وصنعه وإدارته ورعايته لهذا الكون ثلاث... ولايعني بالضرورة أن تتعاقب هذه المراحل الثلاث بصورة يمكن فرز بعضها عن بعض، ووضع كلّ منها في

جدول زمني بعد الاخرىٰ. ولكن هذه المراحل أو الأفعال الثلاثة موجودة في خلق الله تعالى وصنعه ورعايته للكون وللانسان وهي:

١ـ الخلق.

٢ـ التقدير.

٣ـ التدبير

وإليك شرح هذه المراحل الثلاثة:

١ـ٣ (الخلق) و (التقدير):

الخلق والتقدير هو صنع وإيجاد مفردات هذا الكون وعناصره بموجب تقدير دقيق في الكيف والكمّ. ولو أختلّ هذا التقدير أختلّ نظام هذا الكون.

فإن الغلاف الجويّ مثلاً يتكوّن من مجموعة من العناصر خلقها الله تعالى للإنسان والحيوان والنبات على وجه الأرض بتقدير دقيق. ولو نقص بعض هذه العناصر أو اختلّ مقداره وكيفيته اختلّت حياة الإنسان والحيوان والنبات على وجه الأرض.

وخلق الله تعالى الأرض والشمس ووضع الأرض بتقدير دقيق في مدار الشمس ولو اختلّ هذا التقدير حتّى في زاوية انحراف محور الأرض من الشمس وفي المسافة الفاصلة بين الأرض والشمس وفي سرعة حركة الأرض الوضعيّة والانتقاليّة لاختلّت حياة الإنسان والحيوان والنبات في الأرض . . . وكذلك كلُّ ما في هذا الكون خلقه الله تعالى بتقدير دقيق في الكيف والكمّ والمكان والزمان، ولو اختلّ بعض هذا التقدير في الكون اختلّ نظام الكون. وفي الحقيقة أنّ هذا النظام يقوم على أساس (الخلق) و(التقدير) وباختلال أيّ منهما يختلّ النظام ولايستطيع أن يؤدّي دوره.

ولقد سأل فرعونُ موسى بنَ عمران عليه السلام حينما دعاه إلى الله تعالى عن ربّه فقال موسى عليه السلام: ﴿ربّنا الذي أعطى كلّ شيء خلقه ثمّ هدى﴾، [15] ومعنى ﴿أعطى كلّ شيء خلقه﴾: أعطاه ما يلزمه في حركته وأداء دوره وتكامله ونموّه من الخلقة والتكوين والشروط الضروريّة له. وهذا هو الذي نقصده من (التقدير) فإنّ التقدير الدقيق هو إعطاء كلّ شيء خلقه.

وفي هذا المعنى قوله تعالى: ﴿الذي خلق فسوّى والذي قدّر فهدى﴾. [16]

و﴿قدر فهدى﴾ في هذه الآية هي بمعنى ﴿أعطى كلّ شيء خلقه﴾ في سورة طه.

والهداية هنا تكوينية، وبمعنى ايصال الأشياء إلى غايتها من الكمال، وتمكين الأشياء من أداء دورها في هذا الكون.

ولايمكن أن تكون الهداية بمعنى

(الدلالة)، لأنّ القرآن صريح في أنّ الله تعالى قد هدى كلّ شيء: ﴿أعطى كلّ شيء خلقه ثمّ هدى﴾ وهذه الهداية لاتناسب إلاّ الهداية التكوينيّة بمعنى إيصال الكائنات إلى غايتها التي خلقها الله تعالى لها.

وهذه الهداية ينسبها القرآن الكريم إلى الله تعالى، كما ينسب عمليّة الخلق والتقدير على طريقة القرآن في نسبة عمل وحركة الأشياء إلى الله. هذه الهداية هي التقدير الدقيق الذي وضع الله تعالى الأشياء عليه.

وقد وردت كلمة (التقدير) في مقابل الخلق في مواضع مختلفة من القرآن:

يقول تعالى: ﴿والقمر قدّرناه منازل حتّى عاد كالعرجون القديم﴾.[١٧]

﴿هو الذي جعل الشمس ضياءً والقمر نوراً وقدّره منازل﴾.[١٨]

﴿والله يقدّر الليل والنهار﴾.[١٩]

﴿والشمس تجري لمستقرّ لها ذلك تقدير العزيز العليم﴾.[٢٠]

﴿وزيّنا السماء الدنيا بمصابيح وحفظاً ذلك تقدير العزيز العليم﴾.[٢١]

﴿له ملك السماوات والأرض ولم يتّخذ ولداً ولم يكن له شريك في الملك، وخلق كلّ شيء فقدّره تقديراً﴾.[٢٢]

ث-التدبير:

وبعد مرحلة الخلق والتقدير تأتي مرحلة التدبير والرعاية الإلّهيّة للكون.

والتدبير هو عمليّة إدارة الكون والتاريخ والمجتمع وتوجيه الأسباب بالاتّجاه الذي يحفظ نظام الكون والمجتمع وسلامتهماواستمرارها.

والتدبير يجد حضور رعاية الله تعالى وسلطانه وإرادته ومشيئته في إدارة الكون والمجتمع ولا تتم حركة الكون والمجتمع من دون حضور رعاية الله تعالى وتدبيره الدائم والمستمر. ولو أنّ الله تعالى أو كل المجتمع إلى نفسه وقطع عن الكون والمجتمع رعايته وتدبيره لاختل نظام التوازن فيهما.

التدبير الإلهي في المجتمع والتاريخ:

وبشكل خاصّ تبرز هذه الحقيقة في ساحة المجتمع والتاريخ والحضارة. فإنّ الله لو أوكل هذا الإنسان إلى نفسه وإلى الحتميات العلّية الحاكمة عليه لآل أمر المجتمع الإنساني إلى السقوط منذ عهد طويل، ولكنّ الله تعالى يتولّى المجتمع والتاريخ والحضارة برعايته وتدبيره المستمر، ويحفظ المجتمعات البشريّة من السقوط ويحفظ التوازن في حركتها.

ولقد أوشكت البشريّة على السقوط والنهاية مرّات كثيرة على عهود الجبابرة

والطغاة الذين عاثوا في الأرض فساداً فيما أشعلوه من الحروب الكونيّة الواسعة التي كادت تبيد المجتمعات البشريّة عامّة . . . ولقد وصلت البشريّة مرّات عديدة إلى طريق مسدود تماماً ففتح الله تعالى الطريق لإنسان من حيث لم يحتسب . . . ولقد وقعت البشريّة مرّات عديدة في طريق السقوط القطعي لولا أنّ الله تعالى أدركهم في آخر لحظة.

التدبير والسنن الإلّهيّة في حركة التاريخ:

ونماذج التدبير والرعاية الإلّهيّة لإدارة الكون والمجتمع كثيرة منها سنن (الابتلاء) و(المحن) و(التمحيص) و(الاستدراج) و(الإملاء) و(الاستبدال) و(العذاب) و(النعمة) و(بعثة الرسل) و(بسط الرزق) و(التقدير) و(الخصب) و(الجدب) و(التأييد) و(الخذلان) و(النعمة) و(الحرمان)، وما إلى ذلك من سنن الله تعالى. . . .

وكل ذلك يدخل في حقل التدبير الإلهي، وليس لها علاقة بحقل الخلق والتقدير.

والله تعالى يبسط الرزق لمن يشاء، ويقدر وينصر من يشاء، ويحجب النصر عمّن يشاء، ويبتلي من يريد، ويستدرج من يجب استدراجه، ويمكر، وينعم، ويهدي، ويضلّ، ويرسل الأنبياء . . . ولولا هذا التدبير الإلهي لما استقرّت حياة الإنسان على وجه الأرض، ولتهدّمت حضارة الإنسان وحياته منذ أمد طويل.

التدبير الإلهي من القرآن

وفيما يلي نستعرض طائفة من آيات القرآن التي تذكّر الإنسان بتدبير الله تعالى الدائم لحياته وحضور الرعاية الإلّهيّة في حياة الإنسان:

﴿قل اللهم مالك الملك تؤتي الملك من تشاء وتنزع الملك ممّن تشاء وتعزّ من تشاء وتذلّ من تشاء بيدك الخير إنّك على كلّ شيء قدير﴾.(٢٣)

﴿والله يقبض ويبسط وإليه ترجعون﴾.(٢٤)

﴿يَنصُرُ الله من يشاء وهو العزيز الحكيم﴾.(٢٥)

﴿أليس الله بكاف عبده ويخوّفونك بالذين من دونه ومن يضلل الله فماله من هادٍ ومن يهد الله فماله من مضلّ أليس الله بعزيز ذي انتقام﴾.(٢٦)

﴿ولو بسط الله الرزق لعباده لبغوا في الأرض، ولكن ينزّل بقدر ما يشاء إنّه بعباده خبير بصير وهو الذي ينزّل الغيث من بعدما قنطوا وينشر رحمته

وهو الوليّ الحميد﴾.[٢٧]

﴿له مقاليد السماوات والأرض يبسط الرزق لمن يشاء ويقدر إنّه بكل شيء عليم﴾.[٢٨]

﴿ما يفتح الله للناس من رحمة فلا ممسك لها وما يمسك فلا مرسل له من بعده وهو العزيز الحكيم﴾.[٢٩]

﴿إن يشأ يذهبكم ويأت بآخرين وكان الله على ذلك قديراً﴾.[٣٠]

ومن القرآن الكثير من الآيات التي تشير إلى حضور التأييد والرعاية الإلّهيّة في حياة الإنسان وتاريخه باستمرار خارج دائرة (الخلق) و(التقدير) الذين تحدّثنا عنهما من قبل.

التقدير والتدبير في القرآن

وفي القرآن طائفة أخرى من الآيات تشير الى مراحل الخلق والتقدير والتدبير جميعاً وما يستلزم التدبير من الهيمنة والاستيلاء والسلطان المطلق على هذا الكون.

ونتلو عليك فيما يلي طرفاً من هذه الآيات:

﴿إنّ ربّكم الله الذي خلق السماوات والأرض في ستّة أيّام ثمّ استوى على العرش يدبّر الأمر ما من شفيع إلاّ من بعد إذنه ذلكم الله ربّكم فاعبدوه أفلا تذكّرون﴾.[٣١]

والآية الكريمة تشير إلى ثلاثة أصول هامّة:

١ـ الخلق والتقدير ﴿الذي خلق السماوات والأرض﴾.

٢ـ الهيمنة والسلطان الإلّهي المطلق على الكون ﴿ثمّ استوى على العرش﴾.

٣ـ التدبير وادارة الكون ﴿يدبّر الأمر﴾.

﴿إنّ ربّكم الله الذي خلق السماوات والأرض في ستّة أيّام ثمّ استوى على العرش يغشي اللّيل النهار يطلبه حثيثاً والشمس والقمر والنجوم مسخّرات بأمره ألا له الخلق والأمر تبارك الله ربُّ العالمين﴾.[٣٢]

﴿الله الذي خلق السماوات والأرض وما بينهما في ستّة أيّام ثمّ استوى على العرش مالكم من دونه من وليٍّ ولاشفيع أفلا تتذكّرون﴾.[٣٣]

وفي هذه الآية الكريمة نقرأ أوّلاً الخلق والتقدير، ثمّ الاستيلاء على العرش، والهيمنة المطلقة على الكون، ثمّ الأمر ﴿له الخلق والأمر﴾ والأمر كلّه لله ﴿مالكم من دونه من ولي ولا شفيع﴾.

﴿هو الذي خلق السماوات والأرض في ستّة أيّام ثمّ استوى على العرش

يعلم ما يلج في الأرض وما يخرج منها وما ينزل ن السماء وما يعرج فيها وهو معكم أينما كنتم والله بما تعملون بصير* له ملك السماوات والأرض وإلى الله ترجع الأمور* يولج الليل في النهار ويولج النهار في الليل وهو عليم بذات الصدور﴾.[٢٤]

وهذه الآية المباركة تقرّر أنّ الخلق والتقدير لله تعالى:

﴿خلق السماوات والأرض في ستّة أيّام﴾ وكذلك له الهيمنة الكاملة على الكون: ﴿ثمّ استوى على العرش﴾ وله تعالى الإحاطة بكل ما يجري في هذا الكون والحضور في كلّ شيء وفي كل مكان: ﴿يعلم ما يلج في الأرض وما يخرج منها وما ينزل من السماء وما يعرج فيها﴾

وله تعالى المعيّة الكاملة للإنسان ﴿وهو معكم أينما كنتم﴾.

ثم التدبير والتصرّف في الكون ﴿وإلى الله ترجع الأمور﴾.

الاستيلاء على العرش والهيمنة

ومسأله (الاستيلاء على العرش) التي سبقت الإشارة إليها، وورد ذكرها في طائفة من آيات القرآن وذكرنا شطراً منها نقطة فارقه في التصوّر الإسلامي عن التصوّر الجاهلي.

فليس كلّ التصوّرات الجاهليّة مبنيّة على الإلحاد ونفي وجود الله تعالى. بل هناك طائفة من التصوّرات الجاهليّة يؤمن أصحابها بالله تعالى كاليهودية ــ مثلا ـ والتصوّرات الجاهليّة الغربيّة التي تؤمن بالمسيحيّة.

وأصحاب هذه التصوّرات يؤمنون بأنّ الله تعالى خلق هذا الكون وقدّره تقديراً، ولكنّ تصوّراتهم لله تعالى وللكون قائمة على نفاذ دور الله عند الخلق والتقدير، وإيكال أمر الكون والناس إلى القوانين الحتميّة وإلى الناس من جانب الله تعالى وانعدام الهيمنة والسلطان الإلهي على الكون والمجتمع.

والمجتمع والتاريخ والحضارة تجري بموجب هذه السنن والقوانين وبموجب إرادة الإنسان وفعله في غياب عن حضور التدبير والرعاية والسلطان الإلهي . . . كما يتحرّك جهاز ميكانيكي صنعه المهندس في غيابه، وبموجب القوانين التي اكتشفها، والقرآن الكريم ينسب هذا التصوّر إلى اليهود.

﴿وقالت اليهود يدُ الله مغلولة غلّت أيديهم ولعنوا بما قالوا بل يداه مبسوطتان﴾.[٣٥]

والتصوّر القرآني في مقابل هذا

التصوّر الجاهلي: ﴿بل يداه مبسوطتان﴾ وهو تصوّر عميق قائم على أساس الإيمان بسلطان الله تعالى، وهيمنته على الكون واحاطته بما يجري فيه من صغير وكبير.

والأمر كلّه في هذا الكون يرجع إليه تعالى. وحضوره الفاعل والمدبّر والميهمن والمحيط دائم مستمر في الكون والمجتمع لاينقطع ولا يغيب، وهو سبحانه يدبّر الأمر في الكون والمجتمع، ويديره، ويصلحه باستمرار، برحمته، وحكمته، وعلمه، وسلطانه.

وقد نجد إشارة لهذا التصوّر الجاهلي اليهودي فيما بين أيدينا من نسخة العهد القديم الذي تعرّض للانحراف على يد اليهود.

[فأكملت السماوات والأرض وكلّ جندها وفرغ الله في اليوم السابع من عمله الذي عمل فاستراح في اليوم السابع من جميع عمله الذي عمل وبارك الله اليوم السابع وقدّسه لأنّه فيه استراح من جميع عمله الذي عمل الله خالقاً].[٣٦]

... هكذا: إنّ الله استراح في اليوم السابع من جميع عمله الذي عمل... إنّ هذا التصوّر لايبعد عن الصورة التي نقلناها عن التصوّرات الجاهلية في نفاذ دور الله تعالى عند مرحلة الخلق والتقدير.

ولنتأمل في هذه الفقرات الأربعة من آية الكرسي من سورة البقرة.[٣٧]

١ـ ﴿الله لا إلَه إلاّ هو الحيّ القيوّم﴾

والقيوّم هنا هو القائم بالكون والذي به يتقوّم الكون.

يقول الشيخ الصدوق في التوحيد [٢٨] (القيوّم من قمتَ بالشيء اذا وليتَهُ بنفسك وتولّيتَ حفظَه وإصلاحَه وتقديرَه).

والله تعالى قائم بهذا الكون لايغيب عنه ولا يستقيم الكون من دونه.

٢ـ ﴿له ما في السماوات والأرض﴾

وهذه الفقرة تخصّ مالكية الله المطلقة للكون.

٣ـ ﴿يعلم ما بين أيديهم وما خلفهم﴾

وهي تخصّ إحاطته علمه المطلقة بما في هذا الكون.

٤ـ ﴿وسع كرسيّه السماواتِ والأرضَ﴾

والكرسي تعبير مجازي عن السلطان والهيمنة ومعنى هذه الفقرة من الآية الكريمة: إحاطة سلطان الله تعالى بالكون وهيمنته ونفوذ سلطانه تعالى على الكون.

المحو والإثبات

ولعلّه إلى هذه الحقيقة يشير قوله تعالى ﴿يمحو الله ما يشاء ويثبت وعنده أم الكتاب﴾.[٣٩]

فـانّ التدبيـر يتطلّب المحو والإثبـات بصورة دائمة ومستمـرّة: ولادة أمّة وسقوط أخرى، ونصر لقوم وهزيمة لأخرين، وابتلاء لأقـوام واستدراج لآخـرين، وهـلاك قـوم وهداية آخرين، واستبـدال قوم بقوم . . . كلّ هذه الأحداث التي تجـري بصورة مستمرّة بـإرادة الله تعـالـى في صفحـــة التـاريـخ والمجتمع، من المحو والإثبات.

ولـوح المحو والإثبـات، هذا، يحتـوي على هـذه الطـائفة الـواسعـة من الأحـداث المتحـرّكة والمتغيّـرة في سـاحـة المجتمع والتـاريخ ولا يعنـي ذلك أنّ هـذه الأحـداث والتبدلات المستمرّة تحدث، بصـورة عفوية واعتباطيّة وإنّما تحدث بمـوجب سنن ثابتة لله تعالى لا تتحوّل ولا تتغيّر.

وقد روي عن أبي عبدالله الصادق(ع): (أن الله يقـدّم ما يشـاء، ويؤخّـر ما يشـاء، ويمحو ما يشاء، ويثبـت ما يشاء، وعنده أمّ الكتاب). وقـال: (كلّ امر يريـده الله فهو في علمه قبل أن يضعه. وليس شيء يبدو له إلا وقـد كـان في علمـه. إنّ الله لايبـدو لـه من جهل).[٤٠]

حفـظ المـوازنـة فـي حيــاة الإنسان

ولولا استمـرار حضور التدبّـر الإلهي للمجتمع والحضـارة الإنسـانيـة والتـاريخ لسقطت الحضـارة الإنسانيـة والمجتمعات البشريّة منذ عهد طويل.

فإنّ حركـة الإنسـان العامّة، كمـا يقول تعالى إلى خسر ﴿والعصر إنّ الإنسان لفي خسر﴾[٤١] وبعض هذا الطيش، والاستكبار، والـزيـغ، والضـلال والخـراب، والـدمـار، والإفساد الـذي يمارسه الإنسـان على وجه الأرض يكفي لتـدمير الحضـارة الإنسانيـة عامّة، لولا أن تتدارك الرحمة الإلّهيّة الإنسان . . . وتخـرجه مـن الطريـق المسدود الـذي ينتهـي إليـه، تنقـذه مـن الهـوّة السحيقـة والهلاك الذي يؤول أمره إليه.

إنّنا عندما ننعم النظر في مسار التاريخ ومـا يظهـر على هـذا المسـار مـن أحـداث صغيرة وكبيرة نلمس يد الله تعالى في تدبير المجتمع وتنظيم مسير التاريخ واستمرارية حيـاة الإنســان على ظهـر الأرض، ونشعـر بشكل واضح أنّ حركة التـاريخ لم يكن من الممكن أن تستمر لولا يد الله تعالى وتدبيره ورعـايتـه لمسيـرة الحضـارة والحيـاة الإنسـانيّة.

ونجد في القرآن الكـريم بشكل خاصّ الاهتمـام بتقريـر وتثبيت حضور الـرعايـة والتـدبيـر الإلّهي فـي حـركـة التـاريـخ والمجتمع.

ولنقرأ طرفاً مـن الآيات التي تشير إلى حضـور الرعـاية والتدبير الإلهي فـي حركة التاريخ

﴿وقضينـا إلـى بني إســرائيل فـي الكتاب لتُفسدُنّ في الأرض مرّتين ولتعلُنّ

علوا كبيراً* فإذا جاء وعد أولاهما بعثنا عليكم عباداً لنا أولي بأس شديد فجاسوا خلال الديار، وكان وعداً مفعولاً* ثم رددنا لكم الكرّة عليهم وأمددناكم بأموال وبنين وجعلناكم أكثر نفيراً﴾.[٤٢]

﴿لقد صدق الله رسوله الرؤيا بالحقّ لتدخلُنّ المسجد الحرام إن شاء الله آمنين محلّقين رؤوسكم ومقصّرين لاتخافون فعلم مالم تعلموا فجعل من دون ذلك فتحاً قريباً﴾.[٤٣]

﴿الّم غلبت الروم في أدنى الأرض وهم من بعد غلبهم سيغلبون* في بضع سنين لله الأمر من قبل ومن بعد ويومئذٍ يفرح المؤمنون بنصر الله ينصر من يشاء وهو العزيز الرحيم* وعد الله لايخلف الله وعده ولكنّ أكثر الناس لايعلمون﴾.[٤٤]

﴿لقد نصركم الله في مواطن كثيرة ويوم حنين إذ أعجبتكم كثرتكم فلم تغن عنكم شيئاً وضاقت عليكم الأرض بما رحبت ثمّ ولّيتم مدبرين ثمّ أنزل الله سكينته على رسوله وعلى المؤمنين وأنزل جنوداً لم تروها وعذّب الذين كفروا وذلك جزاء الكافرين﴾.[٤٥]

﴿إلاّ تنصروه فقد نصره الله إذ أخرجه الذين كفروا ثاني اثنين إذ هما في الغار اذ يقول لصاحبه لا تحزن إنّ الله معنا فأنزل الله سكينته عليه وأيّده بجنود لم تروها وجعل كلمة الذين كفروا السفلى وكلمة الله هي العليا والله عزيز حكيم﴾.[٤٦]

﴿إذ تستغيثون ربّكم فاستجاب لكم إنّي ممدكم بألف من الملائكة مردفين وما جعله الله إلاّ بشرى ولتطمئن به قلوبكم وما النصر إلاّ من عند الله إنّ الله عزيز حكيم إذ يوحي ربّك إلى الملائكة إنّي معكم فثبّتوا الذين آمنوا سألقي في قلوب الذين كفروا الرعب فاضربوا فوق الأعناق واضربوا منهم كلّ بنان﴾.[٤٧]

والمشاهد التي يرسمها القرآن الكريم لتدخّل المشيئة الإلّهية في حركة التاريخ وحضور الرعاية والتدبير الإلّهي في سيرة الحضارة البشرية كثيرة لسنا بصدد إحصائها ... والقرآن الكريم يؤكّد بشكل خاصّ حضورَ الرعاية والتدبير الإلّهي في حركة التاريخ.

ويقرأ الإنسان هذه الآيات المباركات وغيرها من الآيات فيشعر بفاعلية (يدالله) في التاريخ. يضع هذا ويرفع ذاك ــ ويعزّ هذا ويذلّ ذاك ﴿قل اللهم مالك الملك تؤتي الملك من تشاء وتنزع الملك ممّن تشاء وتعزّ من تشاء وتذلّ من تشاء بيدك الخير إنّك على كلّ شيء قدير﴾،[٤٨] ينصر قوماً، ويخذل آخرين، ويمهل ناساً، ويستدرجهم، ثمّ ياخذهم أخذ عزيز مقتدر وينتصر لقوم، ويتخلّى عن آخرين، بما

تتطلّبه حكمة الله تعالى ورحمته وعدله وفضله، جلّت قدرته وحكمته.

الهوامش:

(١) تراجع مجلّة رسالة القرآن: العدد الأوّل (محرّم ـ ١٤١١هـ)، والعدد الثاني (ربيع الثاني ـ ١٤١١هـ).
(٢) الأنفال: ٢٥.
(٣) النمل: ٥٢.
(٤)الأنفال: ٥٣.
(٥) الرعد: ١١.
(٦) الدهر: ٣٠.
(٧) التكوير: ٢٩.
(٨) هود: ١٢٣.
(٩) الرعد: ٢٢.
(١٠) الروم: ٤.
(١١) الحجّ: ١٤.
(١٢) هود: ١٠٨.
(١٣) يونس: ٣.
(١٤) السجدة: ٥.
(١٥) طه: ٥٠.
(١٦) الأعلى: ٢.
(١٧) يس: ٣٩.
(١٨) يونس: ٥٠.
(١٩) المزمّل: ٢٠.
(٢٠) يس: ٣٨.
(٢١) فصّلت: ١٢.
(٢٢) الفرقان: ٢.
(٢٣) آل عمران: ٢٦.
(٢٤) البقرة: ٢٤٥.
(٢٥) الروم: ٥.
(٢٦) الزمر: ٣٦ـ٣٧.
(٢٧) الشورى: ٢٧ـ٢٨.
(٢٨) الشورى: ١٢.
(٢٩) فاطر: ٢.
(٣٠) النساء: ١٣٣.
(٣١) يونس: ١٠.
(٣٢) الأنعام: ٥٤.
(٣٣) التنزيل: ٤.
(٣٤) الحديد: ٥ـ٧.
(٣٥) المائدة: ٦٤.
(٣٦) العهد القديم: كتاب التكوين، الإصحاح الأوّل.
(٣٧) البقرة: ٢٥٥.
(٣٨) التوحيد للصدوق: ٣١٠.
(٣٩) الرعد: ٣٩.
(٤٠) تفسير الميزان١١: ٣٨٨(ط٢).
(٤١) العصر: ١ـ٢.
(٤٢) الإسراء: ٤ـ٧.
(٤٣) الفتح: ٢٧.
(٤٤) الروم: ١ـ٦.
(٤٥) التوبة: ٣٦.
(٤٦) التوبة: ٣٦.
(٤٧) الأنفال: ٥ـ١٤.
(٤٨) آل عمران: ٢٦.

المسؤوليات الفردية والاجتماعية المتقابلة في القرآن الكريم

الشيخ جعفر الهادي

الاسلام دين المسؤوليّة

يتّسم الدين الإسلامي بسمات عديدة أبرزها أنّه دين المسؤولية بمعنى أنّه لايكتفي بفرض سلسلة من الشعائر العبادية على معتنقيه فحسب، بل يكلّفهم بمسؤوليّات متنوعة، ويطالبهم بالقيام بها بجدّية وإصرار، ويؤاخذهم إذا هم تقاعسوا عن أدائها واحترامها.

وتتجلّى هذه السمة في التعابير التي وردت في القرآن الكريم وهي تتحدّث عن المسؤوليات إمّا تصريحاً أو تلويحاً.

القرآن والمسؤولية

١ـ ﴿فوربّك لنسألنّهم أجمعين﴾ (١)

٢ـ ﴿فلنسألنّ الّذين أُرسل إليهم ولنسألنّ المرسلين﴾ (٢)

٣ـ ﴿ولاتقفُ ماليس لك به علم إنّ السمع والبصر والفؤادَ كلُّ أُولئك كان عنه مسؤولاً﴾ (٣)

٤ـ ﴿وقفوهم إنّهم مسؤولون﴾ (٤)

٥ـ ﴿وأوفوا بالعهد إنّ العهد كان مسؤولاً﴾ (٥)

٦ـ ﴿وانّه لذكرٌ لك ولقومك وسوف يسالون﴾ (٦)

٧ـ ﴿ولقد كانوا عاهدوا الله من قبل لايولّون الأدبار وكان عهد الله مسؤولاً﴾ (٧)

٨ـ ﴿واتقوا الله الّذي تساءلون به والأرحام﴾ (٨)

٩ـ ﴿وارجعوا إلى ما أُترفتم فيه ومساكنكم لعلّكم تُسالون﴾ (٩)

١٠ـ ﴿ثم لتُسألُنّ يومئذ عن النّعيم﴾ (١٠)

١١ـ ﴿تالله لتُسألُنّ عمّا كنتم

تفترون﴾[11]

١٢ـ ﴿وإذا الموؤدة سُئلَت بأي ذنبٍ قُتلت﴾[12]

١٣ـ ﴿ولتُسألُنَّ عمّا كنتم تعملون﴾[13]

١٤ـ ﴿أشهدوا خلقهم ستُكتب شهادتُهم ويُسألون﴾[14]

في هذه الآيات تصريح بأنّ المسؤولية عامّة تشمل الجميع، أنبياءَ ورعايا، أفراداً وجماعات، وأن النّاس مسؤولون عن كلّ شيء وُضِع تحت تصرّفهم وعن كل عمل يقومون به، وكل كلمة يتلفظون بها.

القرآن والمحاسبة (الّتي هي فرع المسؤولية)

ونعرف هذه المسؤولية من عبارات أُخرى مثل لفظة «الحساب» و«المحاسبة» التي وردت في القرآن عدة مرات.

قال سبحانه:

١ـ ﴿ومن يكفر بآيات الله فان الله سريع الحساب﴾[15]

٢ـ ﴿ليجزي الله كل نفس ما كسبت إنّ الله سريع الحساب﴾[16]

٣ـ ﴿إنّ الّذين يضلّون عن سبيل الله لهم عذاب أليم بما نسُوا يوم الحساب﴾[17]

٤ـ ﴿لا ظلم اليوم إنّ الله سريع الحساب﴾[18]

٥ـ ﴿ومن يدع مع الله إلهاً آخر لابرهان له به فانّما حسابه عند ربّه﴾[19]

٦ـ ﴿وإن تبدوا ما في أنفسكم أو تخفوه يحاسبكم به الله﴾[20]

٧ـ ﴿وإن كان مثقال حبّة من خردل أتينا بها وكفى بنا حاسبين﴾[21]

٨ـ ﴿وكأيّن من قرية عتت عن أمر ربّها فحاسبناها حساباً شديداً﴾[22]

٩ـ ﴿فانّما عليك البلاغ وعلينا الحساب﴾[23]

١٠ـ ﴿إنّ إلينا إيابهم ثم إنّ علينا حسابهم﴾[24]

١١ـ ﴿اقترب للناس حسابهم وهم في غفلةٍ معرضون﴾[25]

١٢ـ ﴿إن حسابهم إلاّ على ربّي لو تَشعرون﴾[26]

١٣ـ ﴿وكلّ إنسان ألزمناه طائره في عنقه ونخرج له يوم القيامة كتاباً يلقاه منشوراً* إقرأ كتابك كفى بنفسك اليوم عليك حسيباً﴾[27]

١٤ـ ﴿وحشرناهم فلم نغادر منهم أحداً. وعرضوا على ربّك صفاً لقد جئتمونا كما خلقناكم أوّل مرة بل زعمتم أنْ لن نجعل لكم موعداً* ووضع الكتاب

فتــرى المجــرميــن مشفقيــن ممــا فيـــه ويقولون يا ويلتنا ما لهذا الكتاب لايغادر صغيرةً ولا كبيرةً إلاّ أحصاها ووجدوا ما عملوا حاضراً ولا يظلم ربُّك أحداً﴾ (٢٨)

والتعبير عن الحساب والمحاسبة على الأقوال والأفعال هو الوجه الآخر للتعبير عن المسؤولية لأن المحاسبة فرع المسـؤولية ونـابعة منهـا، فـالمسؤول هـو المحـاسَب والمحاسَبُ هو من يكون مسؤولاً عن شيء.

القـرآن والمـؤاخـذة (التي هــي نتيجة المسؤولية)

وهكـذا تعرف المسـؤوليـة من لفظـة «المؤاخذة» قـال الراغب الأصفهاني: وقـوله تعالى: ﴿ولو يؤاخـذ الله النّاس بظلمهم﴾ فتخصيص لفظ المـؤاخذة تنبيـه على معنى المجازاة والمقـابلة لما أخـذوه من النعم فلم يقابلوه بالشكر. (٢٩)

وقـد وردت هـذه اللفظـة فـي القـرآن الكريم مراراً، وهي تعكـس مسؤولية الناس عن أعمالهم وتصرفاتهم أمام الحق تعالى.

يقول تعالى:

١ـ ﴿لايؤاخذكم الله باللغو في أيمانكم ولكن يـؤاخذكم بمـا كسبت قلـوبكم والله غفور حليم﴾ (٣٠)

٢ـ ﴿لايؤاخذكم الله باللغو في أيمانكم ولكن يؤاخذكم بما عقّدتم الأيمان﴾ (٣١)

٣ـ ﴿ولو يؤاخذ الله النّاس بما كسبوا ما ترك على ظهرها من دابّة﴾ (٣٢)

٤ـ ﴿ولو يؤاخذ الله النّاس بظلمهم ما ترك عليها من دابّة﴾ (٣٣)

٥ـ ﴿لو يؤاخذهـم بما كسبوا لعجّل لهم العذاب﴾ (٣٤)

إنّ المؤاخـذة تكشف عن المسـؤوليّة، فما لم يكن الانسانُ مسـؤولاً أمام أحد وعن شيء لا يـؤاخـذ على تـرك واجبه، وأهمـال وظيفته، ولا يؤخذ بالعذاب والعقاب.

إنّ المحاسبة والمـؤاخذة تكشفان عن أنّ الإنسان في نظر القرآن مسؤول تجاه الله تعالى، بمعنى أنّ الإنســان مكلّف بأن يقوم ببعض الأشياء، وبأن يقدّم حساباً إلى الله.

السنّة تـؤيد الكتـاب في تأكيـد المسؤولية

ولقـداكّدت السنّـة النبويـة الشريفـة، وأحاديث العترة الطاهـرة قضية المسؤولية بعبارات صريحة لاغبش فيها ولا غبار عليها وأتت في هذا المجال بتفاصيل وجزئيات هي بمثابة تبيين لما أجمله القرآن، وتوضيح لما قصده، وأشـار إليه، وفيما يأتـي نماذج من تلك الأحاديث الشريفة:

١ـ عن رسول الله صلّى الله عليه وآله قال:

(لاتزول قدما عبدٍ يوم القيامة حتى يُسألَ عن عمره فيم أفناه؟ وعن عمله فيم عمل؟ وعن ماله مِمَّ اكتسبه وفيم انفقه ؟ وعن جسمه فيم أبلاه؟)[٣٥]

٢ـ وعن رسول الله صلّى الله عليه وآله أيضاً، قال:

(كُلُّكم راعٍ، وكُلُّكم مسؤول عن رعيّته. الإمام راع ومسؤول عن رعيته، والرجل راع في أهل ومسؤول عن رعيّته، والمرأة في بيت زوجها راعية ومسؤولة عن رعيتها، والخادم راع في مال سيّده ومسؤول عن رعيته)[٣٦]

وفي رواية أُخرى:

(والمرأة راعية على بيت بعلها وولده وهي مسؤولة عنهم)[٣٧]

٣ـ وقال رسول الله صلّى الله عليه وآله أيضاً:

(إنّي مسؤول وإنّكم مسؤولون)[٣٨]

٤ـ وقال أمير المؤمنين علي بن أبي طالب عليه السلام:

(أوصيكم بتقوى الله فيما أنتم عنه مسؤولون وإليه تصيرون فان الله عزّوجلّ يقول: ﴿كل نفس بما كسبت رهينة﴾، ويقول: ﴿ويحذركم الله نفسه وإليه المصير﴾، ويقول: ﴿فوربّك لنسألنهم اجمعين عمّا كانوا يعملون﴾ فاعلموا يا عباد الله ان الله عزوجل سائلكم عن الصغير من عملكم والكبير....»)[٣٩]

٥ـ وقال عليه السلام أيضاً:

(اتّقوا الله في عباده وبلاده فانّكم مسؤولون حتى عن البقاع والبهائم)[٤٠]

٦ـ وقال صلوات الله عليه كذلك:

(كن مشغولاً بما انت عنه مسؤول)[٤١]

هذه هي بعض الآيات والأحاديث الصريحة في ذكر المسؤولية، والتي استخدمت عين هذه اللفظة، وأما الّتي تتضمن الاشارة بل (التصريح) إلى معنى «المسؤولية» فاكثر من أن تحصى.

فكل الآيات والأحاديث التي تحثّ الإنسان على العمل بالواجبات الإلَهية المختلفة وتحذّره من مغبّة إهمالها أو تركها، أوالاخلال بها وهي في الحقيقة تنبئ عن وجود «المسؤولية» وان الانسان ليس متروكاً وشأنه في هذه الحياة بل عليه مسؤوليات مختلفة يتحتم عليه القيام بها وأداؤها أحسن أداء.

نعم رفع القلم (أي قلم المسؤولية والحساب والمؤاخذة) عن ثلاثة هم النائم والمجنون والصبيّ كما قال رسول الله صلّى الله عليه وآله:

(رفع القلم عن النائم حتى يستيقظ، وعن المجنون حتى يبرأ ،أويفيق كما في

رواية، وعن الصبيّ حتى يكبر.) [٤٢]

وكذا عن الحيوانات والعجماوات كمال قال:

(العجماء جبار) [٤٣] يكون خطاب المسؤولية يتوجّه إلى العاقل البالغ الواعي، فان قلم المسؤولية والمؤاخذة والمحاسبة مرفوع عن هؤلاء لأنّ المسؤولية فرع الإرادة والاختيار والعلم والقصد.

أنواع المسؤولية

وتتنوع المسؤولية الملقاة على عاتق الانسان في الاسلام إلى أنواع عديدة.

فالإنسان أساساً مسؤول أمام الله تعالى لاغيره، كما عرفنا ذلك من الآيات السابقة ومن قوله تعالى: **﴿إنَّ إلينا إيابهم ثمَّ إنَّ علينا حسابهم﴾** [٤٤]، وهذه المسؤولية هي وحدها الملزمة والفاعلة والمؤثرة في سلوك الانسان.

أمّا ما يقال الآن في بعض المجتمعات من أنّ الإنسان مسؤول أمام الضمير، أو التاريخ أو الشعب أو الأجيال القادمة وما شاكل ذلك فهي أُمورٌ باطلة، كما أنّه ثبت عدم فاعليتها وفائدتها، لأنّ العادة والوراثة وأثر البيئة الاجتماعية والمصالح المباشرة تفسد نوازع الإنسان وتلقي أنواعاً من الضلال على نور بصيرته الفطرية، فلا تستطيع أيٌّ من المقولات الأخيرة أن تعيد الفطرة إلى جادتها الطبيعية السليمة، إلاّ بربطها بالحق تعالى، وتخويف الإنسان من سخطه وسطوته وعقابه ونكاله إلى جانب تبشيره بوعوده الصادقة. قال الله تعالى **﴿إنّما يخشى اللهَ من عباده العُلَمَاءُ﴾** [٤٥]

أجل، العارفون به، والعالمون بقدرته وعلمه هم الّذين يخشونه، ويتّقونه، حقّ تقاته.

ثم إنّ الإنسان مسؤول عن النعم الّتي أُوتيها، وعن نفسه وعن أهله وأولاده وعن وقته وعمره وعن مجتمعه وعن الأجيال القادمة وعن أمانة العلم والدين.

(فالأب مسؤولٌ عن رفاهية أولاده المادية والأخلاقية والمربّي مسؤول عن الثقافة الأخلاقية والعقلية للشباب، والعامل مسؤول عن تنفيذ علمه وكماله، والقاضي عن توزيع العدالة، والشرطي عن الأمن العام، والجندي عن حفظ الوطن، كذلك نحن - فرادى - مسؤولون عن طهارة قلوبنا، واستقامة أفكارنا، كما أننا مسؤولون عن حماية صحتنا وحياتنا، حتى أننا نستطيع أن نجد في كل لحظة من لحظات الانسانية بعض المسؤوليات» [٤٦]

وعلى هذا فان أبرز التقسيمات للمسؤولية هو تنوّعها إلى:

١ـ المسؤولية الفردية.

٢ـ المسؤولية الاجتماعية (أو الجماعية)

ويراد من المسؤولية الفردية مسؤولية الفرد عن نفسه ومجتمعه.

كما ويراد من المسؤولية الاجتماعية (اوالجماعية) مسؤولية الجماعة عن الفرد، ومسؤولية الجماعة عن الجماعة.

إنّ الاسلام يعتبر الفرد مسؤولاً عن تصرفات نفسه وأفعاله، بمعنى أنّ عليه أن يضبطها بضوابط الدين، ويأتي بها في حدود الشريعة ويتجنّب المعاصي الالّهية قدر الإمكان.

كما أنّه يعتبر الفرد مسؤولاً عن مجتمعه بمعنى أنّ عليه أن يجنّب مجتمعه ـ ما استطاع ـ عن الانحراف والزيغ عن سبيل الله وصراطه المستقيم ويبقي على سلامته واستقامته ما أمكن، ولو ترك هذه المهمة لَحُوسِب عليها وأُوخذ.

ومن جانب آخر يعتبر الاسلام المجتمع مسؤولاً عن الفرد بمعنى أنّ على المجتمع أن يهيئ للفرد أجواء الاستقامة والصلاح ويعمل على ايجاد الفرص اللازمة لكماله، ورقيّه المعنويّ.

كما أنّه يعتبر الجماعة المسلمة معنيّة بالجماعات الأخرى اسلامية وغير إسلامية مسؤولة عن صيانتها وسلامتها وعن تقويمها وارشادها ولو أهملت ذلك لَحوسبت عليه وأوخذت.

يقول الدكتور «محمد عبدالله دراز» في بحثه القيم حول الأخلاق في القرآن واسسها:

لن نسأل عما قدّمت أيدينا فحسب بل سوف نسأل أيضاً بصورةٍ ما عن تصرفات الآخرين، فنحن مسؤولون عن انحراف مسلك أقراننا حين نتركهم يسيئون دون أن نتدخّل بجميع الوسائل المشروعة التي نطبقها ـ لنمنعهم من الإساءة، وشبيه بهذا أنّ العمل الاجتماعي السلبيّ أو عدم المبالاة ـ تُحاسَبُ وتُعاقَب بنفس درجة العمل الايجابي، فالامتناع هو المشاركة السلبية في الجريمة، وإنّ القرآن ليحدّثنا أنّ شعباً قديماً قد تعرّض للّعنة على ألسنة الأنبياء وكان كلُّ ذنبه ـ حتى يستحق هذه اللعنة ـ أنّ المجتمع لم ينكر على بعض أعضائه فعلهم للشر فقال: ﴿لُعِنَ الّذين كفروا من بني إسرائيل على لسان داود وعيسى بن مريم ذلك بما عصوا وكانوا يعتدون* كانوا لايتناهون عن منكر فعلوه﴾(٤٧) و(٤٨)

هذا ويمكن أن تكون الآيات والروايات السالفة ناظرة إلى كل هذه الأنواع الأربعة

من المسؤولية كما يمكن الاستدلال لها بالآيات التالية:

١ـ ﴿يا أيّها الّذين آمنوا قوا أنفسكم وأهليكم ناراً وقودها النّاسُ والحجارة﴾[٤٩]

٢ـ ﴿ وما لكم لا تقاتلون في سبيل الله والمستضعفين من الرجال والنساء والولدان الّذين يقولون ربّنا أخرجنا من هذه القرية الظالمِ أهلُها واجعل لنا من لدنك وليّاً واجعل لنا من لدنك نصيراً﴾[٥٠]

من فلسفة المسؤولية وغاياتها (سلامة المجتمع)

ليس من الممكن في هذه العجالة التوسّع في هذا البحث والتعمّق فيه واستعراض الآراء والنظريات المطروحة حوله غير أنّه يمكن القول بأنّ من فلسفة فرض المسؤولية على النّاس، أفراداً وجماعات، ومن جملة غاياتها ولعله أبرزها هو: توفير الظروف المناسبة بل واللازمة لتحقق غاية التواجد البشريّ على الأرض وفي رحاب العالم الدنيوي.

فان الغاية المعلن عنها لتواجد البشر على الأرض ومروره بالعالم الدنيوي الأرضي هو « التكامل العقلي والروحي» المعبّر عنه بالعبادة الّتي فسّرت بمعرفة الله التي هي إن حصلت بصيغتها الكاملة كانت أقصى درجات التكامل الانساني.

وهذه الظروف والشروط الخاصّة لاتتحقق هي بدورها إلاّ بوجود المسؤوليات يعني كون الانسان مسؤولاً.

ففي ظلّ هذه المسؤوليات وبتأثيرها ينـدفع إلى العمل، والكدح، والسير، والصعود.

وفي ظل هذه المسؤوليات وبتأثيرها يحافظ على الجوّ الذي يمكن له وللآخرين مواصلة العمل والكدح، والسير، والصعود في مدارج التكامل الانساني.

قال تعالى مشيراً إلى أهمّية الكدح البشري وكون الانسان ملاقيا إيّاه في مستقبل حياته (اي في العالم الاخروي) ومؤاخذاً عليه أو مثاباً به:

﴿يا أيّها الإنسان انّك كادح إلى ربّك كدحاً فملاقيه﴾[٥١]

إنّ تكامل الفرد ورقيّه المعنوي رهنٌ بوجود مجتمع سليم، لتأثير الفرد بالمجتمع عقلاً وروحاً، وخلقاً وسلوكاً.

ولا يتوفّر المجتمع السليم إلاّ اذا كانت هناك مسؤولية تأخذ بعنق الفرد للحفاظ على سلامة المجتمع من جانب، وتأخذ بعنق المجتمع لتوفير ظروف التكامل المطلوب

للفرد من جانب آخر.

وسلامة المجتمع وسلامة الفرد في جميع الأبعاد هو هدف القرآن، وقد أشار إلى هذه الغاية في آيتين:

﴿قد جاءكم من الله نور وكتاب مبين يهدي به الله من اتّبع رضوانه سبل السلام﴾[٥٢] **﴿واذا جاءك الّذين يؤمنون بآياتنا فقل سلام عليكم﴾**[٥٣]،[٥٤]

قال العّلامة الطباطبائي - رحمه الله - في ذيل قوله تعالى:

﴿يهدي به الله من اتّبع رضوانه سبل السلام﴾.

(أطلق تعالى السلام فهو السلامة والتخلّص من كل شقاء يختل به أمر سعادة الحياة دنياً وآخرة.)

ثم قال: (فمعنى الآية - والله العالم - يهدي سبحانه، ويورد بسبب كتابه أو بسبب نبيّه من اتّبع رضوانه سبلاً من شأنها أنه يسلم من سار فيها من شقاء الحياة الدنيا والآخرة، وكل ما تتكدر به العيشة السعيدة.)[٥٥]

وجاء في التفسير الأمثل: في ذيل هذه الآية ذاتها ما يلي:

(هذه الآية تعد الّذين يسعون لتحصيل رضا الله بأنّهم سينالون ثلاث نعم كبرى في ضوء القرآن:

إحداها الهداية إلى سبل السلامة، سلامة الفرد، سلامة المجتمع، سلامة الروح، سلامة العائلة، وسلامة الأخلاق.)[٥٦]

من هنا يجب تحديد معنى «سلامة المجتمع» لننتقل بعد ذلك إلى توضيح الصلة بين سلامة المجتمع وتمكين الفرد من تحقيق تكامله، ومن ثَمّ مدى تأثير سلامة المجتمع في سلامة الفرد.

ما هو المجتمع السليم (المطلوب) ؟

إن المجتمع السليم هو المجتمع الذي ينعم - في ظلّ الأمن - بالحياة اللائقة بإنسانية الإنسان ذلك الأمن الذي يستطيع الانسان في أحضانه ورحابه، وفي ظل الأجواء النقية السائدة فيه أن يقوم بتزكية نفسه وتنمية قابلياته الفكرية والروحية.

وقد اكد القرآن الكريم على عنصر الأمن في الحياة الاجتماعية اذ قال: **﴿الّذين آمنوا ولم يلبِسُوا إيمانَهم بظلمٍ اولئك لهم الأمنُ﴾**[٥٧]

وقال: **﴿وليبدّلنَّهم من بعد خوفِهم أمناً يعبدونني لايُشركون بي شيئاً﴾.**[٥٨]

وقال: **﴿فاي الفريقين أحق بالأمن إن كنتم تعلمون﴾.**[٥٩]

وقال: ﴿وإذ جعلنا البيتَ مثابةً للناس وأمناً﴾.(٦٠)

وقال: ﴿واذ قال ابراهيم ربِّ اجعلْ هذا البلدَ آمناً﴾.(٦١)

وهنا يُطرَح سؤالٌ وهو ما هي أبعاد السلامة الاجتماعية التي تتحقق في ظلِّ هذا الأمن؟

الحق أنّ سلامة المجتمع المثلى لاتنحصر في مجرّد السلامه الصحية والاقتصادية والسياسية كما هو مقتضى الرؤية المادّية، بل تتشعب سلامة المجتمع المثلى وتتجسد في السلامة الفكرية والروحية والاخلاقية إلى جانب السلامة الجسمية، والاقتصادية والسياسية، ومضافاً أيضاً إلى السلامة في علاقة الأفراد بالأفراد، والأفراد بالجماعة، والجماعات بالجماعات، والجماعة بالأفراد.

ونحن لايهمنا في هذا البحث التركيز على السلامة الجسمية والاقتصادية والسياسية لكونها تبحث في اللجان الأخرى، إنما يهمنا هنا التركيز على بقيّة مظاهر السلامة الاجتماعية.

فما هي تفاصيل السلامة الاجتماعية في الأصعدة المذكورة؟

وبعبارة أخرى ماهي مشخّصات السلامة الاجتماعية في مجال الفكر والروح والأخلاق والعلاقات؟

مشخّصات السلامه الاجتماعية

كما أنّ لسلامة الشجرة مشخّصاتٍ تتمثل في حُسن سير عملها ونشاطها في مختلف أقسامها: الجذور والسيقان والأغصان وفي عطائها الجميل الّذي يتمثل في الثمرة اليانعة، والظلال الوارفة والمنظر الجميل.

وكما أن لسلامة الجسد البشريّ مشخّصاتٍ تتمثل في حسن سير عمل الأجهزة المختلفة الظاهرية منها والباطنية، واستمرار حركتها بانتظام من دون خلل او توقّف او تقهقر، كذلك لسلامة المجتمع في النواحي المذكورة في التعريف المذكور مشخّصاتٌ تتمثل في:

١ـ خُلُوّ الذهن من الخرافات، وقدرته على تقييم الأمور علىٰ وفقِ المقاييس الصحيحة، واعتقاده العقائد والحقائق المبرهنة وفي مقدّمتها الايمان بالحق تعالى، وأبرز صفاته، ومقدرة هذا الذهن ـ المتنامية على العطاء المفيد والابداع الايجابي.

ويقابل ذلك تعرض العقل والذهن للضلال عن الحق، والركود والتقهقر، واعتقاده للخرافات والأوهام.

وقد وصف القرآن الكريم العقل الذي

على هـذه الصفة بـالقلب السليم بنـاء على تفسير القلب بالعقل، والعقل الّذي ليس على هذه الصفة بالقلب المريض كما يتضح ذلك لمن راجـع مـوارد مجيء هـذه اللفظـة في الكتاب العزيز.

٢ـ تحلّي الروح بـالسكينة والطمانينة وانطوائها على التطلّعات المقدّسة.

ويقابل ذلك تعرّض الروح للاضطراب والقلق، والحنين إلى سفاسف الأمور.

٣ ـ اتّصـاف الغرائز بحالـة الاعتدال، وصفة الاستقامة، وعملها في القناة الطبيعية الايجابية، وتنزهـهـا من الشذوذ والانحراف والإفراط والتفريط، والبهيمية الساقطة.

٤ ـــ اتّصاف العـلاقـات بين الأفـراد والجماعات بالقـوة والحرارة والودّ والصدق وخلوّهـا من البـرود والعداء، ومن شـوائب المصلحية، والنفعية والأنانية والضعف.

هـذه هي أبـرز مشخّصـات السلامـة الاجتماعية وكذا الفردية وهذه المشخصات هي التـي يكون فقـدانها دليـلا على مـرض المجتمع وسقمه.

أثر سلامة المجتمع على سلامة الفرد

ان القرآن الكريم الـذي نزل على خاتم النبيين، مـن أجل رفـع الفـرد البشـريّ إلى القمّة المرسومة له، توسل للوصول إلى هذا الهدف العظيم بـوسائل عديدة من أبـرزها: «تـوفيـر مجتمع سليـم» لكـون المجتمـع كالمهد الذي يتربى فيـه الفرد، ويترعرع في أحضـانـه ويكتسـب مـن الكثيـر مـن خصوصياته الفكرية والروحية والأخلاقية، كما تتربى وتنمو النبتـة في أحضان التربة وتأخذ منهـا عناصرها ومـوادها: ﴿والبلد الطيّب يخـرج نبـاته بـاذن ربّه والـذي خبث لايخرج إلا نكداً﴾ (٦٢)

وقد كان هـذا الموقف ناشئـاً من نظرة القرآن إلـى حقيقة المجتمع والتـي تتلخص فـي أنّ للمجتمع وجـوداً حقيقيـاً لا ذهنيـاً واعتبارياً.(٦٣)

وحيث أنّ لكل وجود حقيقي أثراً خاصّاً لذلك فانّ للمجتمع أثراً خاصّاً.

او انّ للجماعـة بما هي جمـاعة تـأثيراً خـاصاً، وإن لم نقـل بأنّ للمجتمع وجـوداً حقيقياً وروحاً واحدة مستقلّة.

وهي نظـرة يؤيـدها التقييـم الصـحيح فان المجتمـع مركّب من أفـراد ذوي سلوك معيّن، وفكر معيّن كما أن لـه ضغطاً وتأثيراً وفعلاً في نفس الفرد وعقلـه وروحه، يفوق ضغط الفـرد وتأثيـره في الفـرد، وذلك لان المجتمع يمثل تياراً قوياً مكوّناً من سلوكيات عديـدة على العكس من الفرد الـذي يمثل ما

يشبه القطرة في الأغلب.

فالمجتمع يشبه المطر أو البحر الذي يتكون من قطرات الماء، فان للمطر والبحر تأثيراً يفوق تأثير القطرة.

ولهذا فان المجتمع اذا كان مجتمعاً سوياً قوياً طاهراً نقيّاً أعطى الفرد قوة واستقامة وطهراً ونقاءً.

واذا كان ضعيفاً أو منحرفاً، ساق الفرد إلى الضعف والانحراف.

وقد لايستطيع الفرد أن يقاوم ضغط المجتمع وتأثيره إلاّ اذا كان ذا شخصيّة استثنائية متفوقة.

ولهذا بالغ القرآن الكريم في التأكيد على إبقاء الجوّ الاجتماعي طاهراً نقيّاً خالياً من الانحراف والشذوذ، فمنع من التجاهر بالمعاصي والتظاهر بكل ما يخدش الحياء العام، ويجرىء أصحاب النفوس المريضة على الاجهار بالآثام ومن ثمّ إشاعة الفساد.

فنراه يحذر من إشاعة الفاحشة تارةومن الجهر بالسوء تارة أخرى حفاظاً على الحياء العام، ومن ثمّ الحفاظ على سلامة المجتمع.

ونجده يحاول التستر على عملية الزنا إن وقعت، ويمنع من طرحها امام القضاء إلاّ اذا شهد بها أربعة.

كما أنّه يمنع من حمل الفتيات الراغبات في الطهر والعفّة على الزنا والبغاء . . . كل ذلك لأجل إبقاء الجو العام نقيّاً، ومنعاً من حدوث تيّار من الفساد يجرف الأفراد معه إلى هوة السقوط.

وكثير من الخطابات القرآنية الجماعيّة (اي الخطابات التي يوجهها القرآن إلى الجماعة بما هي جماعة) ينطلق من هذا المنطلق. أي من منطلق تصوّر القرآن بان فساد المجتمع ينعكس على الفرد ويؤثر في سلوكه وشخصيته، وكذا العكس.

قال تعالى: **﴿واتقوا فتنةً لاتصيبنّ الذين ظلموا منكم خاصّة﴾** [٦٤] ومفاد هذا القول هو أن الفساد الذي يقوم به جماعة يؤثر على مسير الأفراد الآخرين ومصيرهم، وأن تبعاته لا تقتصر على مرتكبي الفساد والظلم خاصّة.

قال العلاّمة الطباطبائي في ذيل هذه الآية: (الآية تتضمن خطاباً اجتماعياً متوجّهاً إلى مجموع الأمة). [٦٥]

والآية تأمر المجتمع ان يتقي فتنة يثيرها بعضه وليس (الأمر باتقائها) إلاّ لأن أثرها السيئ يعم الجميع. [٦٦]

وخلاصة القول: كما أنّ لكل شيء بيئةً لابد ان تتوفر حتى يتهيأ العيش والبقاء له، وكما أنّه يتغذى من هذه البيئة، فتكون حياته متوقفة عليها مرتبطة بها ارتباطاً وثيقاً،

ولهذا تترك تلك البيئة أثرها في ذلك الشيء إن خيراً فخير وإن شرّاً فشرّ، وكما أنّ لذلك الشيء أثراً في تلك البيئة أيضاً، كذلك الإنسان لابد له من بيئة يعيش فيها، وتتهيأ له فرصة البقاء، يتغذى منها ويستمد منها عناصر استمراره، وهذه البيئة هي المجتمع، مضافاً إلى الطبيعة، ولذلك فهو محتاج إلى المجتمع، وتتوقف حياته عليه ولهذا فإن المجتمع يؤثرفيه، وهو يؤثر في المجتمع، ومن هذه العلاقة المتبادلة الوثيقة تنشأ المسؤولية مسؤولية المجتمع عن الفرد ومسؤولية الفرد عن المجتمع.

القرآن وطرق الحفاظ على سلامة المجتمع

سلك القرآن الكريم طرقاً عديدة ودقيقة وناضجة للحفاظ على سلامة المجتمع أبرزها:

أ ـ ايجاد المناعة الذاتية في النفوس، لتقاوم من داخلها عوامل الانحراف الخارجية.

وهذا هو سرّ التأكيد القرآني على الدعوة إلى طاعة الله، وملازمة ذكره، وعلى التقوى والمسارعة إلى المغفرة، واتصاف الجميع (جميع الأفراد والأشخاص) بالصبغة الالّهية عن طريق ذكره، وتطبيق اليه، والرجوع اليه.

قال تعالى:

﴿واطيعوا الله والرسول لعلّكم ترحمون﴾.[٦٧]

﴿فاتقوا الله يا أُولي الألباب لعلّكم تفلحون﴾.[٦٨]

﴿يا ايّها الّذين آمنوا اتّقوا الله وابتغوا اليه الوسيلة وجاهدوا في سبيله لعلّكم تفلحون﴾.[٦٩]

﴿وتوبوا إلى الله جميعاً أيُّها المؤمنون لعلكم تفلحون﴾.[٧٠]

﴿ومن اظلم ممن افترى على الله كذباً أو كذّب بآياته إنّه لايفلح الظالمون﴾.[٧١]

﴿واعبدوا ربّكم وافعلوا الخير لعلّكم تفلحون﴾.[٧٢]

﴿واذكروا الله كثيراً لعلّكم تفلحون﴾.[٧٣]

﴿صبغة الله ومَنْ أحسنُ من الله صبغة ونحن له عابدون﴾.[٧٤]

ان إشاعة هذه المفاهيم والحالات في الجماعة وبين الأفراد والسعي إلى اضفاء الصبغة الالّهية العملية على المجتمع وأفراده من شأنه أن يوفّر سلامة المجتمع وعافيته، ويبقى عليها.

فبدون الطاعة لله سبحانه، ومن دون التزام التقوى لايتسنى للمجتمع أن يصون

نفسه من عوامل الانحراف بالتصدّي لها ومجابهتها ومقاومتها.

وذلك لان روح التقوى والطاعة، والإنابة هي التي توجد في النفوس مناعة ذاتية، وتكون بمنزلة الحصن المنيع الّذي يحفظ الاخلاق والآداب والقيم من الذوبان والتبخّر.

ولهذا يجب ابتكار الطرق العملية والمؤثرة لاحياء هذه المفاهيم واشاعتها وجعل هذا العمل في طليعة البرامج في عملية إصلاح المجتمع.

إن الروح الانسانية ـ في الفرد الجماعة ـ أشبه ما تكون بالجسد، فمالم يمتلك الجسد مناعة ذاتية لم يمكنه مقاومة الأمراض الخارجية أو ترميم الخلل الداخلي بسرعة، وتفوّق.

ب ـ المنع من كل ما يهيئ أرضيّة الانحراف والتردّي والتباغض والتعادي، كالاجهار بالفحشاء واشاعة الفاحشة، والجهر بالسوء والغيبة واساءة الظن وشرب الخمر وارتكاب الميسر وتجاوز حدود الأخلاق.

قال تعالى:

﴿ولا تقربوا الفواحش ما ظهر منها وما بطن﴾[٧٥].

﴿قل انما حرّم ربي الفواحش ما ظهر منها وما بطن﴾[٧٦].

﴿... الّذين يجتنبون كبائر الإثم والفواحش﴾[٧٧].

﴿لا يحب الله الجهر بالسوء من القول إلا من ظُلِمَ﴾[٧٨].

﴿إنّ الّذين يحبّون أن تشيع الفاحشة في الّذين آمنوا لهم عذاب أليم﴾[٧٩].

﴿ولا تقربوا الزنا إنّه كان فاحشة وساء سبيلا﴾[٨٠].

﴿إنمّا الخمر والميسر والأنصابُ والأزلام رجس من عمل الشيطان فاجتنبوه﴾[٨١].

﴿إنمّا يريد الشيطان أن يُوقعَ بينكم العداوةَ والبغضاءَ في الخمر والميسر﴾[٨٢].

جـ ـ إبقاء المجتمع تحت ولاية الله ورفض غيرها من الولايات والسلطات.

والمراد بالبقاء تحت ولاية الله اخذ المنهاج منه خاصّة ورفض غير منهجه عامة.

اذ أنّ ولاية الله ومنهجه هو وحده الكفيل باسعاد الناس افراداً وجماعات، وتوفير حياة طيّبة لهم دنيا وأُخرى.

وهذا هو سرّ تأكيد القرآن الكريم على ولاية الله وحمل المجتمع على البقاء تحت

مظلتها ورفض غيرها من الولايات.

قال تعالى:

﴿ إنّما وليّكم الله ورسوله والّذين آمنوا الّذين يقيمون الصلاة ويؤتون الزكاة وهم راكعون* ومن يتولّ الله ورسوله والذين آمنوا فان حزب الله هم الغالبون﴾(٨٣).

﴿وإن الظالمين بعضهم اولياء بعض والله ولي المتّقين﴾ (٨٤).

﴿ومن يتّخذ الشيطان وليّاً من دون الله فقد خسر خسراناً مبيناً﴾ (٨٥).

﴿يا أيّها الذين آمنوا لا تتخذوا الكافرين اولياء من دون المؤمنين ايبتغون عندهم العزة فانّ العزة لله جميعاً﴾(٨٦).

﴿يا أيّها الذين آمنوا لا تتخذوا اليهود والنصارى أولياءَ بعضُهم أولياءُ بعضٍ ومن يتولّهم منكم فانّه منهم﴾ (٨٧).

د ـ حفظ المجتمع الاسلامي من تسلّل الغرباء إليه منعاً من تسرّب ثقافاتهم وعاداتهم إليه، وذلك من طريق عقد الصداقات الفردية، وإقامة العلاقات الشخصية غير الخاضعة للضوابط وغير المرعي فيها سوى العواطف والمشاعر. وفي النهاية من طريق المراودات مع الكفّار والمشركين بمن فيهم أهل الكتاب وذلك لسببين:

الأول: معاداة هؤلاء للفكر والتفكير الاسلامي وسعيهم لتخريبه وابادته وكذا معاداتهم للمسلمين كجماعة منافسة لهم.

والثاني: سعيهم لبث دينهم وعقائدهم بل وعاداتهم وتقاليدهم في الآخرين ليكونوا هم والمسلمون سواء فلايكون تفوّق للمسلمين ولا امتياز معنوي أو حضاري.

قال تعالى:

﴿ولن ترضى عنك اليهود والنصارى حتّى تتبع ملتهم قل ان الهدى هدى الله ولئن اتبعت اهواءهم بعد الذي جاءك من العلم مالك من الله من ولي ولا نصير﴾(٨٨).

﴿ودّ كثير من أهل الكتاب لو يردونكم من بعد ايمانكم كفّاراً حسداً من عند أنفسهم من بعد ما تبيّن لهم الحقّ﴾(٨٩).

﴿يا أيّها الذين آمنوا لا تتخذوا بطانة من دونكم لايألونكم خبالا ودّوا ما عنتّم قد بدأت البغضاء من أفواههم وما تخفي صدورهم أكبر قد بيّنا لكم الآيات ان كنتم تعقلون* ها أنتم أولاء تحبّونهم ولا يحبّونكم وتؤمنون بالكتاب كله واذا لقوكم قالوا آمنا واذا خلوا عضّوا عليكم الأنامل من الغيظ قل موتوا بغيظكم إن

الله عليم بذات الصدور ان تمسسكم حسنة تسؤهم و إن تصبكم سيئة يفرحوا بها و إن تصبروا وتتقوا لا يضركم كيدهم شيئاً ان الله بما تعملون محيط﴾[٩٠].

﴿ما يودّ الذين كفروا من أهل الكتاب ولا المشركين أن ينزّل عليكم من خير من ربّكم﴾[٩١].

﴿ودّوا لو تكفرون كما كفروا فتكونون سواء فلا تتخذوا منهم أولياء﴾[٩٢].

﴿لاينهاكم الله عن الذين لم يقاتلوكم في الدين ولم يخرجوكم من دياركم أن تبرّوهم وتقسطوا إليهم إنّ الله يحب المقسطين* إنّما ينهاكم الله عن الذين قاتلوكم في الدين وأخرجوكم من دياركم وظاهروا على اخراجكم ان تولوهم ومن يتولهم فاولئك هم الظالمون﴾[٩٣].

﴿يا أيّها الذين آمنوا لا تتخذوا عدوّي وعدوكم اولياء تلقون إليهم بالمودة وقد كفروا بما جاءكم من الحقّ يخرجون الرسول وإيّاكم أن تؤمنوا بالله ربّكم إن كنتم خرجتم جهاداً في سبيلي وابتغاء مرضاتي تسرّون إليهم بالمودّة وأنا أعلم بما أخفيتم وما أعلنتم ومن يفعله منكم فقد ضلّ سواء السبيل* إن يثقفوكم يكونو لكم أعداء ويبسطوا إليكم أيديهم والسنتهم بالسوء وودوا لو تكفرون﴾[٩٤].

﴿لا تجد قوماً يؤمنون بالله واليوم الآخر يوادون من حادّ الله ورسوله﴾[٩٥].

﴿ودّ الذين كفروا لو تغفلون عن أسلحتكم وأمتعتكم﴾[٩٦].

﴿ودّت طائفة ن أهل الكتاب لو يضلونكم﴾[٩٧].

﴿فلا تطع المكذّبين ودّوا لو تدهن فيدهنون﴾[٩٨].

﴿إنّهم إن يظهروا عليكم يرجموكم أو يعيدوكم في ملّتهم ولن تفلحوا إذاً أبداً﴾[٩٩].

هـ ـ إقرار مبدأ النظارة العامّة عن طريق الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، وتعميم ذلك في صورة وظيفة عامّة.

ففي ظل هذه النظارة العامّة يمكن الوقوفُ أمام أيّة ظاهرة مرضيّة تعرّض سلامة المجتمع للخطر.

أمّا اذا تُرك المنكر وشأنَهُ ولم يُردع فاعله استشرى، وسرىٰ كما تسيري النار في الهشيم.

ولهذا وصف القرآن الكريم الأمة الاسلامية بأنّها خير أُمة، لأنّها تأمر بالمعروف وتنهى عن المنكر، فهي ما دامت تقوم بهذه الوظيفة المزدوجة تكون على

خير وفي خير.

أمّا اذا تركت هاتين الفريضتين فلن تكون خير أُمة ولن تكون في خير وعلى خير وإن تمتعت ببعض المميزات والكمالات.

قال تعالى:

﴿كنتم خير أُمة ... تأمرون بالمعروف وتنهون عن المنكر وتؤمنون بالله﴾(١٠٠).

﴿ولتكن منكم أُمة يدعون إلى الخير ويأمرون بالمعروف وينهون عن المنكر وأُولئك هم المفلحون﴾(١٠١).

﴿والمؤمنون والمؤمنات بعضهم أولياء بعض يأمرون بالمعروف وينهون عن المنكر ويقيمون الصلاة ويؤتون الزكاة ويطيعون الله ورسوله وأُولئك سيرحمهم الله إنّ الله عزيز حكيم﴾(١٠٢).

﴿إنّ الله اشترى من المؤمنين أنفسهم وأموالهم بأنّ لهم الجنّة يقاتلون في سبيل الله فيقتلون ويُقتلون وعداً عليه حقّاً في التوراة والإنجيل والقرآن ومن أوفى بعهده من الله فاستبشروا ببيعكم الذي بايعتم به وذلك هو الفوز العظيم. التائبون العابدون الحامدون السائحون الراكعون الساجدون الآمرون بالمعروف والناهون عن المنكر والحافظون لحدود الله وبشّر المؤمنين﴾(١٠٣).

﴿الذين إن مكّناهم في الأرض أقاموا الصلاة وآتوا الزكاة وأمروا بالمعروف ونهوا عن المنكر ولله عاقبة الأمور﴾(١٠٤).

و ـ التحذير من عاقبة الامم التي سلكت سبيل الفساد والانحراف عن جادة الحقّ، وتصوير ذلك بدقّة والتأكيد على مصائر الجماعات التي تركت وظيفة الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر بصورة خاصّة وكيف أنّها تردّت وسقطت على قوتها وعظمة حضارتها لانّها اصيبت بالفساد العقليّ والروحيّ والأخلاقيّ والسياسيّ والاقتصاديّ، ولابد من التركيز على مصائر الجماعات مما يدل على ان هذه التحذيرات موجّهة إلى الجماعة بما هي جماعة في الدرجة الأولى.

قال تعالى:

﴿لُعن الّذين كفروا من بني إسرائيل على لسان داوود وعيسى بن مريم ذلك بما عصوا وكانوا يعتدون. كانوا لايتناهون عن منكر فعلوه لبئس ما كانوا يفعلون. ترى كثيراً منهم يتولّون الذين كفروا لبئس ما قدّمت لهم أنفسهم أن سخط الله عليهم وفي العذاب هم خالدون* ولو كانوا يؤمنون بالله والنبيّ وما أنزل الله ما اتّخذوهم أولياء ولكن

كثيراً منهم فاسقون﴾ (١٠٥).

﴿وعد الله المنافقين والمنافقات والكفّار نار جهنّم خالدين فيها هي حسبهم ولعنهم الله ولهم عذاب مقيم، كالذين من قبلكم كانوا أشدّ منكم قوّة وأكثر أموالاً وأولاداً فاستمتعوا بخلاقهم فاستمتعتم بخلاقكم كما استمتع الذين من قبلكم بخلاقهم، وخضتم كالذي خاضوا اولئك حبطت أعمالهم في الدنيا والآخرة وأولئك هم الخاسرون﴾ (١٠٦).

﴿فكأيّن من قرية أهلكناها وهي ظالمة فهي خاوية على عروشها وبئر معطّلة وقصر مشيد﴾ (١٠٧).

ز ـ بيان ملامح المجتمع المؤمن على نحو التفصيل والدقّة بما لايدع نقطة غامضة وصفة مجهولة في هوية المجتمع الإيماني، الذي يريده القرآن الكريم.

وفي المقابلة بيان ملامح الجماعات المنحرفة الكافرة والمشركة والمنافقة والفاسقة، التي يشجبها القرآن ويقبّحها. وذلك مثل قوله تعالى عن المجتمع المؤمن:

﴿وعباد الرحمان الذين يمشون على الأرض هوناً وإذا خاطبهم الجاهلون قالوا سلاماً. والذين يبيتون لربّهم سجّداً وقياماً. والذين يقولون ربّنا اصرف عنّا عذاب جهنّم إنّ عذابها كان غراماً * إنّها ساءت مستقرّاً ومقاماً * والذين اذا انفقوا لم يسرفوا ولم يقتروا وكان بين ذلك قواماً * والذين لا يدعون مع الله إلّها آخر ولا يقتلون النفس التي حرّم الله إلاّ بالحقّ ولا يزنون ومن يفعل ذلك يلق أثاماً * يضاعف له العذاب يوم القيامة ويخلد فيه مهاناً * إلاّ من تاب وآمن وعمل صالحاً فاولئك يبدّل الله سيئاتهم حسنات وكان الله غفوراً رحيماً * ومن تاب وعمل صالحاً فانّه يتوب إلى الله متاباً* والذين لايشهدون الزور واذا مرّوا باللغو مرّوا كراماً * والذين اذا ذكّروا بآيات ربّهم لم يخروا عليها صمّاً وعمياناً * والذين يقولون ربّنا هب لنا من أزواجنا وذرّياتنا قرة أعين واجعلنا للمتّقين إماماً﴾ (١٠٨).

وقال سبحانه:

﴿قد أفلح المؤمنون* الذين هم في صلاتهم خاشعون* والذين هم عن اللغو معرضون* والذين هم للزكاة فاعلون والذين هم لفروجهم حافظون* إلا على أزواجهم أو ما ملكت أيمانهم فانّهم غير ملومين. والذين هم لاماناتهم وعهدهم راعون* والذين هم على صلواتهم يحافظون﴾ (١٠٩).

وقال أيضاً عن صفات المؤمنين

والمجتمع الإيماني:

﴿الصابرين والصادقين والقانتين والمنفقين والمستغفرين بالاسحار﴾ [110].

وقال عن تلك الصفات أيضاً:

﴿إنّ المسلمين والمسلمات والمؤمنين والمؤمنات والقانتين والقانتات والصادقين والصادقات والصابرين والصابرات والخاشعين والخاشعات والمتصدقين والمتصدقات والصائمين والصائمات والحافظين فروجَهم والحافظات والذاكرين الله كثيراً والذاكرات أعدّ الله لهم مغفرة وأجراً عظيماً﴾ [111].

وقال أيضاً واصفاً المجتمع الإيماني:

﴿... وما عند الله خير وأبقى للذين آمنوا وعلى ربّهم يتوكّلون والذين يجتنبون كبائر الإثم والفواحش واذا ما غضبوا هم يغفرون والذين استجابوا لربّهم وأقاموا الصلاة وأمرهم شورى بينهم ومما رزقناهم ينفقون* والذين اذا أصابهم البغي هم ينتصرون﴾ ﴿وجزاء سيئة سيئة مثلها فمن عفا واصلح فاجره على الله إنّه لايحب الظالمين* ولمن انتصر بعد ظلمه فاولئك ما عليهم من سبيل* انّما السبيل على الذين يظلمون الناس ويبغون في الأرض بغير الحقّ اولئك لهم عذاب أليم* ولمن صبر وغفر إنّ ذلك لمن عزم الأمور﴾ [112].

وقال عن الجماعة المنافقة وصفاتهم وأحوالهم:

﴿المنافقون والمنافقات بعضهم من بعض يامرون بالمنكر وينهون عن المعروف ويقبضون أيديهم نسوا الله فنسيهم إن المنافقين هم الفاسقون﴾ [113].

وغير ذلك من الآيات الكثيرة التي تصف هوية المنافقين والكفّار والمشركين والمنحرفين عن جادة الحقّ والهدى مما لا تسع هذه المقالة لادراجها وإيرادها.

فلابد من بيان هذه الصفات للناس حتى يقارنوا بها أنفسهم وأحوالهم ولا يخدعوا انفسهم جهلاً وغفلةً.

ح ـ التحذير من عوامل الانحراف والإفساد وأبرزها الشيطان والهوى، وطريقة التخلّص من كيدهما وتأثيرهما.

قال تعالى عن الشيطان وأهدافه:

﴿ادخلوا في السلم كافّة ولا تتبعوا خطوات الشيطان﴾ [114].

﴿الشيطان يعدكم الفقر ويامركم بالفحشاء﴾ [115].

﴿ومن يكن الشيطان له قريناً فساء قريناً﴾ [116].

﴿ويريد الشيطان أن يضلّهم ضلالاً

بعيداً﴾[١١٧].

﴿ولولا فضل الله عليكم لاتّبعتم الشيطان إلاّ قليلاً﴾[١١٨].

﴿... يعدهم ويمنّيهم وما يعدهم الشيطان إلاّ غرورا﴾[١١٩].

﴿يا بني آدم لايفتننكم الشيطان كما اخرج أبويكم من الجنّة﴾[١٢٠].

﴿إنّ الذين اتّقوا اذا مسّهم طائف من الشيطان تذكّروا﴾[١٢١].

﴿إنّ الشيطان كان للانسان عدوّاً مبيناً﴾[١٢٢].

﴿وزين الشيطان لهم أعمالهم فصدّهم عن السبيل﴾[١٢٣].

﴿إنّ الشيطان لكم عدوّ فاتّخذوه عدوّاً﴾[١٢٤].

﴿ولا يصدّنكم الشيطان إنّه لكم عدوّ مبين﴾[١٢٥].

﴿... استحوذ عليهم الشيطان فانساهم ذكر الله أولئك حزب الشيطان ألا إنّ حزب الشيطان هم الخاسرون﴾[١٢٦].

﴿... كالذي استهوته الشياطين في الأرض حيران ...﴾[١٢٧].

وقال سبحانه عن الهوى وأخطاره والشهوات واضرارها:

﴿ومن اضلّ ممن اتّبع هواه﴾[١٢٨].

﴿ولا تتبعوا أهواء قوم ضلّوا من قبل وأضلّوا كثيراً﴾[١٢٩].

﴿فلا تتبعوا الهوى أن تعدلوا﴾[١٣٠].

﴿... ولو شئنا لرفعناه بها ولكنّه أخلد إلى الأرض واتّبع هواه﴾[١٣١].

﴿زُيّن للناس حبُّ الشهوات من النساء والبنينَ والقناطيرِ المقنطرةِ من الذهبِ والفضّة﴾[١٣٢].

﴿ويريد الذين يتّبعون الشهواتِ أن تميلوا ميلاً عظيماً﴾[١٣٣].

﴿... فخلف من بعدهم خلف أضاعوا الصلاةَ واتّبعوا الشهواتِ فسوف يلقَوْنَ غيّاً﴾[١٣٤].

ط ـ تسليط الضوء على القدوات الصالحة افراداً وجماعات والحثّ على الاقتداء بسيرتها والاهتداء بهديها، لأن البشر يميل بطبعه وفطرته إلى التقليد والمحاكاة، والاتساء باسواتٍ، ويحب الشهامة والشجاعة في الأبطال والعمالقة (وقد جاء في كلمات علماء النفس أن البطولة تسري، فربّ جبان رأى بطولة بطل فتشجّع، وربّ خشن رأى رحمة انسان فخشع).

قال تعالى:

﴿لقد كان لكم في رسول الله أسوة حسنة لمن كان يرجو الله واليوم الآخر وذكر الله كثيراً﴾[١٣٥].

﴿قد كانت لكم أسوة حسنة في

إبراهيم والذين معه اذ قالوا لقومهم إنّا بُرَءَاءُ منكم وممّا تعبدون من دون الله كفرنا بكم وبدا بيننا وبينكم العداوةُ والبغضاء أبداً حتى تؤمنوا بالله وحدَه إلاّ قولَ إبراهيمَ لأبيهِ لأستغفرَنَّ لكَ وما أملكُ لك من الله من شيء ربّنا عليك توكّلنا وإليك أنبنا وإليك المصير * ربّنا لاتجعلنا فتنة للّذين كفروا واغفر لنا ربّنا إنّك أنت العزيز الحكيم* لقد كان لكم فيهم أسوة حسنة لمن كان يرجو اللهَ واليومَ الآخرَ ومن يتولَّ فانّ الله هو الغنيُّ الحميد﴾(١٣٦).

وقال سبحانه عن جماعات مؤمنة صابرة صامدة في سبيل الحقّ:

﴿وكأيِّن من نبيٍّ قاتل معه رِبِّيُّونَ كثيرٌ فما وهنوا لما أصابهم في سبيل الله وما ضعُفوا وما استكانوا والله يحب الصابرين* وما كان قولهم إلا أن قالوا ربّنا اغفرْ لنا ذنوبنا وإسرافَنا في أمرنا وثبِّتْ أقدامنا وانصُرْنا على القوم الكافرين * فآتاهم الله ثواب الدنيا وحسن ثواب الآخرة والله يحب المحسنين﴾(١٣٧).

ي ـ ارجاع كلّ شيء إلى القيادة وعدم التصرف الشخصي والعشوائي لينتظم أمر المجتمع، وتتحقق العدالة، وهذا لاشك ينبع من احساس الجميع بالمسؤولية اذ لو عدمت المسؤولية لم يمكن تطبيق العدالة، ولو لم تتحقق العدالة تفشّت الفوضى وفسد النظام وعمّت الهمجية وساد الهرج والمرج، وانهار المجتمع وانهار معه الفرد.

﴿يا أيّها الذين آمنوا أطيعوا الله وأطيعوا الرسول وأولي الأمر منكم فإن تنازعتم في شيء فردّوه إلى الله والرسول إن كنتم تؤمنون بالله واليوم الآخر ذلك خير وأحسن تأويلاً﴾(١٣٨).

﴿وإذا جاءهم أمر من الأمن أو الخوف أذاعوا به ولو ردّوه إلى الرسول وإلى أولي الأمر منهم لعلمه الذين يستنبطونه منهم ولولا فضل الله عليكم ورحمته لاتّبعتم الشيطان إلا قليلاً﴾(١٣٩).

هذه عشرة طرق يتوسّل بها القرآن الكريم للحفاظ على سلامة المجتمع وصيانته من كلّ ما يضرّ به، ويسيء إليه، ويجلب الشر والانحراف.

مسؤولية الفرد تجاه المجتمع

وفي ضوء ما ذكر من الآيات تتبين وتتعيّن مسؤوليات الفرد تجاه المجتمع فإنّ عليه مسؤوليات عديدة هي عبارة عن:

اـ مسؤولية المحافظة على أمن المجتمع واستقراره السياسي (راجع الآية: ٨٣ من سورة النساء وغيرها) لأن الإخلال

بأمن المجتمع قد يتحقق بفرد من الأفراد اذا أذاع سرّاً، أو دلّ على عورةٍ، أو خان، وهي أمور تقع غالباً من الفرد وقلّما تقوم به جماعة.

٢ـ مسؤولية المحافظة على أخلاق المجتمع وأمنه الأخلاقي، ولهذا نهى عن ارتكاب الفحشاء، والجهر بالمعصية، وإشاعة الفاحشة وغير ذلك مما يخدش الحياء الاجتماعي ويمزق ستار العفّة والحشمة في المجتمع (راجع الآية ٧٩ من سورة النور).

وهذا العمل غالباً ما يقع من الأفراد

وكذا المحافظة على أمنه الاجتماعي فلا يسمح ببهت المسلم وغيبته واتهامه، وإيذائه وترويعه، وهي أمور غالباً ما تقع من الأفراد.

إنّ مما لاريب فيه وجوب صونِ المجتمع من كلّ ما ينجم عنه ايذاؤُه، وحمايتِهِ من الاخلال بالقواعد التي يقيم عليها نظامه.

على أنّ هذه المسؤولية (اي الفردية) تكون على قدر اتّساع سلطة الإنسان وامتداد قدرته وكذلك على قدر ضعفه وعجزه يكون اعفاؤه من المسؤوليات، ولذلك نرى أنّ مسؤولية العالم أكبر من الجاهل وكذا مسؤولية القادر، وصاحب السلطة والجاه، فمسؤولية كل امرىء محدودة بحدود سلطته وامكانياته[١٤٠].

ولابد من الإشارة إلى أن المسؤولية (الفردية والإجتماعية) مترتبة على مسألة الاختيار والإرادة فكان لابد من إعطاء بحث في هذا المجال لولا أن تطول هذه المقالة، ولهذا تركنا ذلك لمجال أوسع علّنا نوفّق له.

كما لابد من الإشارة إلى أمر آخر في هذا الصعيد وهو المشاركة في المسؤولية، فإن القرآن الكريم يعتبر بعض الناس مشاركين في مسؤولية بعض الأفعال التي يقوم بها غيرهم، لانّهم ربما كانوا عنصر تشجيع وترغيب اولئك المرتكبين للذنوب.

قال تعالى في هذ الصدد:

﴿وقد نـزّل عليكم في الكتاب أن اذا سمعتم آياتِ الله يُكفَرُ بها ويُستَهزأ بها فلا تقعُدوا معهم حتى يخوضوا في حديث غيره إنّكم إذاً مثلهم إنّ الله جامع المنافقين والكافرين في جهنّم جميعاً﴾[١٤١].

المسؤولية عن طبقات خاصة من المجتمع

وبمناسبة الحديث عن مسؤولية الفرد تجاه المجتمع وبالعكس ينبغي الإشارة إلى أنّ الفرد والمجتمع مسؤولان عن بعض

الفئات من المجتمع بصورة خاصّة، فلا من مراعاة أحوالهـا، والتخطيط للقيام بشؤونها وما يتطلبه القيام باصلاح أمرها على الوجه الذي يضمن فلا بُدَّ صلاحهم وصلاح الفرد والمجتمع بصلاحهم وهذه الفئات هي:

١ـ الأطفال الرضّع.

٢ـ الصغار من الصبية.

٣ـ الشباب.

٤ـ الشيوخ.

وقد وردت في القرآن الكريم آيات ليست بالقليلة فيها إيماءات بل تصريحات بهذه الفئات تلفت نظر الفرد والمجتمع إليها تمهيداً للتفكير في أحوالها ومطاليبها، ومراعاة حقوقها.

أ ـ فعن الأول قال تعالى:

﴿والوالدات يرضعن أولادهن حولين كاملين لمن اراد أن يتم الرضاعة﴾ (١٤٢).

ب ـ وعن الثاني قال سبحانه:

﴿وليخش الذين لو تركوا من خلفهم ذرّية ضعافاً خافوا عليهم فليتّقوا الله وليقولوا قولاً سديداً﴾ (١٤٣).

ج ـ وعن الثالث والرابع قال سبحانه:

﴿الله الذي خلقكم من ضعف ثم جعل من بعد ضعف قوّة ثم جعل من بعد قوّة ضعفاً وشيبةً يخلق ما يشاء وهو العليم القدير﴾ (١٤٤).

إنّ هذه الآيات وإن كانت تتضمن إشارات إلى هذه المراحل من العمر، إلاّ أنّها إشارات الى حقائق قوية تبعث على التفكير والعمل والتخطيط لرعاية شؤون هذه الفئات وتوفير ماتحتاج إليه من الأمن والراحة وغير ذلك من الحاجات الجسدية والروحية وقد جمعت آية من سورة غافر كل هذه الفئات في موضع واحد فيه معنى كبير قال سبحانه.

﴿هو الذي خلقكم من تراب ثم من نطفة ثم من علقة ثم يخرجكم طفلاً ثم لتبلغوا أشدّكم ثم لتكونوا شيوخاً ومنكم من يتوفّى من قبل ولتبلغوا أجلاً مسمّى ولعلكم تعقلون﴾ (١٤٥).

على أن هناك آياتٍ عديدةً أُخرى تتضمن الإشارةَ أو الحديث عن هذه الفئات وما يجب أن يقوم به الفريد والمجتمع تجاهها، وقد تركنا ذكرها رعاية للاختصار، وتاجيلاً لها إلى مقالة أُخرى ووقت آخر إن شاء الله.

إنّ مسؤولية الفرد والمجتمع تجاه هذه الفئات تتلخص في:

١ـ الاحترام المناسب لها.

٢ـ الرحمة واللطف بها.

٣ـ حفظ الحقوق والشؤون الخاصّة بها.

٤ـ توفير أجواء فكرية وروحية ونفسية مناسبة لها.

٥ـ تقديمها و إيثارها على النفس.

٦ـ دفع الأذى عنها.

٧ـ مراعاة عواطفها وأحاسيسها قدر الإمكان.

وغير ذلك مما يستفاد من الآيات بمعونة الروايات، وسير النّبي وأهل بيته المطهّرين صلوات الله عليهم أجمعين.

كما أنّ هناك فئات أُخرى تشترك مع هذه الفئات في ملاك الضعف، والنفسية الخاصّة هي الأخرى وضع القرآن والإسلام مسؤوليات خاصّة على عاتق الفرد والجماعة عنها، ينبغي البحث عنها في محله.

ملخّص المقال:

ونلخص ما كتبناه فيما يلي:

إنّ الإسلام ـ كما هو ملحوظ لمن نظر إلى القرآن الكريم وتمعّن في آياته ـ دين المسؤولية، ولهذا يحاسب الإنسان ويؤاخذ على أقواله وأفعاله.

وإنّ المسؤولية في نظر القرآن شاملة فالمجتمع مسؤول عن الفرد والفرد مسؤول عن المجتمع ولا استثناء ولا تمييز.

وإنّ الهدف البارز من وراء هذه المسؤولية هو الحفاظ على سلامة المجتمع التى تتوقف عليه سلامة الفرد، وسلامة الفرد التي تنبع منه سلامة المجتمع للتأثير المتقابل بينهما.

وإنّ المجتمع السليم هو المجتمع الآمن الذي يمكن للفرد في ظلّه الرقي والتكامل، والسير صُعداً نحو كماله الممكن والمطلوب.

وإنّ أبرز مشخّصات السلامة الاجتماعية هو خلوّ الذهن من الخرافات والأباطيل، والأضاليل، وتحلّي الرّوح بالسكينة والطمأنينة واعتدال الغرائز واتصاف العلاقات الاجتماعية بالنقاء والصفاء.

وإنّ لهذه السلامة الاجتماعية طرقاً يقترحها القرآن، واساليب ينهجها ويطلب أتباعه الأخذ بها حتى تتحقق سلامة المجتمع وتدوم وتستمر وقد أشير إلى ابرزها وهي عشرة كاملة من أبرزها الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر.

وإنّ القرآن لفت نظر أتباعه إلى فئات خاصّة من المجتمع تستحق رعاية أكثر في جميع المجالات واعتبر الجميع مسؤولاً عنها.

الهوامش:

١ـ الحجر: ٩٢.

٢ـ الأعراف: ٦.

٣ـ الإسراء: ٣٦.

٤ـ الصافات: ٢٤.

٥ـ الإسراء: ٢٤.

٦ـ الأحزاب: ١٥.

٧ـ الزخرف: ٤٤.

٨ـ النساء: ١.

٩ـ الأنبياء: ١٣.

١٠ـ التكاثر: ٨

١١ـ النحل: ٥٦.

١٢ـ التكوير: ٨

١٣ـ النحل: ٩٣.

١٤ـ الزخرف: ١٩.

١٥ـ آل عمران: ٩.

١٦ـ إبراهيم: ٥١.

١٧ـ ص: ٢٦.

١٨ـ غافر: ١٧.

١٩ـ المؤمنون: ١١٧.

٢٠ـ البقرة: ٢٨٤.

٢١ـ الأنبياء: ٦٢.

٢٢ـ الطلاق: ٨

٢٣ـ الرعد: ٤٠.

٢٤ـ الغاشية: ٢٦.

٢٥ـ الأنبياء: ١.

٢٦ـ الشعراء: ١١٣.

٢٧ـ الإسراء: ١٤ـ١٥.

٢٨ـ الكهف: ٤٧ـ٤٩.

٢٩ـ معجم مفردات ألفاظ القرآن الكريم مادة «أخذ».

٣٠ـ البقرة: ٢٢٥.

٣١ـ المائدة: ٨٩.

٣٢ـ فاطر: ٤٥.

٣٣ـ النحل: ٦١.

٣٤ـ الكهف: ٥٨.

٣٥ـ سنن الترمذي كتاب صفة القيامة باب١ ومشكاة الأنوار.

٣٦ـ البخاري كتاب الوصيّة الباب٩.

٣٧ـ مسلم ٣:١٤٥٩.

٣٨ـ كنز العمّال ١١:١٢٩.

٣٩ـ أمالي المفيد: ١٧٢.

٤٠ـ نهج البلاغة الخطبة ١٦٧.

٤١ـ غرر الحكم ودرر الكلم لناصح الدين الآمدي مادة (كن).

٤٢ـ وسائل الشيعة ٩:٣٢، كنز العمّال ٤: الحديث ١٠٣٠٩.

٤٣ـ وسائل الشيعة ٩: ٣٢ كنز العمّال ١٥: الحديث ٤٣٨٦٥.

٤٤ـ الغاشية: ٢٦.

٤٥ـ فاطر: ٢٨.

٤٦ـ دستور الأخلاق في القرآن للدكتور محمد عبدالله

دراز، بيروت:١٣٩.

٤٧ـ المائدة: ٧٩.

٤٨ـ دستور الأخلاق:١٥٥.

٤٩ـ التحريم: ٦.

٥٠ـ النساء: ٧٥.

٥١ـ الإنشقاق: ٦.

٥٢ـ المائدة:١٦.

٥٣ـ الأنعام: ٥٤.

٥٤ـ في ظلال القرآن لسيّد قطب

٥٥ـ تفسير الميزان٥:٢٤٥ :لبنان.

٥٦ـ تفسير نمونه٤:٣٢٣.

٥٧ـ الأنعام: ٨٢.

٥٨ـ النور: ٥٥

٥٩ـ الأنعام: ٨١

٦٠ـ البقرة: ١٢٥.

٦١ـ البقرة: ١٣٦.

٦٢ـ الأعراف: ٨٥.

٦٣ـ راجع تفسير الميزان٤:٩٢ـ٩٦.

٦٤ـ الأنفال: ٣٦.

٦٥و٦٦ـ راجع تفسير الميزان٩:٥٢ـ٥٣

٦٧ـ آل عمران: ١٣٢.

٦٨ـ المائدة: ١٠٠.

٦٩ـ المائدة: ٣٥.

٧٠ـ النور: ٣١.

٧١ـ الأنعام: ٢١.

٧٢ـ الحج: ٧٧.

٧٣ـ الأنفال: ٤٥.

٧٤ـ البقرة: ١٢٨.

٧٥ـ الأنعام: ١٥١.

٧٦ـ الأعراف: ٣٢.

٧٧ـ الشورى: ٣٩.

٧٨ـ النساء: ١٤٨.

٧٩ـ النور: ١٩.

٨٠ـ الإسراء: ٣٢.

٨١ـ المائدة: ٩٠.

٨٢ـ المائدة: ٩١.

٨٣ـ الممتحنة: ٨ـ٩.

٨٤ـ الجاثية: ١٩.

٨٥ـ النساء: ١١٩.

٨٦ـ النساء: ١٣٩.

٨٧ـ المائدة: ٥١.

٨٨ـ البقرة: ١٢٠.

٨٩ـ البقرة: ١٠٩.

٩٠ـ آل عمران: ١١٨ـ١٢٠.

٩١ـ البقرة: ١٠٥.

٩٢ـ النساء: ٨٩.

٩٣ـ الممتحنة: ٨ـ٩.

٩٤ـ الممتحنة: ١ـ٢.

٩٥ـ المجادلة: ٢٢.

٩٦ـ النساء: ١٠٢.

٩٧ـ آل عمران: ٦٩.

٩٨ـ القلم: ٩.

٩٩ـ الكهف: ٣٠.

١٠٠ـ آل عمران: ١١٠.

١٠١ـ آل عمران: ١٠٤.

١٠٢ـ التوبة: ٧١.

١٠٣ـ التوبة: ١١١ـ١١٢.

١٠٤ـ الحج: ٤١.

١٠٥ـ المائدة: ٧٨ـ٨٠.

١٠٦ـ التوبة: ٦٨ـ٦٩.

١٠٧ـ الحج: ٤٥.

١٠٨ـ الفرقان: ٦٣ـ٧٤.

١٠٩ـ المؤمنون: ١ـ٩.

١١٠ـ آل عمران: ١٧.

١١١ـ الأحزاب: ٢٥.

١١٢ـ الشورى: ٣٦ـ٤٢.

١١٣ـ النور: ٣١.

١١٤ـ البقرة: ٢٠٨.

١١٥ـ البقرة: ٢٦٨.

١١٦ـ النساء: ٢٨.

١١٧ـ النساء: ٦٠.

١١٨ـ النساء: ٨٣.

١١٩ـ النساء: ١٢٠.

١٢٠ـ الأعراف: ٢٧.

١٢١ـ الأعراف: ٢٠١.

١٢٢ـ الإسراء: ٥٣.

١٢٣ـ النحل: ٢٤.

١٢٤ـ فاطر: ٦.

١٢٥ـ الزخرف: ٦٢.

١٢٦ـ المجادلة: ١٩.

١٢٧ـ الأنعام: ٧١.

١٢٨ـ القصص: ٥٠.

١٢٩ـ المائدة: ٧٧.

١٣٠ـ النساء: ١٢٥.

١٣١ـ الأعراف: ١٧٦.

١٣٢ـ آل عمران: ١٤.

١٣٣ـ النساء: ٢٧.

١٣٤ـ مريم: ٥٩.

١٣٥ـ الأحزاب: ٢١.

١٣٦ـ الممتحنة: ٤ـ٦.

١٣٧ـ آل عمران: ١٤٦.

١٣٨ـ النساء: ٥٩.

١٣٩ـ النساء: ٨٣.

١٤٠ـ المسؤولية المدنية، حسين عامر.

١٤١ـ النساء: ١٤٠.

١٤٢ـ البقرة: ٢٣٣.

١٤٣ـ النساء: ٩.

١٤٤ـ الروم: ٥٤.

١٤٥ـ غافر: ٦٧.

المجتمع القرآني (٢)
خصائصه، معالمه.

الاستاذ حسن السعيد

خصائص المجتمع:

لكل مجتمع خصائص تميّزه عن غيره، وفيما يلي أهم الخصائص العامّة التي تميّز المجتمع القرآني، وتحدّد اتجاهه، وتكشف عن قيمه ومبادئه:

أوّلاً- ربّاني:

أوّل ما يلفتنا، في ذلك، أنّ المجتمع القرآني مجتمع ربّاني، يقوم على طاعة الله وتحقيق ارادته، كما تمثلت في آخر رسالة وأصدق كتاب، وهو بذلك يحدّد عقيدته وفلسفته «ايديولوجيته» ويضع دستوره الذي لايتبدل، ويستغني عن كلّ عقيدة ونظام...[١]

لقد تفرّد الإسلام بمنهجه الربّاني، في إبراز أخصّ خصائص الإنسان وتنميتها وإعلائها، في بناء المجتمع الإنساني، وما يزال متفرّداً...[٢] وتتجلّى ربّانية المجتمع القرآني في الأمور الأساسية التالية:

١ـ الإيجاد والتكوين: فالقرآن يقرّر أنّ الله سبحانه وتعالى هو الذي أوجد وأخرج الأمة الإسلامية إلى الوجود:

﴿كنتم خير أمّة أخرجت للناس﴾.[٣]

﴿الله وليّ الذين آمنوا يخرجهم من الظلمات إلى النور﴾.[٤]

واذ نعزي ظهور المجتمع الإسلامي إلى الله تعالى، فإنّه سيكون من لغو الكلام اللجوء إلى التفاسير الوضعية التي يقدمها علماء الاجتماع الماركسيون أو الرأسماليون، لتفسير ظاهرة ظهور الأمة الإسلامية. فلا تبدّل قوى الإنتاج وعلاقاته أدّى إلى ظهورها، ولا عوامل الطبيعة وتقلبات المناخ أحدثت ذلك التحوّل الحضاري العظيم، في الجزيرة العربية،

وفي العالم كلّه، بعد ذلك، ويشير القرآن إلى ارتباط الأمة الإسلامية ـ وجوداً وعدماً ـ بالله سبحانه وتعالى بقوله:

﴿يا أيّها الذين آمنوا من يرتد منكم عن دينه فسوف يأتي الله بقومٍ يحبّهم ويحبّونه﴾. [5]

٦ ـ المنهج والعقيدة: ولم يخرج المجتمع القرآني بحركة خاطفة أو على طريقة «كن فيكون» ـ إنّما تمّ ذلك عبر عملية تربوية وتغييرية شاقّة وطويلة استغرقت ٢٣ سنة. والقرآن الكريم هو الذي تولّى التربية والتغيير الإلهيين بقيادة الرسول (ص):

﴿وقرآناً فرقناه لتقرأه على الناس على مكث﴾. [6]

﴿الر كتاب أنزلناه إليك لتخرج الناس من الظلمات إلى النور بإذن ربّهم إلى صراط العزيز الحكيم﴾. [7]

فالقرآن هو منهج الأمة وعقيدتها، وشريعتها، وفكرها، وفي هذا رفض لكل المناهج البشرية القديمة والحديثة التي لاتتفق ولا تنسجم مع المنهج الربّاني للأمة المسلمة.

٧ـ المثل الأعلى: إنّ المجتمع القرآني يتّخذ الله مثلاً أعلى مطلقاً له، ولبنائه، ولحركته التاريخية، وهذا المثل الأعلى المطلق يموّنه بطاقة حركية حضارية لاتنضب، وشريعة سماوية عادلة كاملة، وبصلة موضوعية بين المثل الأعلى المطلق وبين المجتمع، وتتم هذه الصلة الموضوعية عبر النبيّ (ص) ثم عبر الأئمة عليهم السلام. [8]

ولتلك الربّانية التي يقوم عليها المجتمع القرآني آثارها في سلوك ذلك المجتمع ومواقفه في الحياة، فلامكان فيه لإتّخاذ الناس أرباباً من دون الله، ولا موالاة فيه لغير الله [9]:

﴿ما كان لبشر أن يؤتيه الله الكتاب والحكم والنبوّة ثمّ يقول للناس كونوا عباداً لي من دون الله ولكن كونوا ربّانيين بما كنتم تعلمون الكتاب وبما كنتم تدرسون﴾. [10]

والمفهوم من: **﴿كونوا ربّانيين﴾** أي كونوا منتسبين إلى الرب، عباداً له وعبيداً، توجّهوا إليه وحده بالعبادة، وخذوا عنه منهج حياتكم، حتّى تخلصوا له وحده فتكونوا «ربّانيين» . . . بحكم علمكم للكتاب وتدارسكم له. فهذا مقتضى العلم بالكتاب ودراسته. [11]

ثانياً ـ انساني:

وتأتي بعد تلك الخصّيصة الفذة أخرى تنبع منها، وهي الإنسانية، فالمجتمع

القرآني مجتمع الانسان بكلّ ما تحمله تلك الكلمة من معنى نبيل، يحمي حقوقه ويحفظ عليه خصائصه السامية، ويفسح جنباته لكل منْ يؤمن بالحق ويعمل للخير لايفرّق بين لون أو جنس أو منزلة. فالكل لآدم، والكل خلفاء في الأرض، مادلّوا على سنن الهداية والرشاد ...[١٢] والقاعدة الإسلامية تقول: لا فضل لعربي على أعجمي إلاّ بالتقوى. والمبدأ الإسلامي يقول: ﴿إنّ أكرمكم عند الله أتقاكم﴾[١٣]، وعلى هذا فإنّ المجتمع القرآني انساني الطابع، فهو يضم في إطاره مختلف الأجناس والأعراف والقوميّات. والمجتمع القرآني عالمي التوجّه، حيث لاتحدّه الأقاليم، ولا تقف بوجهه الحدود الجغرافيّة ولا الموانع الأرضية. وهذا هو السرّ في عدم وجود حدود مقرّرة لفكرة «الوطن الإسلامي»، الذي هو من انجازات الرسالة الإسلامية ومتطلبات الأمة الإسلامية. فالعالم كله مشروع لوطن اسلامي كبير. والأرض انّما تكتسب صفتها من صفة الأمة التي تسكنها وتحكمها. وقد وعدهم الله بوراثة الأرض. فلا وجود للاقليمية الضيّقة في فكر الأمة الإسلامية.: ﴿وما أرسلناك إلاّ كافةً للناس بشيراً ونذيراً﴾.[١٤]

وفي هذا السياق، ليس المجتمع القرآني طبقي النظام، وليس للأوضاع الاقتصادية علاقة بتكوين نظامه، وليس وجود القاعدة الاقتصادية الواحدة شرطاً في وحدة المجتمع، على النقيض من مقولة الماركسية.[١٥]

ولا يعرف التاريخ الإنساني نظيراً لتلك الحقبة الطويلة التي حقق فيها المجتمع الإسلامي انسانيته، وحافظ على عدالته وسواسيته، بين كلّ من عاش في أنحائه، من مختلف الأجناس والأديان والألوان.

لقد استطاع المجتمع الإسلامي، في مسيرته الطويلة، أن يعدل بين الكافة وأن يعطي كل ذي حقّ حقّه، ولم يؤثر عنه اضطهاد أو تنكيل حتى لمن لايؤمن بالإسلام، من أهل الكتاب أو غيرهم من أهل الذمّة.[١٦]

وعن هذه النقطة الأخيرة، لا بأس أن نستشهد بما يقوله الآخرون، والفضل ما شهدت به الأعداء، وما دام البعض يفضّل في الغالب الرأي الأوروبي، حتّى في مسائلنا التي نعرفها أكثر. فماذا يقول «برنارد لويس» (وهو فوق هذا يهودي) عن المسلمين والتسامح؟ (رغم تحفّظنا على بعض ما ألصق الإسلام من مصطلحات غربية، بعيدة عن روح الإسلام ومفاهيمه).

«لقد نجح الإسلام (التقليدي)، ولم

تنجح المسيحية في الحقيقة يوماً، في جمع التسامح الديني مع الإيمان الديني العميق، فلم يشمل الإسلام بتسامحه غير المؤمنين فقط، بل الهراطقة أيضاً، وهذا اختيار أصعب بكثير . . .وفي الصعيد الاجتماعي كان الإسلام (ديمقراطيّاً) على الدوام. أو كان بالاحرى يقول بالمساواة، فيرفض المجموعات المنغلقة، كما في الهند، ويرفض الامتيازات الأرستقراطيّة كما في أوربا».(١٧)

وعن الفرق الكبير في المعاملة بين تلك التي كان يتعرض لها نصارى الشرق تحت نير الدولة البيزنطيّة. وبين التي كانوا قد وجدوها في رحاب الإسلام، يشير الدكتور أدمون رباط فيقول: «ولاشك في أنّ المسيحيين المخضرمين، الذين عاصروا الفتح الإسلامي، هم أكثر من لمس الأمر بوضوح. إذ انتقلوا فجأة من سلطان دولة كانت تضطهدهم اضطهاداً وصفه بعض المؤرّخين العصريين في أوربا بأنّه لايُشبَه حتّى باعمال البهائم»، (وهي الدولة البيزنطية) إلى سلطان دولة حافظت لهم على أديارهم وبيعهم، بعد طول تعرّضها للهدم والحرق والمصادرة، كما خيّرتهم بين اعتناق الإسلام أو البقاء على دينهم، بشرط الدخول في ذمّة المسلمين، أي بشرط الانضمام إلى دولة الإسلام، ورفض المقاتلة مع أعدائها، وكان اكليروس الكنيسة القبطية كله متخفياً في الصحارى هرباً من المذابح البيزنطية، فلمّا جاء الفتح الإسلامي عادت الكنيسة المصرية إلى حرّيتها الكاملة علناً. . .!

ولهذا، كان في الإسلام متّسع للنصارى، لم يكن متاحاً لهم شيء منه في دولة بيزنطية، كما يقرّ بهذه الحقيقة كاتب نصراني معاصر.(١٨)

ثالثاً ـ ملتزم:

وإلى جانب ذلك، فإنّ من أهم خصائص المجتمع الإسلامي أنّه يقوم في تطبيق مبادئه ورعاية أهدافه على الالتزام الذي يؤدي فيه كلّ فرد واجبه عن طواعية ويقين، ويرجع فيه الجميع إلى مبادىء واضحة لايقصر عن بلوغها أحد.

إنّ العقيدة التي تربط بين قلوب أفراد هذا المجتمع تقوم على الإقتناع الحرّ الذي لا إكراه فيه ولا عنت: ﴿لا إكراه في الدين قد تبيّن الرشد من الغيّ﴾.(١٩)

والمؤمنون جميعاً يتواصون بالحقّ والصبر ويأمرون بالمعروف وينهون عن المنكر، أو بمعنى آخر يلتزمون بحماية مبادئ مجتمعهم ويعملون جميعاً على استقامة سيره وصوابه: ﴿والمؤمنون

والمؤمنات بعضهم أولياء بعض يأمرون بالمعروف وينهون عن المنكر ويقيمون الصلاة ويؤتون الزكاة ويطيعون الله ورسوله﴾.[٢٠]

وكلّ فرد في ذلك المجتمع عليه أن يراقب سعي ذلك المجتمع، وأن يقوم بواجبه نحو حمايته من كلّ آفة تهدّد أمنه، وتخسر ميزانه، وتجلب له الشقاء والوهن.[٢١]

وهذا المجتمع، القائم على منهج الله، المحكوم بشريعته، هو الذي يستحق أن تصان فيه الدماء، وتصان فيه الأموال، ويصان فيه النظام العام . . . مجتمع مكفولة فيه ضمانات العمل وضمانات الكفاية لكل قادر ولكل عاجز . . . مجتمع تتوافر فيه الحوافز على الخير وتقلّ فيه الحوافز على الشرّ من جميع الوجوه . . .[٢٢]

ويتجلّى جانب الالتزام في هذا النسيج الفريد للفرد القرآني والمجتمع القرآني، وهو ما يسمّى بالضمير الاجتماعي. والذي تتكامل دوائره على أكثر من صعيد: فهناك التزامات الشخصية القرآنية أمام الله، والنفس، والأسرة، والمجتمع ككل . . . كل ذلك ضمن التزامات المجتمع القرآني أمام الله، وعباد الله بلا استثناء: ﴿يا أيّها الناس اتّقوا ربّكم الذي خلقكم من نفس واحدة وخلق منها زوجها وبثّ منهما رجالاً كثيراً ونساء واتّقوا الله الذين تساءلون به والأرحام إنّ الله كان عليكم رقيباً﴾[٢٣]، ﴿يا أيّها الذين آمنوا قوا أنفسكم وأهليكم ناراً وقودُها الناس والحجارة . . .﴾.[٢٤]

والالتزام ــ المتبادل ــ هو بالنهاية التزام مسؤول: ﴿وقفوهم إنّهم مسؤولون﴾[٢٥]، ﴿واوفوا بالعهد إنّ العهد كان مسؤولاً﴾.[٢٦]

كما وأنّه متوازن، فبيئة النظام الإسلامي، أو بيئته الاجتماعية تشكّل الفرد في تفكيره وسلوكه وتصوغ كل حركاته وسكناته التي تستهدف عبادة الله الواحد القهّار، هذا من ناحية، ومن ناحية أخرى نجد أنّ هذه البيئة الاجتماعية تربط الفرد بالمجتمع وتوازن بين بناء الفرد وبناء المجتمع، وهذا التوازن في البناء والتناسق يتجلّى في أعظم صوره في العبادات من صلاة وصوم وزكاة وحج، فهي رغم أنّها صلة بين الفرد وخالقه وتربية روحيّة دائمة ومتجدّدة إلاّ أنّها رابطة اجتماعية متينة تربط الأفراد بعضهم ببعضٍ. وذلك بطبيعة أدائها لاسيّما الزكاة والحج، وحتّى الصلاة فهي مفضلة في جماعة، للمعاني الكبيرة التي يمكن أن تترتب على أدائها في جماعة . . .

وقد استهدفت رسالة الإسلام هدفاً

رئيساً وهو خلق المجتمع الإنساني المثالي ــ من حيث سلوك أفرادهم ومعاملاتهم وعلاقاتهم مع بعضهم، كما جاء الإسلام ليعيد للشخصية الإنسانية وحدتها وتكاملها بربطه بين القيم التي تحكم مسلكها الخاصّ، وبين تلك القيم التي تحكم مسلكها العام ... ونشأت بذلك قيم اجتماعية أصبحت تشكل الكيان النفسي للأفراد والكيان الاجتماعي للجماعات ...

وعلى ضوء هذه القيم تشكّل مجتمع انساني مترابط ... يجعل هدف الحياة الاجتماعية القائمة على التكافل والتضامن والتعاون هو المحور الأساس الذي تقوم عليه حياة الفرد ومثله وقيمه، إذ أنّ قيم المجتمع المسلم هي التي تكون ضمير الفرد المسلم، وبالتالي الضمير الاجتماعي لديه، وحرصه لحماية وحفظ هذه القيم الاجتماعية، تمثّل في نفس الوقت حرصه وحفظه لقيمه الذاتية هو نفسه.

وعلى هذا الأساس فإنّ العبادات ــ والتي تكوّن في النهاية كل القيم الاجتماعية الإسلامية ــ ليست عملاً فردياً يخصّ الإنسان في علاقاته بربّه فحسب. وإنّما هي وسيلة لإثراء حياة المجتمع، وتحقيق الأهداف الاجتماعية الخيّرة، وربط أهداف المجتمع وقيمه بأهداف وقيم الأفراد ...

وهكذا امتزجت هذه القيم الاجتماعية، في ضمير المسلم، فصاغت شخصيّة الفرد المسلم الذي أصبح في سعيه الدائب لتحقيق ذاته، في حياة المجتمع، يمثّل التكامل العضوي بين حياته الخاصّة والحياة العامّة، في تناسق تام بين بنائه الفردي وبناء المجتمع الجماعي، من خلال هذه القيم الاجتماعية الإسلامية.(٢٧)

وفي سورة النساء نجد بعض الملامح التي يتوخّى المنهج الإسلامي انشاءها وتثبيتها في المجتمع المسلم، بعد تطهيره من رواسب الجاهلية، وإنشاء الأوضاع والتشريعات التنفيذية، التي تكفل حماية هذه الملامح وتثبيتها في الواقع الاجتماعي.

نجد في مستهلها تقريراً لحقيقة الربوبية ووحدانيتها، ولحقيقة الإنسانية ووحدة أصلها الذي أنشأها منه ربّها، ولحقيقة قيامها على قاعدة الأسرة، واتصالها بوشيجة الرحم، مع استجاشة هذه الروابط كلها في الضمير البشري، واتخاذها ركيزة لتنظيم المجتمع الإسلامي على أساسها، وحماية الضعفاء فيه، عن طريق التكافل بين الأسرة الواحدة، ذات الخالق الواحد، وحماية هذا المجتمع من الفاحشة والظلم والفتنة، وتنظيم الأسرة المسلمة والمجتمع المسلم، والمجتمع

الإنساني كلّـه، على أساس وحدة الربـوبية ووحدة البشـرية: ﴿يا أيّها الناس اتّقـوا ربّكم الذي خلقكم مـن نفس واحدة وخلق منهـا زوجهـا وبـثّ منهمـا رجـالاً كثيـراً ونسـاء واتقـوا الله الذي تسـاءلـون بـه والأرحام إنّ الله كان عليكم رقيباً﴾.[٢٨]

. . . وهــذه الحقيقــة الكبيــرة التـي تتضمنها الآيـة الكريمة تمثّل قاعـدة أصيلة في التصوّر الإسـلامي، تقوم عليهـا الحياة الجماعية.[٢٩]

ولا يفوتنا التأكيد على أنّ هذا المجتمع (الـربّانـي، الإنساني، الملتـزم) هـومجتمع واقعي، رغـم مثاليتـه وسمـوّه، بيد أنّ هـذه المثالية ليسـت من قبيل المثالية الطـوباوية كجمهوريـة افلاطـون، وليست مثاليـة غير ممكنة التحقق كمـا هو الحال في تهـويمات الفلاسفة حول «المدينة الفاضلة»، وإنّما هذا المجتمع القرآني المثالي ـ ونـؤكّد ثانية على مثـاليتـه ــ مجتمع واقعـي، بل فـي منتهى الواقعيـة، إنّه المثاليـة الواقعية، أو الـواقعيّة المثالية[٣٠] . . . فهو لا يقـدّم مبادئ نظـرية، ولا تـوجيهـات مجـرّدة . . . ولكنـه يطبّـق ويزاول نظرياته وتوجيهاته[٣١]، حتّى تمثّل حقيقة واقعة، في فترة من فترات التاريخ، لم تنبت فجأة ولم تـوجد مصادفـة، ولم تخلق بين يوم وليلـة. كذلك لم تظهر نتيجـة نفحة تغيّـر طبـائع الأشيـاء كلّهـا فـي لحظـة أو ومضة: بل نمت نموّاً طبيعياً بطيئاً كما تنمو الشجرة الباسقة العميقة الجذور.[٣٢]

هذا المنهج ـ اذن ــ لا يقفز على منطق الأشيـاء وحقائق الـواقع، وإنّمـا يبدأ بكل جماعة من النقطة التي هي فيها، ومن الواقع المادّي الذي هي فيه، ثمّ يمضي بها صعداً، كما بدأ بتلـك الجماعة من الجاهليـة العربية السـاذجة . . . من السفـح . . . ثم انتهى بها، فـي فتـرة وجيـزة لم تبلـغ ربع قـرن مـن الزمان، إلى ذلك الأوج السامق.[٣٣]

معالم المجتمع:

إنّ أهمّ المعالم التي يتّسم بها المجتمع القرآني هي:

أوّلاً ـ مجتمع متآخ:

كـان من الطبيعـي أنّ يكـون المجتمع القرآني مجتمعاً متآخياً، خـاصّة وأنّه يؤمن بإلـٰه واحد، وله كتـاب واحد، وقبلـة واحدة، ورسول واحـد، وغاية واحدة. وبهـذا صدح الخطـاب القـرآنـي: ﴿إنّمـا المؤمنـون اخوة﴾.[٣٤]

وبديهـي أنّ هذه الأخوة تتسـامى على كلّ النعـرات الجاهليـة الضيّقة، والتي كـان يقـوم عليهـا المجتمع، مـن روابط النسـب

والجنس، لتقوم على الاساس الروحي والفكري في وحدة العقيدة ووحدة الغاية، متخطّية في ذلك الروابط التي تحمل في طيّاتها عوامل التفكك وبذور الانهيار.[٣٥]

وليس من قبيل المصادفة أبداً، أن يعمد رسول الله (ص) إلى اتّخاذ خطوة المؤاخاة بين المسلمين، حال وصوله يثرب، فقد فتح أهلها الذين اعتنقوا الإسلام قلوبهم لإخوانهم الذين وفدوا من مكّة، على غير أرحام بينهم، بعيداً عن نطاق العصبيّة للقبيلة والنفرة من غيرها، واتسعت ديارهم وأسواقهم وأموالهم لأولئك الذين هاجروا إليهم، على نحو ما سجّل القرآن ذلك الموقف الفريد: **﴿والذين تبوأوا الدار والإيمان من قبلهم يحبّون من هاجر إليهم ولايجدون في صدورهم حاجة ممّا أوتوا ويؤثرون على أنفسهم ولو كان بهم خصاصة ومن يوقَ شحّ نفسه فاولئك هم المفلحون﴾**.[٣٦]

وهذا الذي قام به الأنصار، نحو إخوانهم المهاجرين، لم يصدر عن كرم اعتاده العربي نحو من ينزل عليه، لكنّه صدر عن ادراك لعلاقة جديدة انشأها الإسلام بين أتباعه، هي أنّ المسلم أخو المسلم، وأنّ لتلك الأخوّة حقوقاً تقتضيها، ليس عاطفة مجرّدة أو فكرة محلّقة، بل هي تنظيم عملي للمجتمع الجديد يربط بين الأفراد برباط وثيق....

وبهذا الصدد يقول ابن اسحق: وآخى رسول الله صلّى الله عليه وآله وسلّم بين أصحابه من المهاجرين والأنصار، فقال: تآخوا في الله أخوين أخوين، ثمّ أخذ بيد علي بن أبي طالب، فقال: هذا أخي.[٣٧]

ويقول السهيلي: «آخى رسول الله صلّى الله عليه وآله بين أصحابه حين نزلوا بالمدينة، ليذهب عنهم وحشة الغربة، ويؤنسهم من مفارقة الأهل والعشيرة، ويشدّ أزر بعضهم ببعض، فلمّا عزّ الإسلام، واجتمع الشمل، وذهبت الوحشة، أنزل الله سبحانه: **﴿واولوا الأرحام بعضهم أولى ببعض في كتاب الله﴾**[٣٨] أعني في الميراث، ثمّ جعل المؤمنين كلّهم أخوة فقال: **﴿إنّما المؤمنون أخوة﴾**: يعني في التوادد وشمول الدعوة».[٣٩]

ولم يكتف الرسول (ص) بالمؤاخاة بين المهاجرين والأنصار، بل اتّخذ نفس المنحى بين الأنصار أنفسهم، لمّا كان بين الأوس والخزرج من تناحر في جاهليتهم: **﴿واذكروا نعمة الله عليكم اذ كنتم أعداء فالّف بين قلوبكم فاصبحتم بنعمته إخواناً﴾**[٤٠]، وراح الرسول على هذا المنوال، ليؤاخي بين السيّد والعبد، بين

القرشي والحبشي، بين الفارسي والرومي . . . وهكذا كانت الهجرة إعلاناً لمولد مجتمع جديد يقوم على آصرة فذّة تنبع من العقيدة وتعمل لها.

إنّ الإسلام يعتمد في بناء مجتمعه على قوة الرابطة التي يضعها بين المسلمين، ويجعل منهم جسماً واحداً يتّجه في قوّة إلى غاية واحدة، وذلك ما يصوّره الحديث: «مثل المؤمنين في توادّهم وتراحمهم وتعاطفهم مثل الجسد الواحد اذا اشتكى منه عضو تداعى له سائر الجسد بالسهر والحمّى».

وهذا أقصى ما يبلغه مجتمع من الترابط والتساند، بل هو أمثل حد يمكن أن تبلغه الإنسانية في تكاتفها وتضامنها، وهو مالم يصل إليه المسلمون قديماً إلاّ عن طريق العقيدة وعلى أساس الأخوة . . . .[41]

يقول الله سبحانه: **﴿هو الذي أيّدك بنصره وبالمؤمنين وألّف بين قلوبهم لو انفقت ما في الأرض جميعاً ما ألّفت بين قلوبهم ولكنّ الله ألّف بينهم إنّه عزيز حكيم﴾**.[42]

ثانياً ـ مجتمع متساوٍ:

كان الناس، قبل الإسلام، يتميّزون في المجتمعات أنواعاً مختلفة . . . حرّ وعبد، شريف ووضيع. وكان التعامل والتعايش يجري على هذا الأساس، وكانت الطبقات تعيش وراء حواجزها الفاصلة، لايجرؤ أحد على تجاوزها أو تحطيمها.

ولكن المجتمع الإسلامي منذ قام، استطاع أن يهدّم قواعد التفرقة الزائفة، وأن يردّ البشر الى حقيقتهم الكبيرة، وأن يرجعهم إلى أصلهم الواحد . . . فعاش الناس في ذلك المجتمع، على ضوء تلك الحقيقة الواضحة:

﴿يا أيّها الناس اتّقوا ربّكم الذي خلقكم من نفس واحدة وخلق منها زوجها وبثّ منهما رجالاً كثيراً ونساءً﴾.[43]

ويؤكد الرسول صلوات الله وسلامه عليه هذا المبدأ، في أحاديثه، فيقول: «الناس لآدم وآدم من تراب لا فضل لعربي على أعجمي ولأبيض على أسود إلاّ بالتقوى» وكذلك قوله (ص): «الناس سواسية كأسنان المشط».

وقد ضرب لنا أهل البيت سلام الله عليهم ـ وهم القرآن الناطق ـ أروع الأمثلة في هذا المضمار، فعن عبدالله بن الصلت، عن رجل من أهل بلخ قال: كنت مع الرضا (ع) في سفره إلى خراسان، فدعا يوماً بمائدة له، فجمع عليها مواليه من السودان وغيرهم. فقلت: جعلت فداك! لو عزلت لهؤلاء مائدة؟ فقال: «مه! إنّ الربّ تبارك وتعالى واحد،

والأم واحـــدة، والأب واحـــد، والجـــزاء بالأعمال».[٤٤]

ومن هنـا فإنّ الإسـلام لايقرّ التفـاوت بين البشـر، في التقـدير بسبـب المولـد أو الأصل أو اللون أو الوراثـة، فذلك الأختلاف في الانساب أو الأجناس أو الألوان لا يصلح أن يكـون داعيـاً لـلاختـلاف في الحقـوق والواجبات ما دام الأصـل الواحد يجمع بين الناس جميعاً، يقول الله سبحانه:

﴿يا أيّها الناس إنّا خلقناكم من ذكر وأنثى وجعلناكم شعوباً وقبائل لتعارفوا إنّ أكـرمكم عنـد الله أتقـاكـم إنّ الله عليم خبير﴾.[٤٥]

وبهـذا يقطـع الإســلام السبيل علـى النظـام الطبقي، ومـا يصحبـه مـن تظـالم اجتماعي، ويترك السبيل أمـام كلّ فرد لنيل ما يصلح له، وبذل مـا يقدر عليه من جهود، موقناً أنّه سينال أجره ويجني ثمرة جهاده.

وقد كـانت هـذه المبادئ التي اعتنقهـا المجتمـع الإسـلامي، منـذ نشـأتـه، ثـورة اجتماعية هائلةً بـدّلت الأوضـاع الاجتماعية، ووضعت الآصار عن المستضعفين، بعد أن قـاست البشـريّة، منـذ فجـر التاريـخ، من التفـاوت والتظالـم الاجتمـاعي، ممـا جعل قضيّة المساواة آخر قضيّة في تاريخ العالم القديم.

إنّ المجتمع الإسـلامـي يسـاوي بين البشر جميعـاً في القيمـة الإنسانيـة، فليس هناك شريف ووضيـع، مادام الكلّ أبناء أب واحـد وأمّ واحدة، وليسـت الانساب مجـالاً للفخر والتفـاضل، بل هي أسـاس للتعارف والانتماء.

ولذلك فقد حـرص المجتمع الإسلامي على تطبيق المسـاواة حرصه علـى الإيمان بها، لأنّ أمر المساواة في الإسلام ليس نافلة يتجاوز عنها، أو حلية يغضـي عن المطالبة بها، بل هي مبدأ أصيل وميزان لايختل، وإلاّ اختـل معـه الكثيـر مـن مبـادئ المجتمـع وأوضاعه.[٤٦]

ومن أروع الأمثلة، في هـذا المقام، هو ما ضـربه أميـر المؤمنين(ع) مـن اعتراض على الخليفـة الثـاني، حينمـا كنّاه بـ«أبي الحسن» أمـام خصمه اليهـودي. والحكايـة هي: خاصم يهودي علـي بن أبي طالب(ع) وكان علي جالساً عند عمر فلمّا جاء خصمه قال عمـر: قم يا أبا الحسن . . . فتغيّـر وجه علي وعـلاه الغضب. فقال له عمـر: غضِبتَ لأنّي قلتُ لك قم لاسوّي بينك وبين اليهودي في مجلس القضاء، فقال لا، بل غضبت لأنّك ناديتني بكنيتي فقلت يـا أبا الحسن . . . ولم تقل يا علي.[٤٧]

ثالثاً ـ مجتمعٌ حرّ:

انصبّ اهتمام الإسلام، ومنذ البدء، على إقامة صرح المجتمع الحرّ، وذلك عبر تعبيد الناس لله وحده **﴿إيّاك نعبد وإيّاك نستعين﴾**(٤٨) وهذا يعني انعتاق البشرية من ذلّ عبودية المخلوق إلى عزّ عبادة الخالق سبحانه.

وقد خاض المجتمع الإسلامي في نشأته معركة الحرّية، وذاق مرارة الكفاح في سبيل النجاة من بأس الطغيان وجبروت الكفر . . . وكان الطريق إلى الحرّية وعراً محوطاً بالأشواك . . . وكان لابد من بلوغ الغاية وتحقيق الهدف مهما كانت التضحيات.

ومع الأيّام يشتد الاضطهاد ويبلغ التنكيل مداه، حتّى يهاجر المسلمون إلى الحبشة . . . وكانت الهجرة إلى المدينة خطوة حاسمة في تحقيق الحرية للجماعة الإسلامية.

ففي المدينة يعبد المسلم ربّه لايُضطهد ولا يخاف، وفيها يجد إخواناً له **﴿تبوأوا الدار والإيمان من قبلهم يحبّون من هاجر إليهم ولايجدون في صدورهم حاجةً مما أوتوا ويؤثرون على أنفسهم ولو كان بهم خصاصة﴾**.(٤٩)

ولم تكن الهجرة هروباً ولا تبدلاً لمكان بمكان، بل كانت حركة ضرورية لبناء المجتمع الإسلامي الحرّ ، الذي لاعنَت فيه ولا إكراه، ولا مصادرة لحقوق الإنسان.

ولذلك كانت الهجرة فريضة لازمة لا يغتفر للمسلم، في ذلك الحين، اهمالها، مادام قادراً عليها، اذ كانت تحقيقاً لحرّية الفرد وبناءً لحرّية المجتمع: **﴿إنّ الذين آمنوا وهاجروا وجاهدوا باموالهم وأنفسهم في سبيل الله والذين آووا ونصروا اولئك بعضهم أولياء بعض والذين آمنوا ولم يهاجروا مالكم من ولايتهم من شيء حتّى يهاجروا﴾**.(٥٠)

وفي سبيل تلك الحرّية قاتل المسلمون، لتكون كلمة الله هي العليا، وكلمة الذين كفروا هي السفلى . . . وفي سبيل رفع الإصر عن المستضعفين، وكسر قيود المستكبرين، وتأكيد حقّ الإنسان أن يختار عقيدته عن رضا واقتناع **﴿ ومالكم لاتقاتلون في سبيل الله والمستضعفين من الرجال والنساء والولدان الذين يقولون ربّنا أخرجنا من هذه القرية الظالم أهلُها واجعل لنا من لدنك وليّاً واجعل لنا من لدنك نصيراً الذين آمنوا يقاتلون في سبيل الله والذين كفروا يقاتلون في سبيل الطاغوت﴾**.(٥١)

ولا يذهبنّ بنا الظن أنّ المجتمع

الإسلامي محيط مغلق على الآخرين، ومعنى هذا أنّ حرّية العقيدة مكفولة في المجتمع الإسلامي، وليس معنى كونه مجتمعاً اسلامياً أن يصبح كل فرد فيه مسلماً، بل هو يتّسع لمعايشة من يختارون ديناً غيره، مادام الأمر لا كيد فيه ولا فتنة.

ولايشعر أحد ممن لايدينون بالإسلام باضطهاد ولا ذلّة: **﴿لاينهاكم الله عن الذين لم يقاتلوكم في الدين ولم يخرجوكم من دياركم أن تبرّوهم وتقسطوا إليهم إنّ الله يحبّ المقسطين﴾**.(٥٢)

وقد عاش أهل الكتاب في حرّية ظاهرة، في كلّ أنحاء المجتمع المسلم، لم يحملوا على ترك عقيدتهم ولم يضيّق عليهم في شعائرهم، ولم يشعروا يوماً بالهوان والاضطهاد... ولا يزالون كذلك حتّى اليوم في كلّ أقطار الإسلام.

ولابد أن يقودنا الحديث عن حرّية الفرد، في المجتمع الإسلامي، إلى التوقّف ازاء مشكلة الرقّ وموقف الإسلام منها... وكيف أنّه وضع قضيّة تحرير الرقاب في موضعها الإنساني الصحيح، حيث أهاب بالإنسان أن يسعى سعيه لتحرير أخيه المستعبد ليردّه في موكب الحياة، إنساناً يملك أمره ويختار وجهته.

ولا يكتفي الإسلام بالدعوة إلى التحرير والترغيب في بذل المال في سبيل الإعتاق، بل نراه يعمل على سدّ منافذ الرقّ ويسعى لتضييق قاعدته،... **﴿لا يؤاخذكم الله باللغو في أيمانكم ولكن يؤاخذكم بما عقّدتم الأيمان فكفّارته إطعام عشرة مساكين من أوسط ما تطعمون أهليكم أو كسوتهم أو تحرير رقبة﴾** (٥٣)، و**﴿الذين يظاهرون من نسائهم ثمّ يعودون لما قالوا فتحرير رقبة﴾** (٥٤)، و**﴿ومن قتل مؤمنا خطأ فتحرير رقبة مؤمنة ودية مسلّمة إلى أهله﴾**.(٥٥)

ولا يكفي أن يشعر الفرد بحرّيته داخل مجتمعه فحسب، بل لابد أن يشعر بأنّ مجتمعه نفسه حرّ، لايعيش تحت وصاية دخيل أو تسلّط أجنبي، ولا ينفذ ارادة إلا إرادة أبنائه: **﴿ولله العزّةُ ولرسوله وللمؤمنين﴾** (٥٦)، و**﴿لن يجعل الله للكافرين على المؤمنين سبيلاً﴾**.(٥٧)

وفي سبيل حرّية المجتمع فرض الإسلام الجهاد: **﴿ومالكم لا تقاتلون في سبيل الله والمستضعفين من الرجال والنساء والولدان...﴾**(٥٨)، و**﴿أُذن للذين يقاتلون بأنّهم ظُلموا وأنّ الله على نصرهم لقدير الذين أخرجوا من ديارهم بغير حقّ إلاّ أن يقولوا ربّنا الله...﴾**.(٥٩)

والحرّية في الإسلام، بعد هذا كلّه، هي

حرّية ملتزمة مسؤولة وتنتهي حرّية الفرد حيثما تبدأ حرّية الآخرين. والمجتمع لايحقق حرّيته على حساب الآخرين.

وبهذا الصدد يقول العلاّمة الطباطبائي«ره»: «إن الاجتماع لايتم من الفرد إلاّ بإعطائه الأفراد المتعاونين له حقوقاً متقابلة محترمة عنده ليعطوه بأزائها حقوقاً يحترمونها، وذلك بأن يعمل للناس كما يعملون له، وينفعهم بمقدار ما ينتفع بهم، ويحرم عن الانطلاق والاسترسال في العمل على حسب ما يحرمهم، فليس له أن يفعل ما يشاء ويحكم ما يريد، بل هو حرّ فيما لا يزاحم حرّية الآخرين، وهذا حرمان عن بعض الحرّية للحصول على بعضها».(٦٠)

ويكفي أنّ الإسلام لايرضى باستغلال ولا استعمار، ولا يؤمن بفرض مبادئه بالقوة أو البأس، ولا يسلب حرّية الإنسان مهما كانت عقيدته أو لونه. ذلك لأنّ الحرّية هي حقيقة الحياة وجوهرها الأصيل (٦١) وقد قرّر الإسلام للمجتمع ــ أفراداً وجماعات ــ ما اصطلح عليه بالحرّيات التالية: حرّية الذات، حرّية المأوى، حرّية الاعتقاد، حرّية الرأي، حرّية التعليم، حرّية التملّك....(٦٢)

رابعاً ـ متكافل:

والمجتمع القرآني أيضاً مجتمع متكافل متراحم متعاون، والأمة الإسلامية صاغها القرآن الكريم وجعلها أمّة واحدة، والمؤمنون أخوة، فالمؤمن للمؤمن كالبنيان يشدّ بعضه بعضاً، ومثل المؤمنين في توادّهم وتراحمهم وتعاطفهم مثل الجسد، اذا اشتكى منه عضو تداعى له سائر الجسد بالسهر والحمّى، والجماعة رحمة والفرقة عذاب، ويد الله على الجماعة، والمؤمنون بعضهم أولياء ونصراء بعض، يرعى القويّ الضعيفَ، والغنيُّ الفقيرَ، والصحيحُ المريضَ. والمحبّة نسيج الإيمان الذي يجمع أبناء هذا المجتمع، وهذا المجتمع هو قاعدة الدولة في سلمها وحربها، وفي دعم أزماتها المالية ورفدها بكلّ ما تحتاج إليه لحماية وضمان المصالح العامّة الداخلية والخارجية.(٦٣)

وفي ضوء ذلك، فإنّ التكافل الاجتماعي معناه التساند والتضامن بين مجموعة من الناس تعيش في مكان واحد، ويجمعها قانون وعادات واحدة ينشأ بينها تضامن وتآلف.

وإذا قام هذا التكافل على أسس صحيحة ضمنت فيه عندئذ مصلحة الفرد والجماعة، للفرد كيانه ومميزاته وإبداعه،

ضمن سيطرة الجماعة ومصلحتها كما قال تعالى: ﴿إنّ هذه أمّتكم أمّة واحدة وأنا ربّكم فاعبدون﴾.(٦٤)

وكما قال صلّى الله عليه وآله: «المؤمن للمؤمن كالبنيان يشدّ بعضه بعضاً»، ومن أروع ما يضمن بقاء المجتمع قويّاً أن يكون فيه تكافل اجتماعي يقوم على أسس الإسلام وتعاليمه القويمة. والتكافل الاجتماعي في الإسلام شامل متكامل.(٦٥)

إنّ الصورة التي يريدها الإسلام للعلاقة في مجتمعه صورة مثاليّة لم تحلم بها الفلسفات والنظم الأخرى. صورة تجتث من الإنسان مشاعر الفردية البغيضة والأنانيّة والاثرة. وتجعل علاقته بأخيه مقياس إيمانه واستقامته . . . .

يقول رسول الله صلّى الله عليه وآله: «لا يؤمن أحدكم حتّى يحبّ لأخيه ما يحبّ لنفسه»، وبهذا ينتفي الصراع، ويختفي التظالم، ويحاول كلّ فرد أن يحدد موقفه من أخيه. على أساس ما يحبّه ويبتغيه، وهذا هو قمّة التضامن الروحي والنفسي.(٦٦)

ولتحقيق التكافل في المجتمع سنّ الشارع العديد من التشريعات التي تقرّر المسؤولية على الأفراد نحو مجتمعهم، وتقرّر المسؤولية على المجتمع نحو أفراده لحفظ تماسك المجتمع، وتوثيق الروابط الأخوية بين الناس. قال تعالى في تقرير ذلك على الأفراد: ﴿وقل اعملوا فسيرى الله عملكم ورسوله والمؤمنون﴾.(٦٧)

ومن أبرز هذه التشريعات المحقّقة للتكافل الاجتماعي: الصدقات، الكفّارات والفدية، الوقف، النذور، تشريع الرقابة العامّة لحماية المجتمع (الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر)، الواجبات الاجتماعيّة.

وحول النقطة الأخيرة، فقد شرّع الإسلام كثيراً من الواجبات الاجتماعية نوعاً من أنواع التكافل الاجتماعي، وحثّ عليها ورغّب فيها، ورتّب الثواب لنا عليها، فمنها: حقوق الجار، وحقوق الوالدين، وحقوق الأولاد، وحقوق المعاشرة الحسنة، ورعاية المجتمع لبعض أفراده كرعاية الصغار وحضانتهم، ورعاية اليتيم، ورعاية اللقطاء، وأبناء السبيل، والتبنّي والكفالة، ورعاية الشيخوخة والمرأة الحامل والمرضع والمطلّقة والأرملة، وإغاثة المنكوب واللهفان، ورعاية الجانحين والشواذّ، والمعوّقين والعاجزين بسبب طوارئ العمل.(٦٨)

وللتكافل مغزى حضاري لايخفى على ذوي الألباب، فهو مظهر من مظاهر المجتمع الحيّ، كما يقول الشهيد مطهّري، وكلّما ازداد الترابط والتضامن كلّما كانت

روح الحياة نابضة أكثر في المجتمع. ولهذا نجد أنّ دعوة الإسلام تتجه أول ما تتجه إلى إيجاد المجتمع المترابط المتكافل المتضامن، ومن هنا فهي دعوة إلى الحياة: **﴿يا أيّها الذين آمنوا استجيبوا لله وللرسول اذا دعاكم لما يحييكم﴾**.[٦٩]

والمجتمع الإسلامي الواقعي مجتمع حيّ لأنّ أفراده مرتبطون مع بعضهم ارتباطاً عضويّاً وثيقاً: «مثل المؤمنين في توادهم وتراحمهم كمثل الجسد اذا اشتكى منه عضو تداعى له سائر الجسد بالسهر والحمّى». هذه الحمّى التي تظهر في البدن ليست عمليّة مواساة فحسب، بل هي عمليّة نفير سائر الأعضاء لمواجهة العدوّ الذي هاجم العضو المصاب ولترميم ما أصاب هذا العضو من أضرار.[٧٠]

على أنّ هذه التوجيهات الإنسانية لم تقتصر على الجانب الوصفي التقريري، لأنّ ذلك يفقدها دلالاتها ومصاديقها، بل جعل الضمان الاجتماعي من صلب مسؤولية الدولة في المجتمع القرآني، والتي فرض عليها ضمان معيشة أفراد المجتمع الإسلامي ضماناً كاملاً. والدولة عادة تقوم بهذه المهمّة على مرحلتين: ففي المرحلة الأولى تهيّئ الدولة للفرد وسائل العمل، وفرصة المساهمة الكريمة في النشاط الاقتصادي المثمر، ليعيش على أساس عمله وجهده. فاذا كان الفرد عاجزاً عن العمل وكسب معيشته بنفسه كسباً كاملاً. أو كانت الدولة في ظرف استثنائي لايمكنها منحه فرصة العمل. جاء دور المرحلة الثانية، التي تمارس فيها الدولة تطبيق مبدأ الضمان، عن طريق تهيئة المال الكافي، لسدّ حاجات الفرد وتوفير حدّ خاصّ من المعيشة له.

ومبدأ الضمان الاجتماعي هذا يرتكز، في المذهب الاقتصادي للإسلام على أساسين، ويستمد مبرّراته المذهبية منهما:

أحدهما: التكافل العام. والآخر: حقّ الجماعة في موارد الدولة العامّة، ولكل من الأساسين حدوده ومقتضياته، في تحديد نوع الحاجات التي يجب أن يضمن إشباعها، وتعيين الحدّ الأدنى من المعيشة التي يوفّرها مبدأ الضمان الإجتماعي للأفراد.

فالأساس الأول للضمان لايقتضي أكثر من ضمان إشباع الحاجات الحياتية والملحّة للفرد، بينما يزيد الأساس الثاني على ذلك، ويفرض إشباعاً أوسع ومستوى أرفع من الحياة. والدولة يجب أن تمارس الضمان الاجتماعي في حدود امكاناتها على مستوى كل من الأساسين.[٧١]

والقرآن الكريم حينما يحثّ على

التكافل لايقفز على منطق الأشياء، بل إنّه يربط بين حلقات السلسلة عبر دوائرها التي تبدأ بالفرد وتنتهي بالمجتمع، ومسألة المجتمع هي مسألة الفرد أيضاً، في مفاهيم الدين عن الحياة وتفسيرها [٧٢] وتتسع هذه الدوائر باتّساع نطاقها الموضوعي. فمن أساسيّات الرسالة الإسلامية ايجاد الفرد الصالح، في المجتمع الصالح، ويتناسق هذا الهدف على كل المستويات: الفرد، الأسرة، الأرحام، الجيران، المجتمع.

إنّ تماسك الفرد والمجتع، في البناء الاجتماعي الإسلامي، وتمثّل الفرد للقيم الاجتماعيّة الإسلامية ولروح وأحكام الشريعة الإسلامية جعل من الفرد المسلم قيّماً على الحياة الإسلاميّة في مجتمعه، فالضمير الاجتماعي الذي يتمتّع به يفرض عليه إعلاء الصالح العام وتحقيق مصلحة الجماعة....

فقيم التضامن الاجتماعي والتكافل الاجتماعي، والعدالة الاجتماعية، والتعاون على البرّ والتقوى، والروح الجماعية، والمسؤولية الإجتماعية والتي تنبع كلّها من الشريعة الإسلامية ممثلة في القرآن الكريم والسنّة النبوية المطهّرة، كلّ هذه القيم صاغت وشكّلت المبادئ الإدارية والتي على ضوئها أنشئت سلسلة من النظم المندرجة والتي تندرج كلّها في إطار النظام الكبير وهو نظام الإسلام.

وبهذه القيم الاجتماعية يتحقّق الترابط العضوي والروحي بين ا لفرد والمجتمع، وبين الفرد ومؤسسته (محيطه)، بل بين المؤسسة والمجتمع، إذ أنّ كلّ التنظيمات، في المجتمع الذي ينظّمه الإسلام، مرتبطة بعضها ببعض، ومرتبطة بالمجتمع نفسه وبقيمه إذ ينتظم الجميع قانون موحّد لاتناقض فيه فهو الذي يحكم سلوك الأفراد والجماعات ألا وهو الشريعة الإسلامية التي لم تترك أيّ جانب من جوانب النشاط الإنساني إلاّ احتضنته بمبادئ العدالة، والفضيلة الإنسانية، والمصلحة الإنسانية....[٧٣]

خامساً ـ متوازن:

والمجتمع القرآني، بعد ذلك، مجتمع متوازن خالٍ من التناقضات، أو الإفراط والتفريط: **﴿وكذلك جعلناكم أمّة وسطاً لتكونوا شهداء على الناس ويكون الرسول عليكم شهيداً﴾**.[٧٤]

وحين تتم الصياغة للفرد والمجتمع، على أساس من حقائق المنهج الإسلامي، الذي لايقيم أيّ وزن للنعرات الجنسيّة، أو العصبيّات العنصريّة، أو الفروق اللونية، أو

الامتيـازات الطبقيّـة، فـإنّ من الطبيعـي أن تنعدم في كيان هـذا المجتمع وروحه، آفات التصـادم والتنافـر بين النـزعتيـن الفرديّـة والجماعيّة، وبذلك يقوم المجتمع على أساس التـوازن الكـامل بين مطـالـب الفـرد وحقّ الجمـاعة، فـي جوّ عـامـر بـالأخوة والـود، والحرّيـة والعدالـة، والمساواة فـي الحقوق والواجبات.(٧٥)

والنظام الصـالح هو الذي يـوازن بين دوافـع الفـرد ومصـالحـه، وبيـن صفتيـه المكـونتين لـه، كفـرد مستقل، وعضـو في جمـاعـة، كمـا يـوازن بين الجيـل الـواحـد والأجيـال المتعـاقبة فـي نطاق الإنسـانيـة الشـاملـة الرحيبـة. وذلـك ما يهـدف إليـه الإسلام، فمن الفرد المتوازن ينشأ المجتمع المتوازن، وفي المجتمع الصالح ينشأ الفرد الصالح. تلك نظريّة الإسلام، وهي نظريّة لا تغفل الفرد ولاتغفل المجتمـع، ولا تبالغ في تقديـر واحد منهمـا على حسـاب الآخر . . . وحين يكون كلّ فرد متوازناً في ذاته، يتكوّن بطـريقـة ذاتيـة مجتمع متـوازن الأغـراض والنزعات.(٧٦)

فالميـزة الأساسيـة للنظام الإسـلامي تتمثل فيمـا يـرتكـز عليه مـن فهم معنـوي للحياة وإحساس خلقي بها، والخطّ العريض في هذا النظـام هو: اعتبار الفـرد والمجتمع معاً، وتـأمين الحياة الفـردية والاجتمـاعية بشكل متـوازن. فليس الفـرد هـو القاعـدة المركزية في التشريع والحكم، وليس الكائن الاجتماعي الكبيـر هو الشيء الوحيـد الذي تنظر إليه الدولة وتشرع لحسابه.

وكل نظـام اجتمـاعي لاينبثق عـن ذلك الفهم والإحساس فهـو أمّا نظام يجـري مع الفـرد في نزعتـه الذاتيـة، فتتعرّض الحيـاة الاجتمـاعيـة لأقصـى المضـاعفـات وأشدّ الأخطار، وإما نظام يحبس فـي الفرد نزعته ويشـلّ فيـه طبيعتـه لـوقـايـة المجتمـع ومصـالحه، فينشأ الكفاح المـرير الدائم بين النظام وتشـريعاته والأفـراد ونزعـاتهم. بل يتعـرّض الوجـود الاجتماعـي للنظام دائمـاً لـلانتكـاس على يـد منشئيه مـادام هـؤلاء يحملون نزعات فردية أيضاً، وما دامت هذه النزعـات تجد لها ـــ بكبت النزعات الفـرديّة الأخرى وتسلّـم القيادة الحـاسمة ـــ مجالاً واسعـاً وميـدانـاً لا نظيـر لـه لـلانطـلاق والاستغلال.(٧٧)

وهذا هو سرّ الخلل العميق الذي تُعاني منه النظـريتان الرأسمـالية والشيـوعية، اذ تـذهـب الأوّل إلى أنّ الفـرد هـــو القـاعـدة المركزية، فيما تذهب الثانية إلى أن المجتمع لا الفرد هو ذلك . . . .

واذا ما انطلقنا إلى عالم الكون الرحيب،

فسنجد القرآن يعرض أروع توازن كوني أمام تصوّر المسلم، مما يجعله ينظر لكلّ ذرّة في الكون على أساس أنّها تشكّل جزءاً صغيراً من عالم كوني متناسق ومتوازن.... ﴿صنع الله الذي أتقن كلّ شيء إنّه خبير بما تفعلون﴾. (٧٨)

وهناك آلاف من صور التوازن التي اكتشفها الإنسان ووراءها مالا يحصى ولا يحيط به علم الإنسان لشدّة تعقيده.... (٧٩)

ويتجلّى التوازن في تصوّر المسلم، بين المادّة والروح، الدين والدنيا، العبادات والمعاملات،... الخ. كما في قوله تعالى: ﴿وابتغِ فيما آتاك الله الدار الآخرة ولا تنسَ نصيبك من الدنيا﴾ (٨٠)، و﴿يا أيّها الذين آمنوا كونوا قوّامين بالقسط شهداء لله ولو على أنفسكم أو الوالدين والأقربين﴾ (٨١)، و﴿محمد رسول الله والذين معه أشدّاء على الكفّار رحماء بينهم﴾ (٨٢)

وعلى الصعيد الاجتماعي، نجد أنّ الإسلام قد وضع للدولة مبدأ آخر - إضافة إلى التضامن الاجتماعي ـــ يجب عليها تحقيقه، وهو مبدأ التوازن الإجتماعي. وحين وضع الإسلام هذا المبدأ حدد مفهومه عن التوازن، فليس التوازن في مفهومه الإسلامي إلاّ التوازن بين أفراد المجتمع، في مستوى المعيشة لا في مستوى الدخل. والتوازن في مستوى المعيشة معناه أن يكون المال موجوداً ومتداولاً بينهم، إلى درجة تتيح لكل فرد العيش في المستوى العام، أي أنْ يحيى جميع الأفراد مستوى واحداً من المعيشة، مع الاحتفاظ بدرجات داخل هذا المستوى الواحد تتفاوت بموجبها المعيشة، ولكنّه تفاوت درجة، وليس تناقضاً كليّاً في المستوى، كالتناقضات الصارخة بين مستويات المعيشة، في المجتمع الرأسمالي.

وهذا لا يعني أنّ الإسلام يفرض إيجاد هذه الحالة من التوازن في لحظة، وإنما يعني جعل التوازن الاجتماعي في مستوى المعيشة هدفاً تسعى الدولة، في حدود صلاحيتها، إلى تحقيقه والوصول إليه، بمختلف الطرق والأساليب المشروعة التي تدخل ضمن صلاحيتها.

وقد قام الإسلام، من ناحيته، بالعمل لتحقيق هذا الهدف، بضغط مستوى المعيشة من أعلى بتحريم الإسراف، وبضغط المستوى من أسفل، بالارتفاع بالأفراد الذين يحيون مستوى منخفضاً من المعيشة إلى مستوى أرفع، وبذلك تتقارب المستويات حتى تندمج أخيراً في مستوى واحد، قد يضمّ درجات ولكنّه لايحتوي على

التناقضات الرأسمالية الصارخة في مستويات المعيشة.[٨٣]

وقد شرح القرآن الكريم دور الفَيْءِ ـ الذي هو أحد موارد بيت المال ـ في إيجاد التوازن، فقال: **﴿ما أفاء الله على رسوله من أهل القرى فللّه وللرسول ولذي القربى واليتامى والمساكين وابن السبيل كي لايكون دولة بين الأغنياء منكم﴾**.[٨٤]

إنّ هذه الآية الكريمة تتحدّث عن مصرف الفيء، فتضع اليتامى والمساكين وابن السبيل، إلى صفّ الله والرسول وذي القربى. وهذا يعني أنّ الفيء معد للإنفاق منه على الفقراء، كما هو معدّ للإنفاق منه على المصالح العامّة المرتبطة بالله والرسول. وتدلّ الآية بوضوح على أنّ إعداد الفيّ للإنفاق منه على الفقراء، يستهدف جعل المال متداولاً وموجوداً لدى جميع أفراد المجتمع، ليحفظ بذلك التوازن الاجتماعي العام، ولايكون دولةً بين الأغنياء خاصّة.[٨٥]

المزايا الفريدة:

إنّ ما يثير الانتباه، لأيّ راصد لهذه المعالم الفريدة، أنّها تعود لعالم رفيع كريم نظيف سليم ... عالم يصدر عن الله، ويتّجه إلى الله، ويليق أن ينتسب إلى الله ... عالم نقي القلب، نظيف المشاعر، عف اللسان، وقبل ذلك عف السيرة ... عالم له أدب مع الله، وأدب مع رسوله، وأدب مع نفسه، وأدب مع غيره. أدب في هواجس ضميره، وفي حركات جوارحه، وفي الوقت ذاته له شرائعه المنظمة لأوضاعه. وله نظمه التي تكفل صيانته، وهي شرائع ونظم تقوم على ذلك الأدب. وتنبثق منه، وتتسق معه، فيتوافى باطن هذا العالم وظاهره، وتتلاقى شرائعه ومشاعره، وتتوازن دوافعه وزواجره، وتتناسق أحاسيسه وخطاه، وهو يتّجه ويتحرّك إلى الله ... ومن ثمّ لايوكل قيام هذا العالم الرفيع الكريم النظيف السليم وصيانته، لمجرّد أدب الضمير ونظافة الشعور، ولا يوكل كذلك لمجرّد التشريع والتنظيم. بل يلتقي هذا بذلك في انسجام وتناسق. كذلك لايوكل لشعور الفرد وجهده، كما لايترك لنظم الدولة وإجراءاتها بل يلتقي فيه الأفراد بالدولة، والدولة بالأفراد، وتتلاقى واجباتهما ونشاطهما في تعاون واتّساق.[٨٦]

... هذا هو المجتمع القرآني

بعد هذه الجولة الطويلة نسبيّاً، في طبيعة المجتمع القرآني، لابّد من التذكير بجملة حقائق هي:

أ. ليس المجتمع الإسلامي هو الذي

بيّض فـي دستوره على أنّ ديـن دولته هـو الإسـلام، ثـمّ يسير كلّ شــيء له أهمّيـة في الدولة بعيداً عن الإسلام.

ب. وليس هـو الـذي يعطـل دواوينـه ووزاراتـه ومصالحـه أيّام الجمـع، ويحتفل الأعياد الإسلامية، ويـذيع من إذاعته الأذان والقرآن، ومـع هذا لا يشجّع المصلّيـن على إقامـة الصلاة، ولايعـاقب المقصّـرين على ترك الصــلاة، وهو كـذلك لايحكم بشـريعة القرآن، ولا يأخذ المجتمع بآداب القرآن.

جـ. وليس هـو الـذي يضـع قـوانين شرعيّة إسلامية، أو يعدّل قوانينه بما يتلاءم مع الشـريعـة الإسلاميـة. ثـمّ يدع الحيـاة الاجتماعية والفكريـة والسلوكية تمضي في غير إتجاه الاسلام.

إنّ المجتمع الإسلامي - كما قلنا ونقول - هو الذي توجّهـه عقائد ا لإسلام، وتحكمه شرائع الإســلام، وتقوده مفاهيـم الإسلام، وتسـوده أخـلاق الإسلام، وتسيطـر عليـه تقاليد الإسلام، وتسري في كلّ جنباته روح الإســلام، ويُصبغ فيـه كـلّ شيء بصبغـة الإسلام: ﴿صبغة الله ومـن أحسن من الله صبغة﴾.[٨٧]

إنّه مجتمع عقيدة وفكرة، مجتمع دعوة ورســالة، فـلابـد أن يتمثّل ذلك فـي جميع نـواحي حيـاته، روحيّـة ومـادّيـة، فكريـة وسلـوكيـة، تـربـويـة وثقـافيـة، نفسيّـة وإجتماعيّة، إقتصادية وسياسيّة.[٨٨]

الهوامش:

(١) د. مصطفى عبد الواحـد: «المجتمع الإسلامي»: ٢٨٦، بيروت، ١٣٩٤هـ ـ ١٩٧٤م.

(٢) معالم في الطريق: ٧٢.

(٣) آل عمران: ١١٠.

(٤) البقرة: ٢٥٧.

(٥) آل عمران: ٥٤.

(٦) الإسراء: ٦-١٠.

(٧) إبراهيم: ١.

(٨) محمـد عبد الجبّـار: بشيء من التصـرّف عن مقـال: «الأمّة في المفهوم الإسلامي»، مجلّة المنطلق ٥٩: ٦٦.

(٩) المجتمع الإسلامي؛ م.س: ٢٨٧.

(١٠) آل عمران: ٧٩.

(١١) سيّد قطب: «في ظلال القرآن»١: ٤١٩ (ط دار الشروق التاسعة ١٤٠٠هـ ـ ١٩٨٠م).

(١٢) المجتمع الإسلامي؛ م.س: ٢٨٧.

(١٣) الحجرات: ١٣.

(١٤) سبأ: ٢٨.

(١٥) مجلة المنطلق ٥٩: ٦٨.

(١٦) المجتمع الإسلامي: ٢٨٨.

(١٧) يُراجع كتابه: الغرب والشرق الأوسط «the Middle East and the West» (New York: 1961) P.57

(١٨) يراجع مقال: «من يحمي المسيحيين العرب؟» لفكتور سحاب، مجلّة المستقبل العربي، س٤، ع٣ (٨/ ١٩٨١م): ١٢٣ـ١٤٢.

(١٩) البقرة: ٢٥٦.

(٢٠) التوبة: ١٧.

(٢١) المجتمع الإسلامي: ٢٨٩.

(٢٢) في ظلال القرآن٢: ٨٧٤.

(٢٣) النساء: ١.

(٢٤) التحريم: ٦.

(٢٥) الصافّات: ٢٤.

(٢٦) الإسراء: ٣٤.

(٢٧) مجلّة المسلم المعاصر: مقال «القيم الاجتماعية الإسلامية» م.س٤٩: ٣٧، ٣٩، ٤٠، ٤٧.

(٢٨) النساء: ١.

(٢٩) في ظلال القرآن١: ٥٥٨.

(٣٠) المرجع السابق٢: ٧٦٩.

(٣١) المرجع نفسه١: ٥٣٢.

(٣٢) المرجع نفسه٦: ٣٣٣٧.

(٣٣) المرجع نفسه١: ٥٣٠.

(٣٤) الحجرات: ١٠.

(٣٥) المجتمع الإسلامي: ٤٥.

(٣٦) الحشر: ٩.

(٣٧) سيرة ابن هشام٢: ٥٠٤ (بيروت، ١٩٨٥).

(٣٨) نقلاً عن سيرة ابن هشام٢: ٥٠٥ (هامش رقم ـ١).

(٣٩) نقلاً عن سيرة ابن هشام٢: ٥٠٥ (هامش رقم ـ١).

(٤٠) آل عمران: ١٠٣.

(٤١) المجتمع الإسلامي: ٤٩.

(٤٢) الأنفال: ٦٢ـ٦٣.

(٤٣) النساء: ١.

(٤٤) الكافي للكليني٨: ٢٣٠ (نقلاً عن كتاب الحياة١: ٣٤٩) ط٣، طهران، ١٤٠١هــ

(٤٥) الحجرات: ١٣.

(٤٦) المجتمع الإسلامي: ٢٦٩ـ٧٠.

(٤٧)

(٤٨) الفاتحة: ٥.

(٤٩) الحشر: ٩.

(٥٠) الأنفال: ٧٢.

(٥١) النساء: ٧٥ـ٧٦.

(٥٢) الممتحنة: ٨.

(٥٣) المائدة: ٨٩.

(٥٤) المجادلة: ٢.

(٥٥) النساء: ٩٢.

(٥٦) المنافقون: ٨.

(٥٧) النساء: ١٤١.

(٥٨) النساء: ٧٥.

(٥٩) الحجّ: ٣٩ ـ ٤٠.

(٦٠) الميزان١٠: ٣٧١.

(٦١) المجتمع الإسلامي: ١٣٨.

(٦٢) للمزيد يُراجع مقال: «التكافل الاجتماعي في الاسلام والمستقبل» للدكتور عبد العزيز الخيّاط المنشور ضمن كتاب «الإسلام والمستقبل» :٢٢٧ وما بعدها.

(٦٣) د. وهبة الزحيلي: مقال «القرآن الكريم وأثره في بناء المجتمع الإسلامي»، مجلّة نهج الإسلام الدمشقيّة، س١٤، ع٥١ (٩/ ١٤١٣هـ ـ ٢/ ١٩٩٣م): ٣٢ـ٣٨.

(٦٤) الأنبياء: ٩٢.

(٦٥) د. عبد العزيز الخيّاط: مقال «التكافل الاجتماعي في الإسلام والمستقبل» المشار إليه سابقاً.

(٦٦) المجتمع الإسلامي: ١٤٨.

(٦٧) الأنفال: ١٠٥.

(٦٨) د. عبد العزيز الخيّاط: ٢٤٥ـ٢٤٨.

(٦٩) الأنفال: ٢٤.

(٧٠) الشهيد مطهّري: «أحياء الفكر في الإسلام»: ٢٥ تعريب محمد علي آذرشب، طهران، ١٤٠٢هـ.

(٧١) للمزيد يُراجع: «اقتصادنا» للشهيد الصدر: ٦٢٩ وما بعدها.

(٧٢) الشهيد الصدر: «المدرسة الإسلامية»: ٩٢، بيروت، ١٣٩٣هـ ـ ١٩٧٣م.

(٧٣) مجلّة المسلم المعاصر ٤٩: ٤٨، ٦٤.

(٧٤) البقرة: ١٤٣.

(٧٥) عمر عودة الخطيب: ٢٤١.

(٧٦) محمد قطب: «الإنسان بين المادّية والإسلام» : ١٦٠، ١٦٢.

(٧٧) المدرسة الإسلامية: ٩٥ـ٩٦.

(٧٨) النمل: ٨٨.

(٧٩) محمد علي التسخيري: «التوازن في الإسلام»: ٨، ١٥، بيروت، ١٣٩٩هـ ـ ١٩٧٩م.

(٨٠) القصص: ٧٧.

(٨١) النساء: ١٣٥.

(٨٢) الفتح: ٢٩.

(٨٣) إقتصادنا: ٦٤٠.

(٨٤) الحشر: ٧.

(٨٥) إقتصادنا: ٦٤٨.

(٨٦) في ظلال القرآن ٦: ٣٢٣٥ـ٣٢٣٦.

(٨٧) البقرة: ١٢٨.

(٨٨) د. يوسف القرضاوي: «الحلّ الإسلامي: فريضة وضرورة»: ١٨٤ـ١٨٥، بيروت، ١٤٠٠هـ ـ ١٩٨٠م.

* * *

مذاهب التفسير الاسلامي

عرض وتقديم: جلال الأنصاري

اسم المؤلف: المستشرق جولدزيهر

تعريب: د.عبد الحليم النجار

الناشر: مكتبة الخانجي بمصر، ومكتبة المثنى ببغداد

سنة الطبع: ١٣٧٤هـ ـ ١٩٥٥م

عدد الصفحات: ٤١٨



* * *

في البدء، نجد لزاماً علينا التنويه، الى أنّ وقفتنا مع كتاب هذا العددلم تكن نابعةمن حرص على التعريف به أو الترويج له والاشادة بكاتبه، خاصة وانه قد صدر بلغته الاصلية، منذ زمن ليس بقصير.. بقدر ماهي رغبة مستمدة تحدونا الى ضرورة الوقوف امام افكار هذا المستشرق اليهودي، والتي لاغنى عنها لقارئ يريد رؤية واضحة دقيقة لخلفيات الكثير من الدراسات التي يطرحها اليوم خريجو المدرسة

الاستشراقية، في ديار المسلمين، والتي تنطلق غالباً من الترسبات التي تركها الاستشراق في ضحاياه..

وقد تلفت انتباهنا احياناً بعض القضايا التي يطرحونها، لكن لانلبث ان نطلع عليها من مصادرها الاستشراقية، فنتأكد من جديد ان هؤلاء التلامذة لاتخرج مهمتهم عن الشحن من هناك والتفريغ هنا ، لذلك نراهم يخطئون في أبسط القضايا ، إنهم يخطئون حتى في الأسماء العربية الواضحة ، لأنهم يقرأونها قراءة أعجمية استشراقية ، ولانرى هنا أننا بحاجة الى إيراد الأمثلة ، كما يقول كاتب إسلامي معاصر (١).

حياد...أم احتواء معرفي ؟

ثمة ملاحظة جديرة بالاشارة ، في هذا الاتجاه ، وهي أن الاستشراق يشكل مؤامرة لتدجين العالم الشرقي عموماً ، وتشويه الظاهرة الإسلامية على الخصوص ، قصد توجيهها والتحكم في سيرورتها التاريخية .

فالاستشراق مؤسسة لتشخيص الشرق معرفياً بهدف الهيمنة على كيانه ، وجعله تابعاً منقاداً ، يلهث وراء «تقاليع» الغرب.

وعلى الرغم من اختلاف الباحثين في شأن بداية حركة الاستشراق ، فإنه لا يستطيع أحد أن ينكر علاقة الحروب الصليبية ببداية الحركة الاستشراقية ..ولاينبغي أن ننسى أنَّ أغلبية المهتمين بالشرق خلال العصور الوسطى كانوا من القساوسة الذين تربوا في الأديرة ، وان اهتماماتهم اللاهوتية كانت تهدف الى إرساء نهضة الكنيسة وإشاعة تعاليمها . فالكنيسة قد هيأت رهبانها وقساوستها ، ودعت رجال الفكر فيها الى محاربة المسلمين بالوسائل كلها ، وهي حرب امتدت خلال الحقب ، وتلونت بتطورات العصور الحديثة . فالاستشراق ارتبط في بدايته ـ كما يقرر « يوهان فوك » ـ بالحركة الصليبية ، وأن المستشرقين الأول كانوا يعتبرون عملهم نوعاً من الكفاح ضد الإسلام (٢).

وانطلاقاً من هذه الروح العدوانية نجد أنَّ عديداً من المستشرقين أو المهتمين بالشرق أساءوا إليه عن عمد أو غير عمد ، وأساءوا إلى الإسلام وكتابه ونبيِّه .. والافتراءعلى الإسلام وعلى نبيِّه وعلى القرآن الكريم أخذ من جهد المستشرقين كثيراً ، وقد سلكوا في ذلك مناهج عديدة ، فمنهم من درس مفاهيم الإسلام أو معاني القران الكريم محللاً ومستنتجاً ما أفاد الشك

، أو مـا صنف الفكـر الإسـلامي في درجـة الفلسفات النـاقصة أو السـاقطة ، ممَّـا أثَّر ، لـلأسف ، فـي عقـول بعض المسلميـن من المطّلعين علـى كتب الغـربييـن والمعجبين بمنطقهم والمبهورين بمناهجهم[٣].

وعلى الـرغم من أنَّ بعـض الدراسـات الاستشراقية كانت تقتـرب من صفة النزاهة والحيـاد ، إلاَّ أنَّها فـي النهـايـة ، وبكـل المقاييس تبقـى مظهراً من مظاهـر الاحتواء الثقافي .. وبهذا لم يقتصر الاستشراق على مخـاطبة العقـل الأُوروبي ، كمـا لم تقتصـر كتابات المستشرقين ودراساتهم على حماية الأُوروبي من اعتنـاق الدين الإسـلامي ، وإن كان ذلـك هو الهدف الأَوَّل ، وإنمـا تجاوزت الى محاولة إلغاء النسق الفكري الإسلامي ، ومحـاولـة تشكيل العقل الإسـلامـي ، وفق النسق الغربي الأُوروبي ، وإنجاب تلامذة من أبناء العالم الإسلامي لممارسة هذا الدور ..

لقد نشـر المستشرقون وحققـوا عدداً ضخماً من المؤلَّفات العربية ، لا تزال مرجعاً للباحثين والدارسيـن من الأُوروبيين والعرب أنفسهـم ..ولم يكتفـوا بـالتحقيـق والنشـر لأُمَّهـات الكتـب ، في السيـرة ، والتـاريـخ ، وعلوم القـران ، والتراجـم ، والملل والنحل ، والنحـو ، والتفسير ، بـل تجاوزوا ذلـك الى التأْليف في الدراسات العـربية والإسلامية ، حتى بلغ عـدد ما أُلِّفـوه في قـرن ونصف ـ منذ أوائل القرن التاسع عشر حتى منتصف القـرن العشـرين ـــ ستين ألـف كتـاب في التاريـخ والشريعة والفلسفـة ،والتصوُّف ، وتاريخ الأدب ، واللغة العربية[٤].

وعليـه فلا نستغـرب أن يدشِّن الغـرب الصليبي مشروعه هذا بـالتوجُّه الى القرآن ، باعتباره المصـدر الأساس لقوَّة المسلمين ، وعنوان مجدهم ، وباعث حضارتهم . وهكذا كانت ترجمة القـرآن التي تمَّت لأَوَّل مرة الى اللغة الـلاتينية عـام ١٤٣١م ..لتكون حجـر الأساس لانطـلاقة الدراسات الاستشـراقية الجادة العميقـة الفاحصة .والمستشـرقون حينمـا يعكفـون على دراسـة الإسـلام ، لا لأنهم يبحثـون عن الحقيقةـــ كمـا يتـوهم السذج مـن أهل هذا الـدين ! ـــ ولا لينصفوا هـذا الـدين وأصلـه ـــ كمـا يتصـور بعض المخدوعين حينما يرون اعترافاً من باحث أو مستشرق بجانب طيِّب في هذا الدين ! ـ كلا ! إنمـا هم يقومـون بهذه الـدراسة الجـادة العميقة الفاحصـة ، لأنهم يبحثون عن مقتل لهـذا الـدين ! لأنهـم يبحثـون عن منـافـذه ومساربه الى الفطرة ليسدوها أو يميعوها ! لأنهم يبحثون عن أسرار قوته ليقاوموا منها

! لأنهم يريدون أن يعـرفوا كيف يبني نفسه في النفـوس ، ليبنوا على غـراره التصورات المضـادة التي يـريدون ملْءَ فراغ النـاس بها[٥].

والغـريب أن بعضهـم لا يتـوانى عـن الإفصاح عن نيَّته هذه . وبكـل وقاحة . وهذا المبشـر تاكلي يقـول :«يجب أن نستخـدم كتـابهم (القرآن) ، وهـو أمضى سـلاح في الإسلام ، ضد الإسلام نفسه ، لنقضي عليه تمـامـاً ، يجب أن نُـري هـؤُلاء النـاس ان الصحيح في القرآن ليس جديداً وأن الجديد فيه ليس صحيحاً »[٦]

ويكفـي أن نشيـر هنـا الـى جـامعـة «ميونيخ » أسسـت معهداً خاصاً بـالأبحاث القرآنيـة لنقل ذلك النص بحثـاً ، وتمحيصاً ،وتوثيقاً، في ضـوء المنهجيات المعاصرة ، وكان ذلك قبيل الحرب العـالمية الثانية ، إلاّ ان فظاعة الحـرب دمرت ذلك المعهد [٧] فيما بقيت محاولات التدمير لهـذا الكتاب واتباعه مستمرة ، وبأساليب شتى .

وقد انصبت كل الدراسات على التركيز على نقطـة محـوريـة ، بخصـوص القـرآن الكريم ، ألا وهي طرح فكرة «بشرية القرآن » في إحدى صورتين .

ـــ الأولى : انه انطبـاع في نفس محمـد (ص) نشأ عن تأثره ببيئته التي عاش فيها .. بمكانها ، وزمانها ، ومظاهـو حياتها المادية والروحية والاجتماعية .

ـ الثـانية : انـه تعبير عن الحيـاة التي عاش فيها محمد (ص) ... بمـا فيها المكان ، والـزمان ، وجـوانب الحيـاة الاقتصاديـة ، والسياسية ، والدينية ، والاجتماعية .

وإحدى الصورتين مـلازمةللأُخرى .. فإذا كان القرآن انطباعاً منبثقاً عن البيئة فهو يعبِّر عن ذات هذه البيئة ، وبالعكس[٨].

وإذا كـان هنـاك ثمَّة مصـداق ، لهـذه المقـدمـات الطويلـة نسبيـاً ، في صفـوف الاستشراق الحـديث .. فإنَّ جولدزيهـر هو من بيـن أبرز المصـاديق الشـاخصة لهـذا الاتجاه الخطير.

فمن هو جولدزيهر هذا ؟

وماهي أهمُّ مساهماته الاستشراقية ؟

ـ المستشرق جولدزيهر : (١٨٥٠ـ ١٩٢١)

يهودي هنغـاري ، تعلَّم في بـودابست وبرلين وليبزيج [٩] ، انتدبته الحكومة للقيام برحلـة الى سـوريا (١٨٧٣) فصحب فيهـا الشيخ طاهر الجزائري مـدَّة ، ثمَّ تركها الى فلسطين ومصر (٧٣ـ ١٨٧٤) حيث تضلَّـع

من العـربية على شيـوخ الأزهر ، ولا سيَّمـا الشيخ محمد عبده متـزيياً بزيّهم [١٠]، وعيّن أستاذاً في جامعة بودابست (عاصمة المجر)وتوفي فيها[١١]، بعد أن ارتقى أعلى الدرجات العلمية (استاذ كـرسي) عام ١٩٠٦ [١٢]، وهو اضـافة الـى ذلك متضلع بـاصول اللغـات السامية.

احد مـؤسسي الاسلامـولوجيـا كعلم تاريخي[١٣]، وقـد عـرف بعـدائه الاسـلام وبخطورة كتاباتـه عنه، ومن محرري دائرة المعارف الاسلامية[١٤]. له تصانيف باللغات الالمـانيـة والانجليـزيـة والفـرنسيـة، في الاسلام والفقـه الاسلامي والادب العـربي، ترجم بعضها الى العربية[١٥] كتب عن القرآن والحديث[١٦] واشتهـر بتحقيقـه في تـاريـخ الاسلام وعلوم المسلمين وفرقهم وحركاتهم الفكـريـة . فعـد من اعـلام المستشـرقيـن واعتـرف لـه عظماؤهـم بطول البـاع..وقـد انتخب عضــواً فــي مجمع العلـوم المجـري (١٨٩٣) وفي مجامع علمية عديدة، ونال لقب دكتور شرف من جامعتي ادنبرا وكمبريدج، وحاضر في مؤتمـر المستشرقين بليدن عن مذهب داوود الظاهري (١٨٨٢)..وحاضر في مؤتمر المستشرقين بهـامبورغ عن المرائي عند العرب (١٩٠٢)، وانشأ عن الاسلام مقالات عـديدة فـي المجلات الآسيـويـة والغربيـة بالالمانية والفرنسية والانجليزية والروسية والمجريـة والعربيـة. اما اشهـر كتبه فقد صنفها بالالمانية والفرنسية والانجليزية[١٧] وقد نشرت مدرسة اللغات الشرقية بباريس كتاباً بالفرنسية في مؤلفاته وآثاره[١٨].

اشهر آثاره:

كان جولدزيهر مؤلفاً مكثراً في عدد من وجـوه الثقـافـــة الاسـلاميـة، وفـي الفقـه خاصة[١٩] ومن اشهر آثاره:

١ـ اليهود (بالانجليزية): ليبزيج١٨٧٠م.

٢ــ آداب الجـــدل عنـــد الشيعـــة (بالالمانية):ليبزيج١٨٧٤م.

٣ـ الاساطير عند اليهـود (بالالمانية): ليبزيج، ١٨٧٦م ثم تـرجم الـى الانجليزيـة ١٨٧٧م.

٤ـ الاســلام(بالالمـانية): بـودابست، ١٨٨١م، هايدلبرج،١٩١٠م ثم نقلـه (آرن) الى الفرنسية باشـراف المؤلف بعنوان:العقيدة والشريعـة في الاسلام: بـاريس،١٩٢٠م ثم نقله الـى العربيـة الدكتـور محمد يـوسف موسى والاستاذ عبد العزيز عبد الحق،١٩٥٩.

٥ــ درس فــي الاســلام فــي جـزءيـن كبيرين (بالالمانية): هاله ١٨٨٥ـ١٨٩٠م.

٦ـ بحث فلسفي في فقه اللغة العربية في مجلدين (بالالمانية)، ليدن ١٨٩٨م.

٧ـ نشر ديوان الحطيئة، بشرح السكري متناً وترجمة مع تعليق عليه : ليبزيج،١٨٩٣م.

٨ـ ترجمة كتاب توجيه النظر الى علم الاثر لصديقه الشيخ طاهر الجزائري(الى الالمانية):١٨٩٨م.

٩ـ نشر كتاب المعمرين للسجستاني: ليدن، ١٨٩٩م.

١٠ـ العقائد والشرائع عند المرجئة: ١٨٩٩م.

١١ـ القدرية والمعتزلة: ١٨٩٦م.

١٢ـ نشر جزءاً كبيراً من كتاب المستظهرية في فضائح الباطنية، وفضائل المستظهرية للغزالي، بمقدمة في ٨١ صفحة: ليدن، ١٩٠٦م.

ثم كتب عنه بالالمانية فصلاً في ١١٢ صفحة.

ومن بحوثه الخطيرة:

١ـ مقالة من كتاب اسرائيلي في اسماء الله الحسنى: ليبزيج، ١٨٩٣.

٢ـ تفسير بعض اسماء الله السريانية التي وردت في القصيدة الجلجوقية (الدراسات الشرقية لنولدكه، ١٩٠٦).

٣ـ دواوين القبائل (المجلة الآسيوية البريطانية، ١٨٩٧م).

٤ـ الخطيب عند العرب (الصحيفة الشرقية لفينا ٦،١٨٩٧م).

٥ـ التقية في الاسلام (ملحق المجلة الشرقية الالمانية، ١٩٠٦).

٦ـ نشر في المجلة الشرقية الالمانية بين عامي ١٨٩٧ـ١٩٢١ البحوث التالية: ديوان الحطيئة، الكتابة في الجاهلية، أمثال العرب، الصحيفة الكاملة للأمام زين العابدين(ع)، الشيعة، كتاب الملل والنحل، فتوى الفتاوى، ابن ابي العقب.

وله بالفرنسية:

١ـ رسالة في السامري وعجل الذهب(المجلة الافريقية، ثم على حدة).

٢ـ منوعات يهودية وعربية(مجلة الدراسات اليهودية، ١٩٠٦م).

٣ـ الحديث في الاسلام(الدراسات الاشورية، ١٩٠٩).

٤ـ نبذة عن إيمان العرب (منوعات ويرنبورج، ١٩٠٩).

٥ـ في الاسلام: إخوان الصفا: ١٩١٠.

٦ـ مربع: ١٩١١.

٧ـ فخر الدين الرازي: ١٩١٢.

٨ـ رسالة الحسين بن منصور الحلاج، نقد فيها كتاب الطواسين لماسينيون باسلوب لم يسبق اليه: ١٩١٣.

٩ـ البخاري: ١٩١٥ـ١٩١٦.

١٠ـ المعتزلة والمترادفات العربية: ١٩١٨.

١١ـ أسماء العرب: ١٩٢٨.

وله بحوث في لغات اخرى:

١ـ تكريم الاولياء في الاسلام (عالم الاسلام، ١٩١١ـ١٩١٢م) .

٢ـ دراسة عن النبي (المجلة الآسيوية البريطانية، ١٩١٢م).

٣ـ الاجماع (مجمع علوم الفلسفة والتريخ، ١٩١٦).

٤ـ عيادة المريض (الدراسات الاشورية، ١٩١٨ـ١٩١٩)

٥ـ البدعة (نشرة الدراسات العربية، ١٩٤٢)[٢٠]

وبسبب هذا النتاج المتعدد الاوجه، بكل ما يتسم به من التحامل على الاسلام، ادرجه المرحوم الدكتور محمد البهي في طليعة الخطرين من المستشرقين الذين تعد كتاباتهم حجة بين الغربيين أو لآرائهم شبه حجية بين المسلمين، كما اعتبر كتابه مذاهب التفسير الاسلامي ضمن الكتب الخطيرة[٢١].

اما المستشرق جان جاك وردنبرغ فيؤكد في دراسته «الاسلام في مرآة الغرب» بان جولدزيهر احد خمسة خبراء مهمين كصانعين لصورة معينة للاسلام، وهم (هيرغرونج، بيكر، مكدونالد، ماسينيون) .

ففي عمل كل من المستشرقين البارزين ـــ الذين يدرسهم ـــ ثمة رؤيا للاسلام على درجة عالية من التحيز بل وحتى من العدائية[٢٢].

هذه الشهادة ـ الاعتراف الذي شهد به « شاهد من أهلها» تلغي أية محاولة تجميل او اضفاء بعض المساحيق على الوجه الصالح لجولدزيهر، من قبل بعض المبهورين بالاستشراق ورموزه[٢٣]، ولمن يشكك في ما نذهب اليه، ندعوه الى متابعة الرحلة مع واحد من مؤلفات هذا المستشرق الخطر.

مذاهب التفسير الاسلامي

تتصدر الطبعة العربية للكتاب مقدمة المعرّب (دكتور عبد الحليم النجار)، وهي مقدمة قصيرة، يشير فيها ـــ باقتضاب ـــ الى عدد من الاشارات والتنبيهات، من قبيل التنويه بالترجمة الجزئية للكتاب التي نشرها صديقه الدكتور علي حسن عبد

القادر، لينتقل الى الاشادة بمنهجية الكتاب واسلوب البحث الذي اتبعه المؤلف، وعدّه عملاً مبتكراً، ناهيك عن طرافته في عرض مناحي الدراسات القرآنية، وتاريخ الثقافات الاسلامية.. ويدعو الى ترسّم واحتذاء الآخرين بهذه المنهجية، في بحوثهم ودراساتهم، سواء القرآنيّة وغير القرآنيّه!

والغريب أن المعرّب حاول — في مقدمته — التقليل من أهمّية الأخطار العلمية التي وقع فيها جولد زيهر، والافتراءات التي اطلقها جزافاً، وبروح غير علمية.. بل وتتنافى مع أبسط متطلبات البحث العلمي الذي طالما يتباهى به المستشرقون والمبهورون بهم!

أما محتويات الكتاب فتشمل الموضوعات التالية:

أولاً: المرحلة الأولى للتفسير:

ويتناول فيها نشأة التفسير المذهبي، واختلاف القراءات، وحظ الخط في ذلك. وقد ركّز المستشرق جولدزيهر كثيراً، في هذا الباب، على نقطتين هما: تناقض في القرآءات على حد زعمه، الزيادات المقول بوجودها في المصاحف الفردية غير مصحف عثمان. وقد استغرق حديثه عن النقطة الأخيرة ستاً وعشرين صفحة من الطبعة العربية (من ص: ١٢ — ٧٤).

ولا ينفرد جولد زيهر في هذا المنحى الخبيث، فهناك العديد من المستشرقين الذين سلكوا هذا المنهج، ويعتبر «نولدكه»(٢٤) من أخطرهم، في هذا المجال، ولا يخفي «جولد زيهر» اعجابه الكبير به حينما يقول عنه: وقد عالج هذه الظاهرة علاجاً وافياً، وبيّن علاقتها بفحص القرآن، زعيمنا الكبير: نيودور نولدكه في كتابه الأصيل البكر: تاريخ القرآن، الذي نال جائزة أكاديمية النقوش الأثرية بباريس» [الكتاب: ٧]

وكأنما وجد بعض المستشرقين في موضوع اختلاف المصاحف ميداناً يخبّون فيه ويضعون ليشفوا رغبة في صدورهم: هي زلزلة العقائد، وفتح أبواب الشكوك والزيغ، وفصم العروة الوثقى والرابطة المحكمة بين المسلمين.

فهؤلاء المستشرقون يعرفون أن الشك في نص يوجب الشك في نص آخر، فهم يلحّون في طلب روايات الاختلاف، وينقلونها في غير تحرّز، ويؤيدونها غالباً، ولا يمتحنون أسانيدها، ولا يلتفتون الى آراء علماء المسلمين فيها(٢٥).

ثانياً: التفسير بالمأثور:

يتطرق الكاتب، في البداية الى مسألة تجنّب تفسير القرآن التي دأب عليها المسلمون، في عصر صدر الرسالة، ثم يشير الى أنه قد وجدت طائفة من علماء الكتاب الفضوليين(...) الذين سدوا ثغرات القرآن (.. هكذا!) بما تعلموه من اتصالهم باليهود والنصارى(...) وأتموا ما تلقوه عنهم من القصص.. [الكتاب: ٥٧].

بعد ذلك يقف المؤلف عند اشارة القرآن الى الحوادث المقبلة المتأخرة عن نزوله، ويحاول جهد امكانه تسفيه كبرى الثوابت اليقينيّة مستفيداً من بعض التفاسير التي لا تخلو من الاسرائيليات فاقحمت أساطيرها على أنه تأويل أو من قبيل التنبؤ بالغيب.

وعند حديثه عن التفسير بالمأثور، يمر مروراً سريعاً على مكانة الرواية في العلم ونقدها، ليقف عند دور ابن عباس في التفسير، ومدرسته فيه، واختلاف الروايات في التفسير المأثور، لينتهي الى تفسير الطبري باعتباره يؤدي الى المرحلة الثانية في نمو علم التفسير.

ما يهمنا التنبيه اليه، هنا، هو تأكيدات جولد زيهر المستمرة حول ما يزعمه بـ «المسحة اليهودية» في مدرسة ابن عباس. وكيف انه (كان يقرأ القرآن كل سبعة أيام ويختم التوراة كل ثمانية أيّام بالرويّة والفهم.. وكان يدعو جماعة كبيرة من الناس احتفالاً بكل مرة يختتم فيها التوراة، ويرى أن هذا العمل الصالح يستوجب رحمة الله ورضاه!! ويذهب جولدزيهر في تخرصاته هذه الى مدى أبعد، حينما يقول: (وكثيراً ما نجد بين مصادر العلم المفضلة لدى ابن عباس، اليهود بيّن اللذين اعتنقا الاسلام: «كعب الأحبار» و: «عبد الله بن سلام» [ص: ٨٨] ويحاول جولد زيهر اقناع الآخرين بأن ما تعلّمه ابن عباس من أهل الكتاب لهو من أبرز معالم مذهب التفسير الذي أقامه هذا الأب الأول لتفسير القرآن، ويستعين جولدزيهر بما بيّنه المستشرق ليوني (كيتافي)[٣٦] مشيراً بجهده الممتاز في هذا المضمار، دون أن ينسى جولدزيهر الاشادة ببحث (كيتافي)هذا، والترويج له، اذ يستحق ـــ على حد تعبيره ـــ واحداً من المعالم المميزة لطريقته أن نبرزه ابرازاً خاصاً.. [ص: ٨٩].

ولا نحتاج الى تعليق على ما تقدّم، فالغرض واضح من التركيز على مثل هذه التوجهات المغرضة، خاصة اذا ما تذكرنا ان المستشرق جولدزيهر يهودي الأصل..

صليبي النزعة!

ثالثاً: التفسيـر في ضوء العقيدة: مذهب أهل الرأي

تحتل معركة المعتزلة مع مخالفيهم في تنـاول القـرآن المساحـة الكبـرى من هـذا الفصل، وفي هذا السياق يتطرق الى قضية حنق الحنابلة على الطبري، وطريقة المعتزلة في نصـوص الصفات الالهية، وتصـانيفهم فـي التفسيـر، كـالكشـاف للـزمخشـري، ومفاتيح الغيب للفخر الرازي.

ثم يتحـدث المؤلف عن اعجـاز القرآن وبلاء المعتزلة فيه، وانكار الزمخشري على الاشاعـرة جلّ آرائهم، وكـان لا يدع فـرصة تمر دون أن ينال مغمزاً من خصومه، وأحب الأسمـاء عنـده لهم: المجبـرة، الحشـويـة، المشبّهة، وأحياناً: المبطلة [ص: ١٤٨].

كذلك يتناول المؤلف منهج الزمخشري والمعتزلة في التفسير، والعقل عند المعتزلة باعتباره يمثل معيار الحقائق الدينية عندهم، وفـي ضـوء هـذا المنطلق تتجـه أفكـارهـم وآراؤهم على كافة الأصعـدة، كعدم الايمان بالسحر والكهانة وما يجري مجراهما..

وعلى طـريقة الاستشـراق المعروفـة بالدس والتشويه، أورد جولدزيهر جملة من المغالطات في هذا البـاب، ومن بين أبرزها: ادعـاؤه استنـاد الشـريف المـرتضـى، في محاولاتـه التفسيرية، الى تفسيـرات الزعيم القديم لمدرسـة الاعتزال: أبي علي الجبائي [ص: ١٣٨]، وبروز المسـائل العقديـة عند علمـاء الكـلام الاسـلاميـين، في القـرنيـن الأولين، تحـت تأثيـر النشـاط العقـدي في داخل الكنائس والفرق المسيحيـة الشرقية، وينهي جـولـدزيهر كـلامـه دون أن ينسى تأكيده المغرض في تأثيـر اليهودية على ما أخذه الاسلام في مسائل النزاع المعلقة بين فريقي الاعتزال وأهل السنة [ص: ١٩٠].

رابعاً: التفسير في ضوء التصوّف الاسلامي:

في هـذا الفصل يتحـدث المؤلـف عن وحدة الوجود، كمدخـل مناسب للحديث عن التفسير الذي يعتمده المتصوفة والقائم على التأويل والـرمز، ويستشهـد بأحـد آراء ابن عربي في العقيدة، لينتقـل الى اخوان الصفا وتأويلهم للنصوص الدينية، واسرار اخوان الصفا، وخصومة الغزالي لهم.

ثم يعقد جولدزيهـر موازنة بين اخوان الصفا والمتصـوفة، ويقف عند أحـد أقطاب التصـوّف وهـو الحـلاّج، بعـدهـا يتنـاول

موضوعات ذات علاقة: كالتفسير الاشاري للقرآن، تصنيف الصوفية في التفسير، ويقف طويلاً أمام تفسير وآراء ابن عربي، وخاصة في كتابيه: الفتوحات المكيّة وفصوص الحكم، ويستعرض العديد من أفكاره.

كعادته في ربط الكثير من تعاليم الاسلام بالأفكار النصرانية ـ اليهودية، نلاحظ جولدزيهر يحرص كثيراً على ابراز تأثر الصوفية بتعاليم «فيلون» الذي أثر اسلوب بحثه ـ كما يدعي جولدزيهر ـ في الحقائق الدينية والمأثورات المقدسة بطرق غير بادية للعيان، قروناً طويلة بعد ظهور ذلك الاسلوب، في تلك الطبقة التاريخية المتأخرة من مجال تأثيره، أي طبقة التصوّف الاسلامي [ص: ٢٣٣] ويلقي كلامه هذا على عواهنه، دون أن يقدّم ـ كعادته أغلب الأحيان ـ أي دليل على دعواه هذه!

ما تجدر الاشارة اليه، أن جولدزيهر، ورغم محاولاته الدؤوب في التظاهر بالحياد العلمي في عرض الأفكار، فانه يبث بعض سمومه، وبطريقة هادئة جداً، ويتضح ذلك حينما يكرر لفظة الاسلام الايجابي حينما يتحدث عن التصوف الذي يصوّر الشريعة على أنها مرتبة تمهيدية لاغنى عنها، لتلقى في طور متأخّر، وهو ما يطلق عليه بعض المتصوفة بالغاية النهائية وهي: «اليقين» [ص: ٢٠٢].

خامساً: التفسير في ضوء الفرق الدينية:

بعد جولة المستشرق جولد زيهر مع كل من مذهب أهل الرأي ومذهب المتصرفة، يواصل بحثه حول عامل ثالث هو عامل التفسير المذهبي: مصلحة الفرق الدينية، فيقول في هذا الصدد: «وعلينا أن نبحث بوجه خاص: على أي وجه أدخلت في القرآن مصالح الفرق التابعة لحزب الشيعة، ومبادئها الأساسية المميّزة لها» [ص: ٢٨٦].

بهذه النظرة المبهمة والمشوشة بدأ «جولدزيهر» حديثه عن التشيّع.. وعقائده، وحاول أن يرجع التفسير لدى الشيعة، في خطواته الأُولى، الى بعض الاشارات التي وردت في القرآن الكريم بحق الخوارج الحرورية [ص: ٢٨٧]، وكذلك ما ورد في تفسيرهم لـ (الشجرة الملعونه) التي وظفوها لطعن بني امية [ص: ٢٩].

وكنا نتمنى على جولدزيهر أن يحترم نفسه، ويقف عند حدود ثقافته المعرفية المحدودة، عن الاسلام وعوالمه العميقة.

وكـان الأوْلى به أن لا يخـوض فيما خـاض فيـه، من قضايـا لا يتسنى لـه ولأمثالـه أن يدلوا بدلوهم فيها، لقصورهم المعروف، في هـذا الأمر.. ولكنـه اقتحم أعوص المجـالات بقوالبه الاستشراقية القاصرة، والمشبوهة.

ومن هـذه القضـايـا، مثـلاً، يتعـرض «جولـدزيهر» الـى أول وأخطر وأحـدث من اختلاف؛ بين المسلميـن بعد وفاة الـرسول الأكـرم (ص)، ونعني بهـا الامامـة، فيذكـر الرواية المسندة الـى ابن عباس، بخصوص الآية السابعة من سورة الرعد: **﴿.. إنما أنت منذر ولكل قوم هاد﴾**: «روي عن سعيد بن جبير.. الذي أثنى عليه ابـن عباس بأنه أوثق حجج الديـن، أنه روى عن ابن عبـاس قال: لما نزلت **﴿إنما أنـت منذر﴾** الآيـة، وضع رسول الله (ص) يده علـى صدره فقال: أنا المنذر وأومأ بيـده الى منكب علي كـرم الله تعالى وجهـه فقال: انت الهادي يـا عليّ، بك يهتدي المهتدون من بعدي.. ».

وهنـا يعلّق هـذا المستشرق اليهـودي بقوله: «حقاً يرجع هذا الاعتراف بحجّية علي في العلم فحسب، لا الى حقـه، وحقوق بنيه السياسية، بيد أن النـاس قد بدءوا أيضاً في عهد مبكـر باستخـراج الادلّة الشرعيـة على هذه الحقوق من القرآن» [ص: ٢٩١] ويضـع جولدزيهـر نفسه مشرعاً، وكـأنه يعيد دور سلفـه البعيد كعب الأحبـار، الذي اعتـرض عليه ابوذر الغفاري ذات يـوم قائلاً: اتعلمنا في ديننا يا ابن اليهودية..؟!

ويسدر هذا الدعـي في غيّه، وعلى هذا المنوال، فيقول: «ويبدو ان اوّل ما تمسّك به مذهب الحزب العلوي هو الآية ٢٦ من سورة الاسراء، التـي تقرر على المسلميـن وجوب اعـانـة المسكيـن وذي الحـاجـة، بـادئة بالكلمات: **﴿وآت ذا القربى حقه﴾** فقد نقل الشيعـة هـذا الأمر مـن دائرة أداء الـواجب الانساني الى نطاق القانون الدولي، وحملوه على حقوق أسرة النبي السياسية [ص: ٢٩١ ـ ٢٩٢].

ثم ينتقـل «جـولـدزيهـر»، بعـد هـذه المقدمـات المفرضـة، الى الهـدف الأساس، وهـو التشكيك بموقـف الشيعة مـن النص القرآني الرسمي الموجـود بأيدينا وعلاقتهم به. ويتساءل بخبث: «هـل يعدّه (أي القرآن) هذا المذهبُ نصّاً معتمداً للوحي الالهي الذي أنزله الله على لسان محمد» (ص)؟

وهنـا يجيـب بقـولـه: «إنـه وإن كـان الشيعة قـد رفضوا الـرأي الذي ذهبـت اليه طائفة متطرفـة منهم، من ان القرآن المأثور لا يمكن الاعتراف به مصـدراً للدين، بسبب

الشك في صحته وبراءته من المآخذ، فانهم قد تشككوا على وجه العموم منذ ظهورهم في صحة صياغة النص العثماني. وهم يدّعون أن هذا النص العثماني، بالنسبة الى القرآن الصحيح الذي جاء به محمد (ص)، يشتمل على زيادات وتغييرات هامة. كما استُؤْصِلَتْ منه أيضاً، من جانب آخر، قطع هامة من القرآن الصحيح بالابعاد والحذف».

وعوضاً عن دعم أحكامه هذه بالدليل، وتعضيدها بالمصادر الشيعية التي من المفترض أنه استقى معلوماته منها ــ كما تقتضي أصول البحث المرعيّة ــ نراه يسارع للاستشهاد بما نشره باللغة الإنجليزية كليرتسدال w.st. clir Tisdall[٢٧] عن تلك (الزيادات) الشيعية المزعومة، ليخرج: «وكل ذلك يدل على استمرار افتراض الشيعة حصول نقص غير قليل في نص القرآن العثماني بالنسبة الى المصحف الأصلي الصحيح» [ص: ٢٩٥].

وبعد سطور قليلة من هذا الرأي ــ الذي لم يعتمد فيه ولو على مصدر شيعي واحد ــ يذهب الى القول: «ويبدو أنه لم يحصل أصلاً بين الشيعة اتفاق معيّن على علاقة نص القرآن المأثور بقالب من النص صحيح المطابقة في زعمهم لكتاب الله. فلم يبلغ واحد من النصوص التي حاولوا هم جمعها في دائرتهم الى اعتماد شرعي. والمؤكّد عندهم هو افتراض عدم اكتمال المصحف العثماني فحسب» [ص: ٢٩٦].

وأيضاً لم يقدّم هذا اليهودي دليلاً واحداً على زعمه (المؤكد) غير المؤكد! إن لم يكن المؤكد هو خلاف ذلك تماماً. وقد كفانا الامام الخوئي (ره) ــ وهو أحد أساطين مراجع الشيعة المعاصرين ــ مؤونة تعرية هذه الآراء المغرضة، إذ يقول:

[المعروف بين المسلمين عدم وقوع التحريف في القرآن، وأن الموجود بأيدينا هو جميع القرآن المنزل على النبي الأعظم (ص)، وقد صرح بذلك كثير من الأعلام. منهم رئيس المحدثين الصدوق محمد بن بابويه، وقد عدّ القول بعدم التحريف من معتقدات الإمامية. ومنهم شيخ الطائفة أبو جعفر محمد بن الحسن الطوسي، وصرح بذلك في أول تفسيره «التبيان» ونقل القول بذلك أيضاً عن شيخه علم الهدى السيد المرتضى، واستدلاله على ذلك بأتم دليل. ومنهم المفسر الشهير الطَبْرِسي في مقدمة تفسيره «مجمع البيان» ومنهم شيخ الفقهاء الشيخ جعفر في بحث القرآن من كتابه «كشف الغطاء» وادعى الاجماع على ذلك.

ومنهم العلامة الجليل الشهشهاني في بحث القرآن من كتابه «العروة الوثقى» ونسب القول بعدم التحريف الى جمهور المجتهدين ومنهم المحدث الشهير المولى محسن القاساني. ومنهم بطل العلم المجاهد الشيخ محمد الجواد البلاغي في مقدمة تفسيره «آلاء الرحمن».

وقد نسب جماعة القول بعدم التحريف الى كثير من الأعاظم. منهم شيخ المشايخ المفيد، والمتبحر الجامع الشيخ البهائي، والمحقق القاضي نور الله، وأضرابهم. وممن يظهر منه القول بعدم التحريف: كل من كتب في الإمامة من علماء الشيعة وذكر فيه المثالب، ولم يتعرض للتحريف فلو كان هؤلاء قائلين بالتحريف لكان ذلك أولى بالذكر من احراق المصحف وغيره.

وجملة القول: أن المشهور بين علماء الشيعة ومحققيهم، بل المتسالم عليه بينهم هو القول بعدم التحريف. نعم ذهب جماعة من المحدثين من الشيعة، وجمع من علماء أهل السنة الى وقوع التحريف]. قال الرافعي: فذهب جماعة من أهل الكلام ممن لا صناعة لهم إلاّ الظن والتأويل، واستخراج الأساليب الجدلية من كل حكم وكل قول الى جواز أن يكون قد سقط عنهم من القرآن شيء، حملا على ما وصفوا من كيفية جمعه وقد نسب الطبرسي في «مجمع البيان» هذا القول الى الحشوية من العامة[٢٨].

ولم يكشف الامام الخوئي (ره) بهذا الاستعراض الذي يدحض توجهات الاستشراق، بل راح يسرد الأدلّة الدامغة على صيانة القرآن من التحريف، ويفنّد شبهات القائلين بذلك[٢٩].

ومن القضايا التي استمر جولدزيهر في اثارتها والتركيز عليها هي ما يسمى بـ «مصحف فاطمة»، والذي زعم أن الشيعة يرون ان المهدي (عج) سينشره أولا بصورة نهائية، على النحو الذي رواه الأئمة (ع) [ص:٣٠٦].

بهذه الروح غير العلمية يواصل جولدزيهر مقولاته الطافحة بالدس والافتراء. ولم يكتفِ بكل هذه التشويهات المخلّة، وانما يذهب الى مديات أبعد، في هذا الاتجاه، وذلك حينما يحمّل التشيع أوزار الفرق الضالة والمنحرفة والمشبوهة، كما هو الحال مع البابية!، رغم اعترافه بانفصالها المتأخّر انفصالاً رسمياً عن الاسلام الذي ادّعت أنها نسخته [ص: ٣٣٦].

ولئن تفهّمنا مرامي الاستشراق ـــ

وجولدزيهر أحد أعمدته ــ من وراء كل هذه التخرصات، فـان مالم نتفهمه حقـاً، وهو ما يحزّ فـي النفس كثيراً، سكـوت المعرّب (د. النجّـار) عـن كـل النـزعـات التـي لصقهـا جولدزيهر بـالشيعة، دون أن يكلّف الدكتور نفسه عناء الرد عليها أو الاشارة الى خطلها، كما فعل في كثيـر من هوامشه المبثـوثة في فصول الكتـاب، والاستثناء الوحيد هـو، هذا الفصل الذي كـان خلوّاً من أي تنبيه يُـذكر!، ولا يعفيه اعتذاره في المقدمة عن التنبيه على المـوارد التي تستحق التنبيـه، عـزوفـاً عن الاطالة، وتـذرعاً بالعجالة.. لأنـه نبّه في غير موضع، ووقف مع جولـدزيهر أكثر من مرّة، إلاّ في الفصل الخـاص بالشيعـة! وهذا مـا حـدانـا أن نقف أمـام بعـض مـا سـاقـه جولـدزيهر من أحكام وآراء بعيـدة عن الحق والصواب.

التفسيـر فـي ضـوء التمـدن الاسلامي:

وهـو الفصـل الأخيـر، يتنـاول فيـه اشكاليّة الاسلام والحضـارة، وهل هما على طرفي نقيض، ام أنهما منسجمان؟ ورغم أن جـولدزيهـر يعترف بـأن الإجابـة عن هـذا السـؤال بالتضـاد بين الحضارة والاسـلام بأنه جـواب محبب الى دوائر كثيرة غيـر أنه يقر بأنه قد وجد في دوائر مختلفة من العالم الاسـلامي مـا يـرد عليهـا مـن الـوجهتين النظرية والعلمية. ويستـدل بآراء سيد أمير علي ليعرج، بعد هذا المـدخل السريع، على الترجمة الانجليزية التـي اخرجتها المدرسة الهندية على الترتيب الزمني، دون أن ينسى جولدزيهر الاشادة تكراراً بالسير سيد أحمد خان بهادر (١٨١٧ ــ ١٨٩٨م) على أنه رائد ديني لحـركـة التجديـد [ص: ٣٤٧] وليس بخاف سر هذا الاعجاب!.

وفي مقـارنة سـريعة بين المـدرستين الهندية والمصـرية، باعتبارهمـا يتصدران تيـارات العصـر الحـديـث، يخلص الـى ان المحرك الأوّل لهـذه الاتجاهـات هو السيـد جمال الـدين الأفغـاني (١٨٣٩ ـــ ١٨٩٧م) باعث التيار المعروف بـالوحدة الاسلامية. ثم يسلط بعض الاضواء علـى أفكار تلميذه الشيـخ محمـد عبـده الـذي أرسى اسـس ومعـالـم المـدرسـة المصـريـة. ويتنـاول جولدزيهر بشيء من التفصيل جهود محمد عبده وتلميـذه صاحـب مجلة المنـار السيد رشيـد رضـا في اثـراء حـركـة الاحيـاء الاسلامي، ومنهـج مدرسة محمـد عبده في تناول القـرآن، ومحاولة اثبـات ان القرآن لا يحتوي على ما يعارض العلم.

وما يؤاخذ على جولدزيهر أنه نسب كثيراً من الأقوال، التي ساقها في معرض التفسير الى الشيخ محمد عبده، مع أنها من كلام تلميذه السيد محمد رشيد رضا.

وفي خاتمة المطاف ينحي جولدزيهر باللائمة على علماء الشرع الرسميين (أو وعاظ السلاطين) الذين ادّى فساد مسلكهم الى تدهور الاسلام السياسي. وهذ المصطلح الذي استخدمه جولدزيهر مطلع هذا القرن قد شاع استخدامه، من جديد، على ألسنة دوائر الغرب وعملائها الفكريين في المنطقة، رهو مصطلح لا يخلو من تحامل، مع فارق في طبيعة الوضع الخاص لحركة الاسلام السياسي الصاعدة، والتي غدت اليوم خطراً حقيقياً على مصالح الغرب وأدواته ومخططاته.. ووجوده.

ولا يستغربنّ أحد من هذا التحامل، فهو الحضور الدائم في كل ما كتبه جولدزيهر ومنذ السطر الأول، حتى السطر الأخير من كتابه هذا. وذلك هو ديدن الاستشراق وطبيعته، مهما تلفع برداء العلمية او الموضوعية أو حتى المنهجية!.

كلمة لابدّ منها:

ولئن كان لا بد من كلمة أخيرة فهي: آن الأوان لكي نعيد النظر بكل ما أنتجه الاستشراق، وحري بنا نحن المسلمين أن نشمّر ساعد الجد للخوض في تراثنا وموروثنا الحضاري، ولا نظل مستسلمين لما أنتجه لنا الأعداء بكل ما ينطوي عليه من سموم وقدموه على طبق شهي، يغري ذوي العقول الخاوية، ويغذّي المهزومين من أبناء هذه الأُمة، ويكرّس عندهم الاستلاب الفكري المثير للأسى والدهشة معاً.

الهوامش

(١) تُراجع المقدمة القيمة للاستاذ عمر عبيد حسنة لكتاب: «المنهج في كتابات الغربيين عن التاريخ الاسلامي» للدكتور عبد العظيم محمود الديب (كتاب الامة، ربيع الثاني ١٤١١هـ)، ص: ٢٨.

(٢) عباس ارحيلة: «مقال» ترجمة معاني القرآن الى اللاتينية»، مجلة الأمة (القطرية)، العدد: ٧١، ذو القعدة ١٤٠٦هـ، ص: ٣٦.

(٣) د. محمد أمين فرشوخ: «المدخل الى علوم القرآن والعلوم الاسلامية»، بيروت، ١٩٩٠، ص: ٢٣٠، ٢٣٢.

(٤) عمر عبيد حسنة: المرجع السابق: ٢٨.

(٥) سيد قطب: في ظلال القرآن ٢: ١٠٦١ (طبعة دار الشروق التاسعة، بيروت، ١٤٠٠هـ ـــ ١٩٨٠م).

(٦) مصطفى خالدي، وعمر فروخ: «التبشير والاستعمار في البلاد العربية» ط٥، بيروت، ١٩٧٣، ص: ٤٠.

(٧) مجلة الأمة؛ المرجع السابق: ٣٨.

(٨) د. محمد البهي؛ الفكر الاسلامي وصلته بالاستعمار الغربي، ط٥، بيروت، ١٩٧٠، ص: ٢٢٥.

(٩) خير الدين الزركلي؛ الاعلام ١: ٨٤ (ط٧، بيروت ١٩٨٧).

(١٠) نجيب العقيقي؛ المستشرقون ٢: ٩٠٦ (القاهرة، ١٩٦٥).

(١١) الأعلام؛ المرجع السابق.

(١٢) المستشرقون؛ المرجع السابق:

(١٣) جان جاك ورد نبرغ: الاسلام في مرآة الغرب (مراجعة كتاب)، مجلة الفكر العربي، العدد ٣٢، نيسان (ابريل) ـــ حزيران (يونيو) ١٩٨٣، ص: ٢١٨.

(١٤) الفكر الاسلامي الحديث وصلته بالاستعمار الغربي؛ المرجع السابق: ٥٥٣.

(١٥) الأعلام؛ المرجع السابق.

(١٦) الفكر الاسلامي الحديث..؛ المرجع السابق: ٥٢٢.

(١٧) المستشرقون؛ المرجع السابق: ٩٠٦.

(١٨) الأعلام؛ المرجع السابق.

(١٩) د. عمر فروخ: «الاستشراق ماله وما عليه»، مجلة المنطلق، العدد ٨، ربيع الأول ١٤٠٠هـ، ص: ٣٦.

(٢٠) المستشرقون؛ المرجع السابق: ٩٠٧ـــ٩٠٨.

(٢١) الفكر الاسلامي الحديث..؛ المرجع السابق: ٥٥٣، ٥٦٠.

(٢٢) د. ادوارد سعيد: «الاستشراق: المعرفة. السلطة. الانشاء» (ط٢، بيروت، ١٩٨٤) ص: ٢٢٠.

(٢٣) المستشرقون؛ المرجع السابق.

(٢٤) تيودور نولدكه (١٨٣٦ ـــ ١٩٣٠): من أكابر المستشرقين الألمان. ولد في هاربورج (بألمانيا)، وتعلم في جامعات غوتنجن، وفينا، وليدن، وبرلين. وانصرف الى اللغات السامية والتاريخ الاسلامي فَعُيِّنَ استاذاً لهما في اكثر من جامعة. له كتب عديدة بالألمانية اهمها: تاريخ القرآن، حياة النبي محمد، دراسات لشعر العرب القدماء، النحو العربي، خمس معلقات.. وله بالعربية: منتخبات الأشعار العربية. كان يحسن اللغات الشرقية كلها كالعربية والآرامية والعبرية والصابئية والحبشية وغيرها.. فضلاً عن معرفته بلغات الغرب كاليونانية واللاتينية والفرنسية والانكليزية والايطالية والأسبانية ولغته الالمانية (الأعلام للزركلي ٨:٢٦).

(٢٥) لبيب السعيد: المجمع الصوتي الأول للقرآن الكريم او المصحف المرتل (القاهرة ١٣٨٧هـ ـــ ١٩٦٧م) ص: ٤١٣.

(٢٦) ليون كيتاني (١٨٦٩ ـــ ١٩٢٦): مستشرق ايطالي مؤرخ. من أهل روما، مولداً ووفاة. تعلّم في جامعتها وقام برحلات الى الشرق، ولا سيما الهند وايران ومصر والشام، وجمع مكتبة عربية عظيمة.

جعلها بعد وفاته للمكتبة الايطالية ــ وكان يحسن سبع لغات، منها العربية والفارسية. ألف بالايطالية كتاب تاريخ الاسلام (Annalli dell Is- lam) وطبع منه سنة ١٩٠٥ ــ ١٩٠٨ ثمانية مجلدات ضخمة محلاة بالرسوم والخرائط المفصلة انتهى فيها الى سنة ٤٠ للهجرة، نشر بالعربية «تجارب الأمم» لمسكويه (الأعلام للزركلي ٥: ٢٥٠).

(٢٧) يُراجع: Thi moslem world (1613) 111 227 - 241,Shish adidtion to thi koran.

(٢٨) يُنظر: البيان في تفسير القرآن (ط٥، بيروت، ١٣٩٤هـ، ١٩٧٤م) ص: ٢١٨ ــ ٢١٩.

(٢٩) المرجع السابق: ٢٢٥ ــ ٢٤٥، وقد عالج العلامة محمد هادي معرفة هذه الشبهة في كتابه «صيانة القرآن من التحريف»، وكذلك السيد علي الحسيني الميلاني في كتابه: «التحقيق في نفي التحريف»، وقد صدر الكتابان عن دار القرآن الكريم، عام ١٤١٠هـ.

* * *

تقرير عن المؤتمر الخامس لعلوم ومفاهيم القرآن الكريم

قد يكون بعض القراء الاعزاء على اطلاع بانه في السنوات الاخيرة، كان يعقد في مجال بحوث العلوم القرانية، وفي ذكرى مبعث الرسول الاكرم(ص)، مؤتمر سنوي في دار القرآن الكريم، مدرسة آية الله العظمى الكلبايكاني (قده)، وبمشاركة العلماء والمفكرين من الحوزة العلمية الدينية والجامعات، والهدف من عقد المؤتمر ، تهيئة الاجواء العلمية المناسبة في حقول المعارف القرآنية، والاطلاع على آخر مايستجدّ في مجال الدراسات القرآنية، ولحسن الحظ، فانه بعقد المؤتمرات الاربعة السابقة في السنوات الماضية، قد بحثت مواضيع مهمة وقيمة، وقد طبعت مجموعة من الخطب والمقالات الواصلة لامانة المؤتمر مرفقة بتقارير اللجان العلمية، ووضعت في متناول ايدي المهتمين بالامر.

الآن، وبعد انقضاء المؤتمر الخامس لعلوم ومفاهيم القرآن الكريم، رأينا من المناسب ان نقدم نبذة مختصرة وجامعة عن المؤتمر المذكور ولجانه العلمية، مع استعراض للتحليل الذي جرى في الاجتماع المنفصل وبحضور رؤساء اللجان العلمية، حتى يطلع قراء المجلة الاعزاء على وقائع المؤتمر:

انعقد المؤتمر الخامس لعلوم ومفاهيم القرآن يومي ٣ ـ ٤ من شعبان المعظم عام ١٤١٤هـ وبحضور ثلة من العلماء والاساتذة والمفكرين والمحققين من الحوزة الدينية والجامعات، وكان محور المؤتمر هو (القرآن والمجتمع)، وقد تفرعت عن المؤتمر خمس لجان هي على التوالي:

اللجنة الاولى: المجتمع من وجهة نظر القرآن.

اللجنة الثانية: هيكل المجتمعات الاسلامية وخصوصياتها.

اللجنة الثالثة: قيادة المجتمع من وجهة نظر القرآن.

اللجنة الرابعة: المجتمع والاقتصاد في المنظور القرآني.

اليوم الأول:

افتتحت نشاطات اليوم الاول للمؤتمر في صباح الثالث من شعبان، وذلك بتلاوة مباركة من آي الذكر الحكيم، وتبعتها كلمة للسيد محمد تقي فرجي مسؤول دار القران الكريم، حيث رحب بداية بمقدم السادة الحضور، وشكر الاخوة الكتاب والباحثين الذين تفضلوا بارسال مقالاتهم للمؤتمر، واضاف قائلاً:

كما هو معلوم للسادة، فان هذا المؤتمر كان يعقد سنوياً، وفي الذكرى العطرة لمبعث الرسول العظيم(ص)، ولكن هذا العام، انعكست الخسارة المؤسفة لرحيل المرجع الكبير للشيعة، سماحة اية الله العظمى الكلبايكاني(قده) على التحضيرات الخاصة بالمؤتمر، ومن ثمّ عدم عقده في موعده المقرر، بل ان الصدمة التي اصابتنا نحن في دار القرآن الكريم، كانت من الشدة بحيث لم نتصور باي حال من الاحوال إمكانية عقد المؤتمر في هذه السنة، ولكن الرغبة والحماس الشديدين لهذا الرجل الفذ نحو توسيع وتعميق الفهم لكلام الله، وروحه الوالهة بالقرآن والعترة، وبركة وقدسية القرآن الكريم، ولطف ورعاية إمام العصر(عج)أرواحنا لتراب مقدمه الفداء، كانت خير عون لنا في عقد هذا المؤتمر بالمستوى المطلوب.

وبعد ذلك، القى حجة الاسلام والمسلمين السيد جواد الكلبايكاني كلمة حول أهمية المفاهيم القرآنية في فكر المرجع الراحل(قده) واستعراض بعض خصوصياته الفذة.

قام بعدها آية الله مكارم الشيرازي بالقاء كلمة قصيرة شرح فيها جملة من خصائص المجتمع الاسلامي، وبعد ان بين بان تكامل الفرد وتكامل المجتمع من وجهة نظر الاسلام، أحدهما مرتبط بالآخر، وذكر ثلاثاً من الخصوصيات التي يمتاز بها المجتمع الاسلامي، أولاها الارتباط العاطفي والمعنوي والتي يعرفها القرآن بانها الاخوة والمحبة، والثانية، توسيع رقعة العلم والمعرفة في المجتمعات البشرية، وأوضح باننا إذا تمعّنا في القرآن الكريم والروايات المنقولة، نجد بان البشر قد قُسِّموا الى طائفتين، طائفة المفكرين وطائفة المتعلمين. أما ثالثة هذه الخصائص، فقد كانت مسألة العدالة الاجتماعية، وفي ختام حديثه أوصى بحفظ أواصر الاخوة والمحبة خصوصاً في الحوزات العلمية.

وتبعه بعد ذلك، آية الله الجوادي الآملي في حديث حول اصالة الفرد او المجتمع في المفهوم القرآني، وأوضح بان المسألة

جديرة بالبحث في فصل مستقل، وقد تعرض الى الاصالة الحقوقية والاصالة الاجتماعية اللتين تشكلان الفصلين الاول والثاني بشكل سطحي، وأما الفصل الثالث، وهي الاصالة الفلسفية، فقد جعلها محور حديثه، وبحث عدة امور في هذه القضية.

وفي ختام الجلسة الصباحية، توجه المشاركون في المؤتمر الى ضريح المرجع الكبير السيد الكلبايكاني قدس سره، لقراءة سورة الفاتحة على روحه الطاهرة.

وفي الساعة الثالثة من عصر اليوم الاول، انعقدت لجان المؤتمر الخمس حيث بحثت كل لجنة الموضوع الذي انيط به اليها، حتى المساء.

اليوم الثاني:

استهلت نشاطات اليوم الثاني للمؤتمر ، بتلاوة عطرة من القرآن الكريم، وبعد انتهاء التلاوة المباركة، كان الحديث للدكتور محمد باقر الحجتي حول العائلة، وتربية الطفل من وجهة نظر القرآن، وقدتناول في حديثه حقوق الطفل في العائلة، وبالاستناد الى الروايات المنقولة في هذا المجال، اورد بعض النقاط المهمة.

وبعدها اعتلى المنصة المنصة الدكتور الخليجي رئيس جامعة العلامة الطباطبائي، وقد تركز بحثه حول تركيبة المجتمع في المنظور القرآني.

رُفِعَت الجلسة بعدها لفسح المجال لالتئام لجان المؤتمر من جديد، كما استمرت اللجان عصر ذلك اليوم في عملها لمدة ساعة واحدة، وبعد ذلك عقدت الجلسة العامة للمؤتمر، وذلك بهدف تهيئة المسائل المتعلقة بسير المؤتمر، وقراءة التقرير المقتضب عن فعاليات دار القرآن الكريم، وكذلك تقديم التقارير العلمية للجان ومن ثمّ تلاوة البيان الختامي للمؤتمر.

في بدء الجلسة الختامية، جدد السيد فرجي شكره للاساتذة والباحثين لحضورهم المؤتمر، وعلى الاخص خطباء الجلسة الاعزاء، وأيضاً رئاسة المؤتمر الموقرة المتشكلة من السادة آية الله السبحاني؛ آية الله معرفة؛ وآية الله الاستاذي. وأضاف قائلاً:

وصلت لامانة المؤتمر الخامس لعلوم ومفاهيم القرآن حوالي ١٢٠ مقالة، والتي أخذت طريقها الى البحث وإكمال الاجراءات الخاصة بها. وعدا المقالات التي عرضت على اللجان، فان هناك مقالات اخرى مختارة ستطبع وتنشر كجزء من منشورات المؤتمر.

وقدّم بعدها ملخصاً لفعاليات دار القرآن قائلاً:

إن إحدى هذه النشاطات، هي الترجمة الفارسية للقرآن، والتى تجري على قدم وساق في قسم الترجمة، وتحت إشراف الهيأة العلمية، والتي تخطو آخر الخطوات على هذا الطريق والحمد لله، ويشارف العمل على النهاية.

النشاط الآخر للدار هو (الكشاف الموضوعي لآيات القرآن الكريم) والذي أُنجز القسم الاكبر منه حتى الآن، وسيهيأ ويقدم الى المحافل العلمية القرآنية في أقرب فرصة ممكنة.

وضمن فعاليات الدار - أضاف السيد فرجي - مواصلة اصدار مجلة رسالة القرآن، حيث ارسل العددان ١٣و١٤ الى المطبعة، وتواصل هيأة التحرير اعمال المجلة بنجاح، وقد احتلت هذه المجلة مكانة مرموقة في الداخل والخارج.

وفي هذا الاتجاه، قمنا في الفترة الاخيرة باصدار مجلة باللغة الفارسية تحمل اسم (بيام قرآن) وقد صدر منها لحدَّ الآن عدد تجريبي وستتابع الصدور باذن الله وقد حظيت في بدايتها الاولى بسمعة طيبة في المحافل الحوزوية والجامعية.

وبالنسبة للمتحف القرآني فقد يكون معروفاً لاغلب السادة الحضور حيث يحتوي على نسخ نفيسة وقيمة من القرآن الكريم، ويزور هذا المتحف الاخوة الزوار في مناسبات مختلفة.

وكان تاسيس مكتب جمع ونشر آثار فقيه اهل بيت العصمة والطهارة آية الله العظمى الكلبايكاني(قده)من بين الفعاليات التي انجزت بعد وفاته.

وفي الختام جدد السيد فرجي شكره للمشاركين لحضورهم جلسات المؤتمر.

وبعدها عرض رؤساء اللجان العلمية ولمدة عشر دقائق لكل منهم تقريراً للاخوة الحضور عن لجانهم، وفيما يلي نعرض لقرائنا الاعزاء خلاصة لهذه التقارير:-

اوضح الشيخ آية الله السبحاني رئيس اللجنة الاولى قائلاً:

قدم المشاركون في هذه اللجنة المقالات التي اعدت في مؤسسة الامام الصادق(ع) واثيرت النقاشات حول المواضيع التالية:

ا- حقيقة او اعتبارية الوجود للمجتمع:

طرحت في هذا المجال آراء مختلفة، وخلصنا الى نتيجة انه يمكن للمجتمع ان يحافظ على نوع من التوازن في وجوده. فكما ان المركبات تتفاوت فيما بينها هناك مركب صناعي وهناك مركب اعتباري فالمجتمع ايضاً يمكن ان يكون له وجود كما

هو الحال بالنسبة لوجود الفرد. بمعنى انه في الوقت الذي يكون فيه لافراد المجتمع افعالهم الفردية فانهم يؤثرون بعضهم في بعضٍ وينسجون - في المحصلة النهائية - روح الثقافة الواحدة، وشبيه هذا بالسيارة التي يكون لكل جزء منها عمل معين ولكن باجتماع كل الاجزاء ينتج لنا تركيب معين.

٢ـ قانون المجتمع والتاريخ:

في هذا الحقل توصلنا الى نتيجة وهي ان للمجتمع تاريخا خاصا به، ورقي وانحطاط المجتمع إنما يخضع لقانون، ولايكون اعتباطاً، أي ان رقي المجتمع يحمل في طياته اسباباً كما ان انحطاطه له موجباته الخاصة وحول هذه الاسباب والموجبات دارت مناقشات وفق التصور القرآني لها، وطرحت افكار حول كون التاريخ علماً ام لا واستخلصت بعض النتائج.

٣ـ المجتمعات الماضية درس وعبرة للمجتمعات اللاحقة:

نوقشت في هذا الصدد آيات عديدة من القرآن الكريم بحثت هذا الجانب وكانت النيجة بتاكيد القرآن على غائية دوران عجلة الزمان وهذه الغاية تتلخص بتمعن الانسان في مصير المكذبين والمجرمين، وأن يستقي درس عبرة من عاقبتهم السيئة. إن تاريخ الاجيال الماضية سفر مفتوح للاجيال اللاحقة التي عليها ان تتفكر فيه وتعتبر منه كما هو الحال معنا، حيث اننا ملف مقفل للاجيال اللاحقة يفتح لها عند لحاقنا بالسابقين معتبرين بحالنا ومآلنا.

٤ـ أصالة الفرد او المجتمع بالنسبة للحقوق:

في هذا الحقل كانت خلاصة المناقشات هي ان كلا الطرفين (الفرد والمجتمع) يتمتعان بحقوق، ومن غير الصحيح اختصاصها بطرف واحد دون الآخر بل كلاهما، وبصورة مستقلة، لهما هذه الحقوق وعند تعارض الحق الشخصي مع حق المجتمع يكون لزاماً عندئذ تقديم الاهم على المهم وعندها يكون الحكم بتقدم حق الفرد او حق المجتمع.

اما آية الله الآصفي فقد قال ان احدى محاور النقاش في اللجنة التي ترأسها يتناول جوهر القضية اي شكل المجتمع الاسلامي. كان الحديث في هذا المحور حول نسيج المجتمع وتركيبة سداه ولحمته وما هي العناصر التي يتشكل منها، وهل للقرآن راي في هذا الموضوع؟ وكانت نتيجة البحث هي اننا لو رجعنا الى كتاب الله نجد القرآن قد طرح نظرية الولاية واعتبر هذه النظرية جوهر واساس ارتباط افراد الامة الواحدة بعضهم ببعض ولمسألة الولاية

ثلاث ابعاد:

البعد الاول البعد العمودي الذي يربطنا بولاة الامر كالنبي والائمة عليهم الصلاة والسلام.

والبعد الثاني هو البعد الافقي للولاية والذي يربطنا بالمؤمنين.

اما البعد الثالث للولاية هو البعد الذي يربطنا بالتاريخ اي بمعنى اننا مرتبطون برباط التوحيد بكل الذين آمنوا بالله على مر التاريخ.

المسألة الثانية التي طرحت في هذه الجلسة هي التراكيب الاجتماعية. قبل الولوج في بحث هذه المسألة قدم احد المؤتمرين عشرين خصيصة من خصائص المجتمع الاسلامي والمستندة كلها الى الايات القرآنية. وبعدها بحثت مسألة العائلة والعناصر التى تتشكل منها والغرض من تشكيل العائلة والاثار والنتائج المترتبة على ذلك. وكان البحث منظما جدا واحتوى على اربعين عنوان استندت كلها الى القرآن الكريم. وبعدها طرح على بساط البحث نظام التربية والتعليم الخاص بالمجتمع. وفي النهاية نوقشت وجهة النظر الاسلامية ازاء القضايا الاجتماعية مقارنة بوجهة النظر الغربية في هذا المجال.

واوضح آية الله معرفة رئيس اللجنة الثالثة قائلاً:

كانت النقاشات في اللجنة الثالثة حول موضوع القيادة وضرورتها في المنظور القرآني.

نوقش اصطلاح الامامة المرادف لاصطلاح الحكومة والولاية، وبعدها تطرق البحث لابعاد الامامة، ووضعت لها ثلاثة ابعاد:

اولاً: الولاية التكوينية.

ثانياً: تبيان الاحكام الالهية.

ثالثاً: تشكيل الحكومة وتنفيذ الاحكام.

كان اساس البحث يدور حول الامامة بالمعنى الاجمالي لها والتي تشمل النبوة والامامة، وايضاً ولاية الفقهاء جامعي الشروط. بعد استعراض هذه المقدمة طرحت نبذة عن نظريات المتكلمين والفلاسفة والمفكرين الاسلاميين حول هذه القضية، وبعدها صنفت الدلائل والبراهين المستندة الى الايات القرآنية والروايات في هذا الشأن وقسم التصنيف الى خمسة مجاميع:

المجموعة الاولى: الدلائل المستندة الى ضرورة ان يكون تنصيب القائد من عند الله حتى يقوم ببيان الاحكام الشرعية للناس وتقديم النماذج التربوية للبشر.

المجموعة الثانية: ان ادارة الحكومة الالهية من قبل القادة الالهيين امر ضروري وحاجة البشر الى حكومة وقائد امر فطري وطبيعي.

المجموعة الثالثة: وجود الادلة على وجوب وجود حلقة الوصل بين الخالق والمخلوق والتي يكون لها الولاية على الناس وهدايتها.

المجموعة الرابعة: الدلائل الدالة على ضرورة وجود الامامة ووضع الاحكام وتشكيل نظام الحكم.

المجموعة الخامسة: الدلائل التي توضح شروط وصفات القائد.

حجة الاسلام والمسلمين الشيخ جعفر الهادي رئيس اللجنة الرابعة اوضح قائلاً:

لقد تم في اللجنة الرابعة بحث المسؤولية الفردية والاجتماعية المتقابلة من وجهة نظر القرآن.

لقد وجدنا في القرآن الكريم اكثر من خمسين آية حول مسؤولية الانسان والتي يدور بعضها حول موضوع العقاب والمحاسبة، وقد بحثت هذه الامور في اللجنة واستخلصت بعض النتائج وتطرقنا بعدها الى فلسفة المسؤوليات وقلنا ان الهدف منها هو حفظ سلامة المجتمع والتي تتطلب عدة عوامل منها التقوى، الوقاية من الاجواء المنحرفة، التسليم للاوامر الالهية، الابتعاد عن الثقافات الغربية، ممارسة عملية الامر بالمعروف والنهي عن المنكر بصورة جماعية، توضيح خصائص المجتمع المؤمن، التخلص من الهوى والشهوة وجوب اتباع القدوات الحسنة.

وفي النهاية نوقشت مسؤولية الفرد تجاه المجتمع.

اما حجة الاسلام والمسلمين هادوى رئيس اللجنة الخامسة فقد قال: لقد بحثنا في اللجنة الخامسة الاقتصاد من وجهة نظر القرآن، وقد ناقشنا كتاب (هيكل النظام الاقتصادي في القرآن) وهو يحتوي على قسمين:

القسم الاول مقدمة إجمالية حول كيفية خلق نظام حكم من الاسلام.

اما القسم الثاني فهو تطبيق هذه المقدمة في مجال الاقتصاد.

في القسم الاول، اوضحنا خصائص عوامل النظام وقمنا بتقسيمها الى ثلاثة اقسام هي: المبادئ والاهداف والاصول، بعدها بحثنا كلمة (نظام) التي تعني الانسجام والكمال، وبعدها بحثنا كيفية استنباط او تشكيل نظام معين من الاسلام، وكان الكتاب والسنة هما السبيل الى ذلك حسب هذه المناقشة.

اما القسم الثاني فنوقشت فيه اولاً مبادئ النظام الاقتصادي في الاسلام وهي على الترتيب:

١ـ الملكية

٢ـ المباحات العامة

٣ـ الحرية الاقتصادية

٤ـ الضمان الاجتماعي او المسؤولية المشتركة

٥ـ قيمة العمل، الحقوق ورأس المال.

ثم بينت اهداف النظام الاقتصادي على قسمين:

١ـ العدالة الاجتماعية (داخل المجتمع الاسلامي)

٢ـ القدرة الاقتصادية للحكومة (خارج المجتمع).

وبعدها بحثت اصول النظام الاقتصادي في الاسلام على الشكل التالي:

أ ـ الاصول الايجابية التي تشمل:

١ـ الفعاليات الاقتصادية

٢ـ التوزيع المجدد للثروة

٣ـ القرض الحسن

٤ـ الادارة الاقتصادية المناسبة.

ب ـ الاصول السلبية الشاملة على:

١ـ الربا

٢ـ الامراض الاقتصادية

٣ـ اكل الاموال بالباطل

٤ـ الإفراط والتفريط.

بعد عرض آراء اللجان الخمس في ختام الجلسة، تُلي البيان الختامي للمؤتمر الخامس لعلوم ومفاهيم القرآن الكريم، وفيما يلي نصه:

بيان المؤتمر الخامس لعلوم ومفاهيم القرآن الكريم

بعون الله وبرعاية بقية الله الاعظم امام الزمان(عج) انعقد المؤتمر الخامس لعلوم ومفاهيم القرآن وتحت شعار (القرآن والمجتمع)، وتزامناً مع الميلاد السعيد لسيد الشهداء الامام الحسين بن علي(ع) وحامل لواء كربلاء قمر بني هاشم(ع) لمدة يومين وبحضور العلماء والاساتذة والمحققين من الحوزة العلمية والجامعات.

الان وبعد اختتام اعمال المؤتمر يبعث المشاركون في هذا اللقاء العلمي بتحية إجلال وإكبار الى روح الفقيد السعيد فقيه اهل بيت العصمة والطهارة المرجع الكبير سماحة آية الله العظمى الكلبايكاني(قده) ويدعون من البارئ ان يمنحه الدرجات الرفيعة ويعلنون موافقتهم وتأييدهم لفقرات البيان الختامي.

اولاً: على البشرية والمجتمعات الاسلامية اذا كانت تريد سعادة الدنيا والآخرة ان تسير على هدى القرآن الكريم

وان تجعله دستور نظامها العملي والفكري لصنع الانسان السوي، وان تطبق اوامره في جميع مجالات الحياة باعتباره آخر كتاب سماوي منزل من لدن رب العالمين.

ثانياً: نظراً للهجمة الشرسة التي تتعرض لها القيم الاسلامية والسعي المستمر من قبل اعداء الاسلام لكيل الضربات المتوالية لهذا الكتاب الخالد، نؤكد بان الطريق الوحيد للنجاة من هذه الاخطار المهلكة هو نهضة المسلمين ويقضتهم وتمسكهم بالقرآن الكريم والعترة الطاهرة وان يلزموا الصراط المستقيم للهداية الالهية وتعرية اعداء الاسلام ورموز الهجمة الثقافية المضادة.

ثالثاً: ونحن إذ نثمن الصحوة القرآنية وإحياء القيم القرآنية بعد انتصار الثورة الاسلامية وان الارضية اصبحت مهيأة للاستقاء من هذا النبع الصافي، نرى ضرورة التنسيق بين الحوزات العلمية والمراكز والمؤسسات القرآنية وان تبذل الجهود المطلوبة لاشاعة المعارف القرآنية السامية.

رابعاً: نلفت انتباه الجميع وبالاخص المسؤولين عن المراكز الثقافية والعلمية في البلاد الى مؤلفات واحاديث بعض مدعي الثقافة والذين يسعون بافكارهم السامة الى ان يهزوا إيمان ومعتقدات الشباب والجامعيين ويستخفوا بمقدساتهم الدينية والقرآنية. ونحن إذ نؤكد انحراف هذه التحركات عن الصراط المستقيم للوحي والرسالة ندعو كل الطبقات وخصوصا الشباب والجامعيين الى الوعي والمحافظة على المعتقدات الاسلامية الاصيلة ونوصيهم بالابتعاد عن هذه المهلكة الاعتقادية.

خامساً: لاشك ان نجاح الحوزة والجامعات في الوصول الى اهداف النظام الاسلامي المقدسة والاكتفاء الذاتي مرهون بوحدة المرفقين العلميين ـ كما اكد الامام الراحل (قده) على ذلك مراراً ـ ومن هذا المنطلق نرى وجوب العمل علي ترسيخ هذه الوحدة، وندعو هذين المرفقين الى ادراك هذه المسؤولية الخطيرة والى إظهار اقصى درجات التوافق والتعاون فيما بينهما.

سادساً: نجد لزاما علينا دعم ومساندة المظلومين في العالم وعلى الاخص مسلمي فلسطين ولبنان وافغانستان وآذربيجان والبوسنة والهرسك ونعلن إدانتنا وانكارنا للسياسات التساومية لعملاء الاستعمار المتخاذلين وللمستعمرين الغاصبين وعلى رأسهم أمريكا.

سابعاً: ونحن إذ نؤكد على ضرورة

الاستمرار في دعم وتوسيع نشاطات المؤسسات والمدارس والمراكز العلمية التي كان يديرها ذلك الفقيه العظيم نتقدم بالشكر والتقدير لوليّ امر المسلمين، ورئيس الجمهورية الاسلامية لدعوتهما الى المحافظة على الاثار العلمية والفقهية للمرجع الكبير آية الله العظمى الكلبايكاني(قده).

ثامناً: ونحن إذ نشكر المسؤولين في دار القرآن الكريم على جهودهم في عقد المؤتمر العلمي وإيجاد الاجواء المناسبة للبحث حول علوم ومفاهيم القرآن ندعو الى استمرار عقد مثل هذه اللقاءات وتوسيعها.

والسلام عليكم ورحمة الله وبركاته

يوم الاثنين الرابع من شعبان المعظم١٤١٤هـ

* * *

جلسة تقييم:

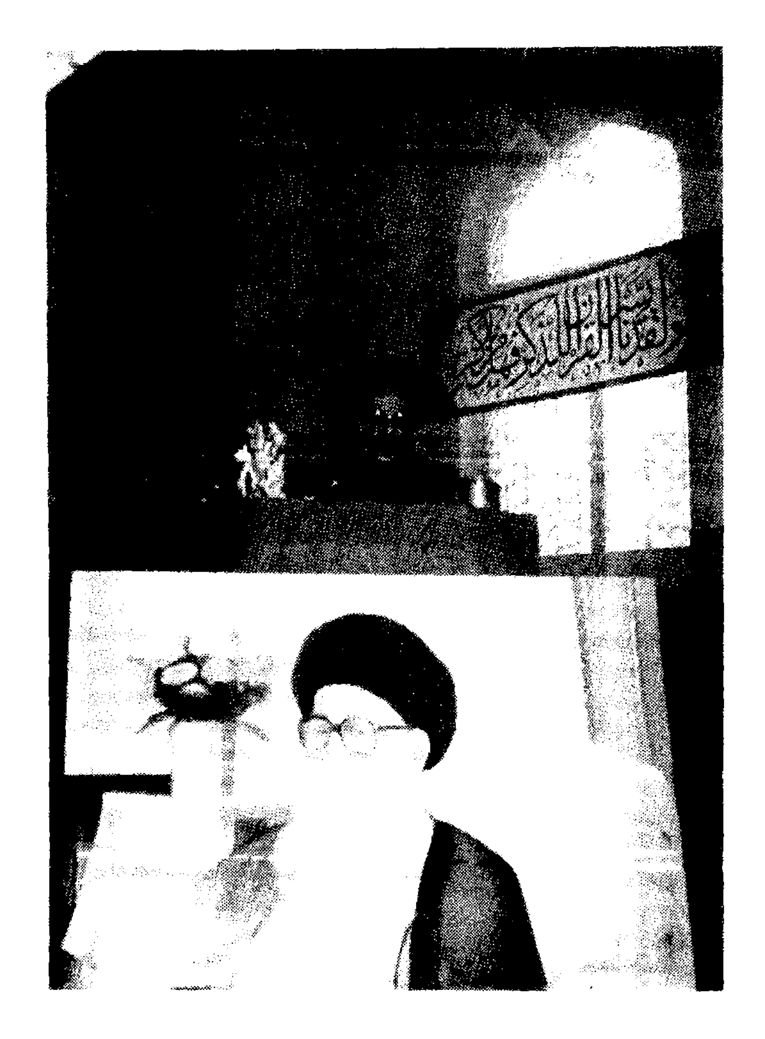
بعد انفضاض المؤتمر عقدت ـ وبدعوة من الزميلة «بيام قرآن» ـ جلسة خاصة بحضور مدير دار القرآن الكريم السيد فرجي وبعض رؤساء اللجان العلمية للمؤتمر لغرض تقييم الامور المتعلقة بالمؤتمر، وجرت مناقشات مستفيضة في هذا المجال وتم التوصل الى قرارات وتوصيات عديدة نسأله تعالى ان يأخذ بايدينا لما فيه خدمة كتاب الله الكريم إنه نعم المولى ونعم النصير.

التحرير

القرآن
و
المجتمع

لقطات من وقائع المؤتمر الخامس لعلوم القرآن ومفاهيمه

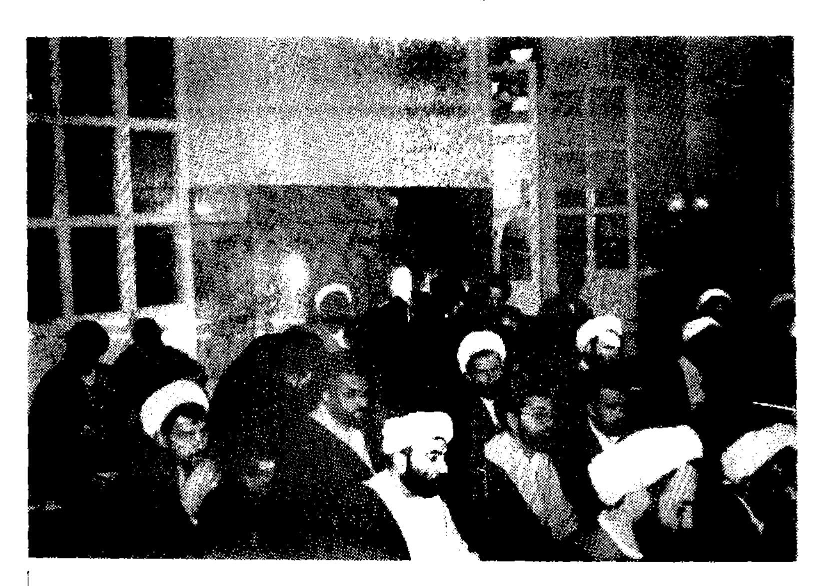
٣ـ٤ شعبان المعظّم ١٤١٤هـ



حجة الاسلام والمسلمين السيد جواد الكلبايكاني يلقي كلمة الافتتاح



جانب من المؤتمرين، ويبدو في الصورة عدد من كبار اساتذة الحوزة العلمية



جانب آخر من المؤتمرين



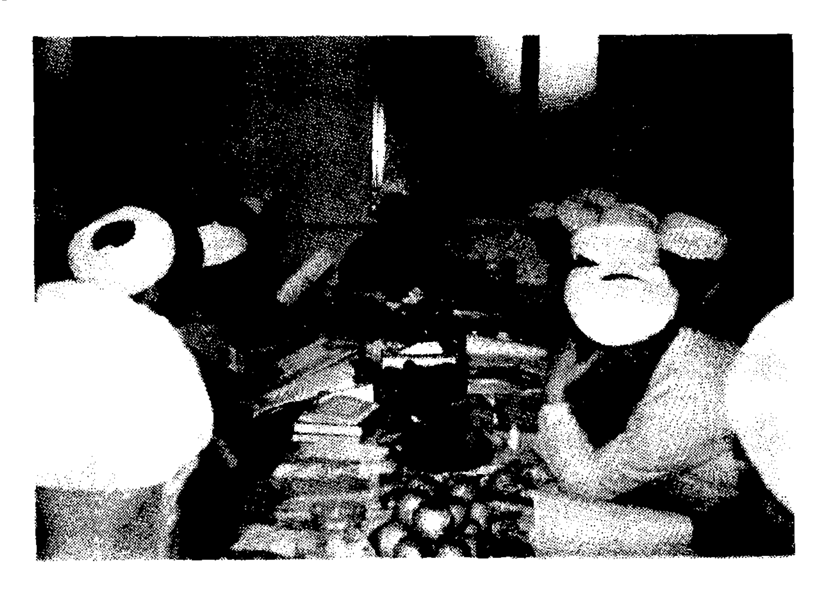
احدى جلسات اللجنة الأولى برئاسة آية الله الشيخ جعفر سبحاني



احدى جلسات اللجنة الثانية برئاسة آية الله الشيخ محمد هادي معرفة



احدى جلسات اللجنة الثالثة برئاسة آية الله الشيخ محمد مهدي الآصفي



احدى جلسات اللجنة الرابعة برئاسة حجة الاسلام والمسلمين الشيخ جعفر الهادي



احدى جلسات اللجنة الخامسة برئاسة حجة الاسلام والمسلمين الشيخ هادوي



الجلسة التقييمية للمؤتمر المنعقدة في دار القرآن الكريم